إعلام الفئام لمحاسن الإسلام
و
تنبيه البرية على مطاعن المسيحية

رسالة التخصص المقدمة بكلية الدعوة والإرشاد
بجامعة العلوم الإسلامية، علامه بنوری تاؤن، کراتشی
سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م

تاليف
رضاء الحق عفا الله تعالى عنه
خادم الحديث النبوي والإفتاء بدار العلوم زكريا

طبع تحت إشراف
فضيلة الشيخ شبير أحمد السالوجي حفظه الله ورعاه
مدير دار العلوم زكريا، جنوب إفريقية

مكتبة زمزم
للطباعة والنشر والتوزيع

Title	:	**ELAMUL FIAAM BI MAHAASINIL ISLAM**
Subject	:	**COMPARATIVE RELIGION**
Author	:	**RADHA-UL-HAQ** *(May Allah Protect Him)*
Publisher	:	**MAKTABA ZAM ZAM PAKISTAN**
Pages	:	**388**
Edition	:	**1st**

الكتاب : إعلام الفئام بمحاسن الإسلام و تنبيه البرية على مطاعن المسيحية

الموضوع : المقارنة بين الأديان

المولف : رضاء الحق عفا الله عنه

الناشر : مكتبه زمزم

عدد الصفحات : 388

سنة الطباعة : 2012

الطبعة : الأولى

للطباعة والنشر والتوزيع

بجوار مقدس مسجد السوق الأردوية كراتشي باكستان

هاتف: ٣٢٧٢٩٠٨٩-٢١-٩٢+

فاكس: ٣٢٧٢٥٦٧٣-٢١-٩٢+

البريد الإلكتروني : zamzam01@cyber.net.pk

الموقع الإلكتروني : http://www.zamzampublishers.com

Shahzaib Center near Muqaddas Masjid
Urdu Bazar, Karachi-Pakistan

Ph : +92-21-32729089
Fax : +92-21-32725673
Email : ZamZam01@cyber.net.pk
http://www.zamzampublishers.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح شيخي ووالدي الشيخ شمس الهادي رحمه الله تعالى، الذي كان يتمنى كثيراً في حياته أن تتحلى هذه المَقالة بحلية الطبع، لكن من الأسف أنه توفي قبل طبعها بسنتين. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وإلى روح أمي، وإلى أرواح مشايخي الذين بذلوا جهدهم في تعليم العبد الضعيف. اللّٰهُمَّ برد مضاجعهم وأسكنهم في جنة الفردوس.

رضاء الحق عفا الله عنه

تصدير

فضيلة الشيخ شبير أحمد السالوجي حفظه الله ورعاه

مدير دار العلوم زكريا، لينيشيا، جنوب إفريقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي بعث رسله ليكونوا حجة على الناس يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا، والصلاة والسلام على النبي الأمي محمد العربي صلى الله عليه وسلم، نبي الرحمة الذي بُعِثَ على فَترة من الرسل، بعد أن ضلت الأفهام وحرفت الحقائق وسَيْطرت الأوهام، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا كالنجوم بين الأنام.

لا شك أن الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه إنما هو دين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾. أي إن الدين المقبول هو دين الإسلاملا غير، الذي ختم الله به الأديان، وجعل رسوله محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين. أرسله بالحجة الساطعة والبرهان القاطع الذي يدل على صدق نبوته ورسالته عليه السلام، وهذا هو القرآن المعجز الذي جادل فيه اليهودُ والنصارى، وكابروا وعاندوا فلم يقروا بأنه كلام الرحمن مع أنه أظهر من الشمس في رابعة النهار.

ولهذا قال تعالى في شأنهم: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.(آل عمران: ١٩)

وإن من يكره الدين الإسلامي من أهل الكتاب لم يقفوا من الإسلام موقف الاعترافبه كما اعترف هو بدينهم قبل الانحراف وكتابهم قبل التحريف وبرسولهم، بل

ولا بجرد قبوله كحقيقة عقدية قائمة على أصولها، وإنما اتخذوا موقفامعاديا له ومناوئا لكتابه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فالإسلام دين يقوم على حقيقة وحدانية الله تعالى وعدم الغلوّ في الأنبياء وعدم القول على الله إلا الحق. يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنــزيله مخاطِباً أهلَ الكتاب–والمقصود هنا النصارى-: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا ﴾.(النساء :١٧١)،ولكن النصارى لم يستمعوا إلى هذا النداء الرباني، بل أصروا على التثليث وغلوا في عيسى بن مريم ووصفوا محمداً صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا تليق، فكفروا بمحمد وكتابه.

ومن هنا انقسموا إلى ثلاثة مذاهب رئيسة: أرثوذكسية، وكاثوليكية، وبروتستانتية، وهي مذاهب تختلف في أصل الدين وطبيعة المسيح، وهل الله واحد أم ثلاثة؟ وفي داخل كل مذهب وُجِدت فرق، وتعددت هذه الفِرق تعدداً كبيراً بسبب التحريف ودرجاته. ولا شك أن هذا التعدد في الفِرق هو تحقيق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي وأبوداود عن معاوية بن أبي سفيان مرفوعاً: «ألا إن من قبلكم من اهل الكتاب افترقوا على ثنتين و سبعين ملة ، و إن هذه الملة ستفترق على ثلاث و سبعين ، ثنتان و سبعون فى النار و واحدة فى الجنة ، و هى الجماعة »

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقاً أخرى معادية للإسلام نشأت في كنف النصرانية أو انتسبت إليها، منها:

– فرقة الجزويت الكاثوليكية اليسوعية المتعصبة التي لا هدف لها سوى القضاء على الإسلام .

– المارونية: وهي طائفة نصرانية كاثوليكية شرقية تقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وقد أعلنوا طاعتهم لِبابا روما وتعاونوا مع الصليبيين ضد الإسلام إبان الحروب الصلبية.

– المونية: وهي حركة مشبوهة تدعو إلى توحيد الأديان في بوتقة دين جديد بهدف إلغاء الفوارق الدينية بين الناس لينصهروا في «صن مون» الكوري.

– شهود يَهْوَه: وهي منظمة سرية تدَّعي أنها نصرانية، وهي تعمل لحساب اليهود، وتتعاون مع المنظمات التبشيرية ضد الإسلام، وتعرف باسم «جمعية العالم الجديد» .

– الاستشراق: وهو تيار فكري يدرس الحضارة الشرقية من خلال نظرة نصرانية ضيقة في أغلب الأحوال، ولذا تأتي الدراسات الاستشراقية في معظمها ضد حقائق الإسلام.

– التغريب: وهو تيار فكري ذو أبعاد سياسية اجتماعية وثقافية وفنية،يهدف إلى صبغ حياة المسلمين بصبغة غربية، وإلغاء شخصيتهم المستقلة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

– حركة التنصير وهي الحركة التي ظهرت إثر فشل الحروب الصلبية، بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة وبخاصة بين المسلمين من أجل القضاء على الإسلام. ولا يسع هذا التصدير أن نستعرض فيه مذاهب النصرانية وحركاتها المناوئة للإسلام، ونحن نكتفي بوقفة على هذه الحركة الأخيرة الذكر: حركة التنصير؛ لأنها أوسع انتشاراً وأشد خطراً وأكثر نشاطاً وتخطيطاً ضد الإسلام والمسلمين، وإن الوسائل التي تتسلح بها جمعيات هذه الحركة في العالم من الميزانية، ووسائل الإعلام، ووسائل

المواصلات والاتصالات، والقوة البشرية التي نالت التدريب اللائق، وفيهم علماء ومهندسون ومخططون، لا يمكن حشدها بالجهود الشخصية وإنما هي مدعمة من الحكومات والدوائر السياسية، أو على الأقل تنال هذه الجمعيات هذه المعونات بمعرفة الحكومات، فإن كثيراً من هذه الجمعيات تملك طائرات، ومحطات إذاعة، ووسائل الوصول والعمل في المناطق القاصية المنعزلة، ولا يمكن ذلك إلا بمعونة نظم الحكم في العالم المسيحي. ومن جهة أخرى يتعرض أدنى نشاط للدعوة الإسلامية لرقابة شديدة، وتصدر تعليمات من هذه الدول بتجفيف سائر منابع الدعم لهذا النشاط، وتنفذ الحكومات الإسلامية سائر هذه التعليمات، فتوقف النشاط الإسلامي، وفي الوقت نفسه تسمح للمنصرين بنشر شبكتهم.

ولم يقف العلماء الغيارى على الدين الإسلامي مكتوفي الأيدي من حملات التنصير عَبْرَ التاريخ فقاوموها وإن كانت المقاومة على غير مستوى الحملات من نواح عدة، ولكن مبدأ المقاومة كان موجوداً، ولا يزال قائماً مع اختلاف في القوة والوسائل والأساليب. ولما سقطت الهند في أيدي الإنجليز والمستعمرين، وكانت وفود المنصرين تتوالى عليها، وأخذ المنصرون في تنفيذ مخططاتهم، فانبرى للتصدي لهم علماء المسلمين في تلك البلاد بكل بسالة وجرأة، فناظروا هؤلاء الدعاةَ والقساوسة، وأظهروا لهم صدق الإسلام، وأجابوا عن جميع مطاعنهم على الإسلام والقرآن. فبكّتوهم وألجأوهم إلى الإقرار أو الفرار، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ محمد رحمة الله الكيرانوي، والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي،وغيرهما، ولم يقتصروا على التأليف، بل أسَّسوا مراكز لتدريب الدعاة المسلمين على مقاومة التنصير. وقد سجَّل التاريخُ ما كان لهؤلاء الدعاة من مواقف حاسمة في وجه افتراءات المنصِّرين على الإسلام.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم أيها القراء! جزء من تلك السلسلة التي ألفها علماء ديوبند في هذا الموضوع لكشف النصرانية وتعريف ووصف معتقداتها وطُقوسها وعباداتها، وما في كتبهم من تحريفات وخرافات تمس بكرامة الأنبياء والمرسلين، وبيان أن النصرانية الحقيقية قد اندرست، وحلت محلّها ديانة تعارضها على طول الخط بدلائل قوية وشواهد محكمة تقصم ظهر الباطل. ألّفه سماحة العلامة الْمحدِّث الفقيه المفتي رضاء الحق ـأدام الله ظلّه علينا بكل خيرٍ وعافية ـ شيخ الحديث ورئيس دار الإفتاء بدار العلوم زكريا بِجَنوب إفريقية.

وبما أن فضيلته يتمتع بتعمق في كثير من شعب العلوم وفنونه كعلمائنا القدامى مثل علوم القرآن، والحديث، والأصول، والفقه، وأسماء الرجال، والتاريخ إلى جانب تضلّعه من العلوم العربية من النحو والصرف، وعلم القوافي، والعروض، وقرض الشعر، والمعاني، والبيان، ومن العلوم العقلية من المنطق، والفلسفة، فإن أعماله العلمية والتدريسية والتأليفية قد زادت تعمقاً وبحثاً وشمولاً ولباقةً. وكتابه هذا وإن كان من باكورة تأليفاته حيث يعود تاريخ تأليفه إلى حوالى ثمان وثلاثين سنة ينم عن عميق علمه، وسعة دراسته، وطول باعه في الجدل والمناظرة، وقوة حفظه، وعلوّ كعبه في الْمجال العلمي.

فندعو الله تعالى أن يرعاه ويكافئه على ذلك مكافأة الْمحسنين، ويبارك في حياته، ويكثر من أمثاله في حراسة الدين والدفاع عن حوزته، ويوفقه لتأليف كثير من أمثاله في خير وعافية، وأن ينفع به المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

شبير أحمد السالوجي عفا الله عنه

خادم دار العلوم زكريا، جَنوب إفريقية

في شهر رجب المرجب 1430هـ/ سبتمبر 2009 م

تقريظ

بقلم الشيخ العلامة الدكتورعبد الرزاق اسكندر حفظه الله ورعاه
مدير جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاؤن، كراتشي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا. وأفضل الصَّلاة وأتَمّ التسليم على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه، الذين حملوا بهذه الأمانة وبلّغوها إلى الأمم والشعوب، وعلى من تبعهم بإحسان ودعا بدعوقم إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الصِّراع بين الحق والباطل قديم قِدَم التاريخ، منذ أن وُجد الإنسان على وجه هذه الأرض. والحق جنوده الأنبياء وأتباعهم، والباطل جنوده إبليس وأتباعه من الإنس والجن. وجنود الحق سِلاحهم دائما البيناتُ الواضحات من الوحي والْحُجج البالغات التي يقبلها العقل والفطرة السليمة، وسلاح الباطل الأوهام والعادات الموروثة، والتعاليم الْمحرَّفة، والخِداع والتلبيس، لذلك كانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل. قال تعالى:﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.(الأنبياء:١٨)

ومن صُور هذا الصراع هو الصراع بين الإسلام وبين المسيحية الْمحرفة. وما يواجهه المسلمون عامة، والعلماء والدعاة خاصة من التنصير المسيحي في معظم البلدان.

لقد وقع الصراع بين الحق والباطل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد واجه صلى الله عليه وسلم أهلَ الشرك والوثنية وواجه أهلَ الكتاب من اليهود

والنصارى، وكانت صورةً من صور هذا الصراع: مواجهته صلى الله عليه وسلم وفدَ علماء نجران الذين جاءوا إلى المدينة المنورة، وجادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر العقيدة حول سيدنا عيسى عليه السلام، فنــزلت آيات من أول سوة آل عمران، فأبطلت دعواهم وردّت شبهاتِهم فرجعوا خائبين.

وقد قام علماء المسلمين ودعاتُهم في كل عصر وفي كل مكان بإعداد العدّة لِمواجهة هذه الفتنة بالقلم واللسان، فبارزوا علماءهم، فكانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل.

وعند ما استولى الاستعمارُ على الهند بالْمكر والخديعة وقُضِيَ على الدولة الإسلامية وجد المنصّرون أرضا خِصْبة لنشر دعوة المسيحية بين أهلها، فقام كبار العلماء المسلمين في مواجهتهم وتحدَّوْهم، وناظَروهم على مَرأى من الناس ومسمع، فكانت الهزيمة دائما في نصيب الباطل، وكتبوا كتبا مفيدة في هذا الموضوع، ومن هؤلاء العلماء: العلامة رحمة الله الكيرانوي ــ رحمه الله تعالى ــ، والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي ــ رحمه الله تعالى ــ، وغيرهما من العلماء، جزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

وهذا الكتاب «إعلام الفئام بمحاسن الإسلام وتنبيه البرية على مطاعن المسيحية» لفضيلة الْمفتي وشيخ الحديث الشيخ رضاء الحق ــ حفظه الله تعالى وبارك في عمره ــ حلقة من حلقات هذه السلسلة، وهي عبارة عن رسالة التخصص (الْماجستير) التي اختارها أيام دراسته في قسم التخصص في الدعوة والإرشاد في جامعة العلوم الإسلامية (المدرسة العربية الإسلامية سابقا) بكراتشي، باكستان، التي أسّسها شيخنا الْمحدث الكبير العلامة محمد يوسف البنوري ــ رحمه الله تعالى ــ الذي كان غَيُورا على الإسلام، وحريصا على حفاظ إيْمان هذه الأمة من الفتن. لذلك فتح في ضمن التخصصات «التخصص في الدعوة الإرشاد» لإعداد العلماء

الذين يدافعون عن هذه الدين الحنيف، ويكتفون هذه الفتن للأمة بالحجة والبرهان حتى لا يقعوا في حبائلهم.

وقد قام فضيلة الشيخ رضاء الحق بإعداد هذه الرسالة، ثم طرأت عليه الأعذار المختلفة من المرض والأسفار حتى ضاعت منها بعض الأجزاء. وعند ما رزقه الله الصحة والفراغ بدأ فيها وصرف فيها جهده فجاءت في أحسن صورة وأكملها في الموضوع.

وقد قام فضيلته بالمقارنة بين الدين المسيحي والدين الإسلامي ـ وبضدها تتبيّن الأشياء ـ في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والنكاح، والطلاق. كما تناول تاريخ المسيحية وفرقها، وعقائدها الباطلة. وقارن بين حياة المسيح عليه السلام كما وردت في أناجيلهم، وحياة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، كما يعرفه القارئ من فهرس الكتاب.

فجزى الله تعالى فضيلة الشيخ المفتي رضاء الحق ـ حفظه الله تعالى ـ عن العلم والعلماء خير الجزاء على أداء فرض الكفاية، ونفع بهذا الكتّاب العلماء وطلاب الدراسات العليا للشريعة.

وإنني أتمنى أن يصل هذا الكتاب إلى المكتبات والجامعات الإسلامية، وإلى الدعاة الذين يوجهون هذه الفتنة، فيكون لهم سلاح وعدّة.

وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم.

كتبه

عبد الرزاق اسكندر

الوارد زائراً إلى دار العلوم زكريا

في شهر شعبان المعظم ١٤٣٠هـ/أكتوبر ٢٠٠٩م

إعلام الأحباب بِمُحتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المقالة تحتوي على المقارنة بين الديانة المسيحية، والديانة الإسلامية في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والنكاح، والطلاق، وتنطوي على تاريخ المسيحية، وبيان أدوارها، وأطوارها، وفرقها، وتسفيه عقولهم الزائغة، وردّ أقوالهم السخيفة من عقيدة الكَفّارة، والصليب، والعشاء الرباني، وغيرها، كما تشتمل على تمثيل حياة المسيح عليه الصلاة والسلام في مرآة أناجيلهم، وأسفارهم، وتصوير حياة محمد صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والمقارنة بين الحياتين. وتجدها متحلية بإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبذة من معجزاته، وبشاراته في الكتب السابقة، وهذا أعظم ما تنكره أذناب المسيحية، وأتباع النصرانية. وترى فيها غيرها من الجواهر الغالية، والفوائد العالية، والفرائد الثمينة، والعوائد القيّمة التي التقطتُها من كتب الأكابر، وانتقيتها من أسفار الأوائل والأواخر، وانتخبتها من زُبُر السبّاقين في مِضمار التحقيق والتصنيف. شكر الله مساعيَهم، وتقبل الله من الجامع هذا التأليف.

رضاء الحق عفا الله عنه

طالب التخصص في الدعوة والإرشاد

المدرسة العربية بنوري تاون، كراتشي، رقم: ٥

ذكر الأسباب لتأخير طبع الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي العظيم، والصلاة على رسوله محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، وعلى من تبعهم إلى اليوم الذي يقوم فيه الناس أمام الرب الرحيم.

وبعد: فإن العبد الضعيف الظلوم الجهول يقدم إلى حضرات الناظرين المقالة التي ألقيت على كاهلي حينما كنت أَدرُس في التخصص في الدعوة والإرشاد، وخرجت قرعتي بعد ما أكملت مطالعة بعض الكتب بالمقارنة بين المسيحية والإسلام، فبدأت فيها بحمد الله، وما كنت أهلاً لهذا الأمر الجليل، والخطب الجسيم، بيد أن توفيق الله عز وجل ساعدني، فوصلت إلى ختامها، وقوضت عن عرائسها، وحجالها، وخيامها، وكنت فرغت عن تسويدها قبل سنوات. وكنت كلما فرغت عن جزء منها قدمته إلى سيادة الشيخ البحّاثة مولانا محمد إسحق السنديلوي، فكان سيادته يلاحظه، ويمحو، ويثبت. ثم بقيت المسودة في زوايا الخمول كأنها لم تكن شيئا. وذلك لاشتغالي بالتدريس في جامعة العلوم الإسلامية علامة بنوري تاؤن كراتشي مدة طويلة، ثم في دار العلوم زكريا مدة مديدة.

ثم بعد زمن طويل ينوف على خمس وثلاثين سنة التمس مني حِبّي وأخي في الله تعالى الشيخ محمد عثمان البستوي – أمين مكتبة دار العلوم زكريا- حفظه الله تعالى ورعاه – أن تطبع هذه المقالة بكتابة الكمبيوتر، فوافقته، فشمر الأخ الْمخلص ذيله لكتابتها بالكمبيوتر، وتهيأ لخدمة الكتاب. فجزاه الله تعالى خير الجزاء في الدنيا والعقبى.

وهذه بضاعة مزجاة أسأل الله تعالى أن ينفع بها، ويجعلها ذخيرة نافعة فى العقبى، وذريعة للنجاة لي ولوالدي ولِمشايِخي ولعائلتي ولِمن ساعدني في هذا العمل المبارك.

ذكر بعض الأحوال التي عرضت عند كتابة هذا المقال

حينما ابتدأت الْمقالة أحدقتني أمراض مزمنة، لا سيما مرض الدّق، ووجع الصدر الذي كسر عظامي وأحنأني، وأنحفني، ولج بي، وشتَّت الحال وكسر البالَ وجعلني أدقَّ من الهلال. وذلك المرض كان بي حينما كنت مقيماً في مضافات بشاور، لكن فساد نسيم كراتشي، وقلة الاكتراث بالْمرض رقاه إلى ذروة الكمال، واجتواء هذه القرية، واستيخامها أوصلني إلى حافة الزوال، وحينما اشتدت صولته، وصالت شدته وحدته التجأت إلى الأطباء فشاوروني ـ والمستشار مؤتمن بفحوى الحديث ـ بالالتجاء إلى المستشفى المخصوص لهذا المرض، فاضطررت إليه وولجت فيه، وما على المضطرّ من بأس، لكن البيئة لم تساعدني والظروف لم توافقني، والمستشفى جعلني على شفا جرف هار، فلم تكن طمأنينة ولا قرار، وصرت كالنون إذا نُحِّيَ عن البحار، أو كالضب إذا أُلقيَ في الأنهار، فكنت كما قلت (شعر):

فقـــلبي كئيب للهمـــوم دريئة   تباريح حب والســـلافـــة أنفع
ألاَ فاسقني من كأس علم جريعة   فهـــذا مدام العـــاشقين و أنجع
وقلب الرضا بالصـــالحين معلق   فذا الفكر في حقل الخواطر يرتع

فقضيت فيه أربعة أشهر وأنا كسير البال، شتيت الحال، مختل الذهن، مغبون العقل، كأني مجنون وما بي جنون، بيد أن مغناطيس مجلس العلماء لم يزل يَجْذبني إلى رويضات العلم حتى استضعفت نفسي أضعاف ما كنت عليه في الغابر، ثم عدت إلى الجامعة، والعود كان أجدى و أنفع، والرجوع أفيد وأنجع، فعافاني الله و شفاني من ذلك المرض، وذلك ببركة صحبة الصالحين ـ ولستُ منهم ـ ولها تأثير عظيم في دفع الأهوال والنكبات.

وحينما استأهلت لأن أكتب شيئا، وعزمت أن أرفع ذراعي وجدت مخلاة ذهني وكنانته فارغة كما أصبح فؤاد أم موسى فارغا، ورأيت وعاء حفظي خاليا عما وعيته ورتبته لطول الزمان، وضعف البنيان، وغلبة النسيان، وكثرة الهموم والأحزان، والذهول عن الكراسات التي قيدت فيها ما حماه ناطور الجنان، فلمست نفسي كأني حديث عهد بالمقالة التي فُوِّضت إلي، ثم أنشأت مطالعة الكتب، وأسهرت فيها الليالي، وجددت الطِّراز القديم، وتوكلت على الله الكريم، حتى رفعت القلم عن ترسيمها، وفرغت من تسويدها وتبييضها. وذلك بتوفيق الله سبحانه وتعالى. ومع ذلك فإني معترف بأنها ليست مستوعبة جميع ما أردت وأحببت أن آتي به من المقارنة في البيوع، بل هي عارية عن هذا اللباس القشيب، وذلك لقلة المتاع وقصور الباع، وأكثر ما يوجد في المبايعات في الانجليزية مع أنها من المخترعات.[١] ونحن أبعد الناس عن هذه اللغة. وإلى الله المشتكى، فلعل الله يرزقني الاستطاعة على أن أضيف إليها هذه المباحث المطلوبة ودونه خرط القتاد، والله على كل شيء قدير، وإليه الاستناد، وعليه التعويل والاعتماد.

وأنا العبد الضعيف

رضاء الحق عفا الله عنه

---

(١) المراد نظام بياعات المسيحين.

أمور يجب التنبيه عليها

(١) جميع ما نقلت بِقَضِّه وقضيضه من عبارات الكتاب المقدس عندهم (BIBLE)، فهو من الترجمة التي تُرجِمت في مدينة بيروت عن يد مرسَلي الجمعية الأمريكانية لأجل انتشار الكتب المقدسة، المنشأة في ١٨٠٤ م في مدينة لندن، وطبع في مطبعة المدرسة من مدينة أوكسفورد ١٨٩٩ م، وهذه الترجمة يعول عليها المسيحيون كما أفصح عنه عبد الرحمن الجزري في كتابه «أدلة اليقين» (ص٣٠٢) بقوله: «نقلته من الترجمة التي يعول عليها المبشرون طبع الجمعية الأميركانية بمدينة نيويورك».

(٢) كثيراً ما اكتفيت واقتصرت بالإحالة على كتاب واحد، وإن كان الكلام الذي نقلته كالأحاديث والآثار في كتب متعددة. وبهذا المنهاج مشيت في نقل الأحاديث، فإذا أحلت على البخاري مثلاً فلا تظنن أن الحديث فيه خاصة، بل ربّما يوجد في كتب أخرى.

(٣) ربّما أعربتُ العبارات الأردية، ويكون ذلك خلاصة وفَذْلَكَةً، لا ترجمةً مخافة الإطالة والإسهاب وتحصيلاً للمطلوب، فلا تحسبنَّه خيانةً.

(٤) الذي نسخته من آيات الكتاب المقدس شاهداً، أو دليلاً، فذلك إتماماً للحجة عليهم؛ لأنهم يزعمونه حجة ودليلاً، وأظن أن كونه حجة لا يقع في زوايا قلوبهم، بل هذا قول بأفواههم، وساحتهم منــــزهة من العمل والاعتقاد بكتابهم. ولقد خلَّصهم ونجاهم رسولهم بولس من هذه المتاعب والمشقات، فلا تجد أكثرهم مؤمنين بالكتاب المقدس إلا وهم به كافرون. وحكمُ الكتابِ المقدسِ لنا أن ما وافق منه ديننَا وكتابَنا، أو ما صدقه القرآنُ فهو الحق، وما خالفه أو كذَّبه القرآنُ فهو الباطل، وما لا نعلم أنه صادق أو

كاذب لا نكذبه ولا نصدقه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولو: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم».[1]

(٥) ما خنت أحداً من المصنفين حتى نسبت كلمة الغير إلى نفسي، بل أحلت ما نقلت على من نقلت عنه إلا أن يكون أمراً مشهوراً لايختص به أحد، أونسيت وغفلت. والإنسان ابن الخطأ والنسيان.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (رقم: ١٧٢٢٥).

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فطرنا على الْمِلّة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء برحمته الكاملة، وأفاض علينا شآبيب نعمه السابغة، الذي لم يتخذ ولداً و لم يكن له شريك في الملك والأمر والعبادة. فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شي له القدرة، ومنه البداية، وإليه النهاية، لم يلد و لم يولد و لم يكن له نظير ولا شريك ولا صاحبة. ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة. أرسل رسله مبشِّرين بالجنة، ومنذِرين من الهاوية. فبلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة. أنزل معهم الكتب ليحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكفرة.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على خير البرية، شفيع الأمم يوم القيامة، بعثه الله لتبليغ الحق إلى الخلق، فبلغ ما أنزله وأخرج الأمم من الضلالة والجهالة إلى النور والهداية، وأقام على الكفرة والفجرة حجة الله البالغة. شعر:

فمبلَغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وعلى آله، وأصحابه الذين شيَّدوا أركان الدين بالسيوف والألسنة، السالكين منهج الإصابة والحجة، وعلى من تبعهم من الأئمة الأربعة، خصوصاً على الإمام الأعظم أبي حنيفة، وعلى جميع الصالحين من الأمة.

أما بعد: فقد اتفق جميع العقلاء من الأديان على أن دين الإسلام أعلى مرتبة، وأوفق طبعاً، وأقوى دليلاً، وأشمل فائدةً، وأسهل عملاً من سائر الأديان السماوية، صارع جميع الأديان فصرعها، وغالب كل المذاهب فغلبها، وظاهر المشارب الباطلة فظهرها. ليست هذه كلمة خرجت من أفواهنا جزافاً، بل شهدت بها الأعداء، فقد قيل في جريدة (ايجبت): «كما أن المسيحية لا يمكن أن ترقى إلى مرتبة الإسلام في

العلم والتمدن، كذلك لا يمكن أن تبلغه في الأخلاق». وقال الفلسفي المشهور (موسيورينان): «كلما دخلت مساجد المسلمين وجدت في نفسي انجذاباً إلى الإسلام، بل وددت لو كنت مسلماً».[1]

لكن الشقاء الأزلي، والإعراض الأبدي ألقى البعض في أودية الإنكار المستمر، وطرحهم في مزابل الْهوَى، وأنبت العناد في قلوبهم، فصارت قلوبهم بحيث لا تلين ولا تنفعل، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. خصوصاً فرقة النصارى، فإن مكائدهم وكيدة، وأفكارهم ذميمة، وعقائدهم وخيمة يفرقون عصا المسلمين، ويشتتون سوادهم، ويزلزلون أقدامهم. ولنقدم إليك تفصيل بعض مكائدهم الفاسدة: لما تسلطوا على الهند تَهيَّأوا لأن يقلعوا الإسلام من قلوب المسلمين، ويطفئوا نور الله بأفواههم ــ والله متم نوره ولو كره الكافرون ــ، فلم يفوزوا إلى الآن في المرام، ولا يفوزون إن شاء الله تعالى إلى يوم القيامة، بل عادوا خائبين خاسرين، فلم يرجعوا إلا بِخُفَّيْ حُنَين.

واحتالوا لتضليل المسلمين حيلاً شتى، فمن حيلهم: قتل المسلمين، وهتكهم، وتعذيبهم بأنواع العذاب. وسيجيء بعض بيانه إن شاء الله تعالى.

ومنها: صرف أموال خطيرة، وبناء المدارس والكليات والمستشفيات لإمالة قلوبهم من التعليم الديني، وإدخالهم في المدارس الحكومية الإنجليزية، لكن أكبر حيلهم، وأنجحها في إخراج المسلمين من حظيرة الإسلام تبليغ دينهم في حمقائهم، ونشر الكتب والجرائد والْمجلات في ضعفاء المسلمين، صرفوا لذلك ألوف ألوف روبية، بيد أن المسلمين لم يلتفتوا في أول الأمر إلى كيدهم و لم يُلقوا لهم بالاً، وزعموه أضعف من نسج العنكبوت، ثم لما قويت تلك الفتنة أحسوها وشمروا أذيالهم

---

(١) عيسائيت كاپس منظر (أسباب المسيحية) ص١٩، منقول من أخبار كوثر.

لمقارنتها واستيصالها وقلع أصلها وتدميرها بالدلائل والبراهين، واعتنوا لرد مقالهم، ونزلوا في ميدان المناظرة كما وقعوا في ميدان التأليف والتصنيف، ودعَوْا بأعلى نداء من هو مركز دائرة تبليغهم (المسيحيين) إلى ميدان المناظرة، فحازوا ـ رحمهم الله تعالى رحمة واسعة ووفّقنا لاتباعهم ـ قصبات السبق في هذا المضمار، وهزموهم هزيْمةً تكون عبرةً للأشرار. وأظهر الله الإسلام، وأزال الله من قلوب الناس جميع الظلام. ومُقَدَّمُهم في ذلك: مناظر الإسلام العالم النِّحرير كشاف الْمُعضَلات، حَلاّل الْمشكلات، مُذَلِّلُ الصعاب، سيف الله الْمبير على الأعداء، مخدوم الملوك والعلماء الْمحقق الْمدقق رحمة الله الكيرانوي ـ رحمه الله تعالى ورزقه جنة واسعة ـ فناظر رؤسائهم فهزمهم، وباحثهم فأزلّهم، وصنَّف في ردهم كتباً عظيمة الفوائد، جليلة العوائد، لا يُمكن أن يصنف مثلها ـ والله على كل شيء قدير ـ في قابل الزمان.

قال عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ: « وطلب رحمةُ الله صاحب الترجمة من فندر القسيس صاحب «ميزان الحق»، الذي كان أعلى القَسُوس كعباً في معرفة العلوم الإسلامية أن يناظره بِمَحضَر الناس ليتضح الحق، فأجاب ذلك في المسائل الخمسة التي هي أمهات الْمسائل بين الفريقين، أعني التحريف، والنسخ، والتثليث، وحقيقة القرآن، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فانعقد الْمجلس العام بـ «أكبر آباد»...فظهرت الغلبة لرحمة الله».[١]

ومن كتبه «إظهارالحق» كتاب لا مثل له ولا نظير. وقد قال فيه «لندن تائمز» ـ جريدة يومية تصدر من لندن ـ: «لو طالع الناس هذا الكتاب لامتنع رقي المذهب المسيحي وتوقف».[٢] وقد وصفه الموافق والمخالف. و«إزالة الأوهام»، و«إزالة

(١) نزهة الخواطر ١٦١/٨ .

(٢) من مقدمة «بائبل سے قرآن تک » ٢١٥/١ بحوالة «ايک مجاہد معمار» (المجاهد المعمار)، ونزهة الخواطر ١٦٢/٨ .

الشكوك»، و«الإعجاز العيسوي»، و«أوضح الأحاديث في إبطال التثليث»، و«البروق اللامعة»، و «معدل اعوجاج الميزان»، و «تقليب المطاعن»، و «معيار التحقيق».(١)

ومن الْمجاهدين الكبار الذين ناظروا قسيسيهم وهزموهم، وألقوهم في ورطة السكوت وشبكة الحيرة، وألقمهم الحجر، حجة الإسلام والمسلمين، قاسم العلوم والخيرات، جامع المعقولات والمنقولات، آية من آيات الله البينات، مؤسس دار العلوم الديوبندية: مولانا محمد قاسم النانوتوي ـ رحمه الله تعالى وأسكنه بُحْبُوْحَة جنانه ـ فناقش وناظر من هو أعلى كعباً فيهم: القسيس نولس الذي كان خطيباً فصيحاً فيهم، وهزمهم، وسوَّد وجوههم، وألَّف في ردهم رسائل لو رقمت بماء الذهب لكان أحرى بها. منها «حجة الإسلام» و«ميله خداشناسى» فيه تفصيل مناظرة وقعت بينه ـ رحمه الله تعالى ـ وبين المسيحيين، وغيرهما من العلماء الأعلام ممن له يد طولى في ردِّ دلائل المسيحيين، وكسر أعناق الضالين المضلين.

ثم لما تحررت هذه القطعة أي الْهند من تسلط الإنجليز، وتجزئت جزئين: جزء يسمي بـــ «الْهند» (هندوستان) وجزء يسمى بـــ«باكستان»، صرفوا هممهم إلى «باكستان»؛ لأنهم تيقنوا أنها تكون عينا معينا تفجر منها أنهار الإسلام، وشارعاً كبيراً لعابري دين محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأبرار، ومأمناً يأمن فيه مَن غرس في قلبه شجرة الإسلام، فأرادوا أن يقتنصوهم في حبائل مختلفة، وفتحوا أبواب الأموال على الفقراء والجهال، فإن المال فخ قوي للفقراء الذين لا يجدون ما يسد جوعهم، ويستر بدنهم، وبنوا مستشفيات بحيلة الخدمة الإنسانية، وعرضوا على الشبانِ والفتيانِ الفتيات الجميلات، وبنوا مدارس وكليات يعلّمون فيها بالتوجه الخاص لاستمالة قلوبهم، واستحالة عقولهم، فيصير الجاهل الحريص لهم بعد ما كان لنا.

ومن أقوى تدابيرهم في هذه القطعة تبليغ دينهم بالجرائد، والْمجـــلات، وغير

(١) من مقدمة «بائبل سے قرآن تک» ١/ ٢١٢ .

ذلك. وقد فازوا في ذلك إلى حد لايخطر ببالهم؛ إذ المسلمون نائمون ميتون جامدون خامدون، لا يلوون أعناقهم إلى سد باب هذه الفتنة إلى أن قالت الجريدة اليومية «نوائے وقت» الصادرة من لاهور: «زاد عدد المسحيين في «باكستان» (أي في حدودها) في ستين سنة ٣٦ ضعفاً، وحكم وزير الداخلية بتحقيق هذه الإضافة الْمحيرة كان في «باكستان» في الإحصاءات الإنسانية سنة١٩٤١م أحد عشر ألف مسيحي ١١٠٠٠، لكن الآن حسب رواية «براسيكتر» جريدة تصدر من كندا يرتقي عددهم إلى ٢٨٨٣٦٢، خَضَعَ هذا الجمع الكبير للمسيحية. وقال رومن كيتهولك في سنة ٥٨-١٩٥٧م: لقد حصل لنا فوز عظيم في جعل المسلمين مسيحين بـــ«باكستان».[١] وبالجملة ظهرت هذه الفتنة في أتم شكلها وأكمل شبحها وألقت جرانها.

فشمر العلماء ـ كثّرهم الله تعالى وبارك في مساعيهم ـ لِسَدّها ـ وهُمْ السد المنيع لكل فتنة تقوم على رؤوس المسلمين ـ فألفوا وصنفوا وبلغوا ودفعوا هذه الفتنة. والله دافع كل بلاء من حصن الإسلام، وحافظ دينه دين الإسلام، ومقويه بالدلائل والبراهين، ورافعه على أديان العالمين. ولنعم ما قال البوصيري في لاميته:

الله أكبر أن دين محمد و كتابه أقوى و أقوم قيلاً
طلعتْ به شمس الهداية للورى وأبى لها وصفُ الكمال أفولا
والحق أبلج في شريعته التي جمعت فروعاً للهدَى وأصولا
لا تذكروا كتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا
درستْ معالِمُها ألا فاستخبروا عنها رسوماً قد عفت وطُلُولا [٢]

البشارة العظمى: ومن بواعث الفرح والسرور أن فتحت الجامعة الإسلامية الواقعة بـــ نيوتاؤن في حدود كراتشي تحت إدارة شيخ الإسلام العالم الكبير الْمحقق

(١) *عيسائيت كاپس منظر بحواله نواءوقت*. ترجمته من الأردية، صفحه: ١٠-١١ .

(٢) ديوان البصيري، ص١٨٣.

الخبير الفقيه الْمحدث الشهير شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية نيوتاؤن، وعضو الْمجمع العلمي بدمشق ورئيس مجلس «تحفظ ختم النبوة» بـــ «باكستان» الشيخ مولانا محمد يوسف البنوري نَسَأَ الله تعالى في أجله، ومتّعنا وسائر المسلمين بطول حياته، وأقام ظله علينا إلى الأبد. شعر:

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضم إليها ألف آمينا

من قال آمين أبقى الله مهجته فإن هذا دعاء يشمل البشرا

درجةَ التخصص في الدعوة والإرشاد ـ كما فتح التخصصين في الحديث النبوي والفقه قبل ذلك ـ لرد الفرق الباطلة كالقاديانية، والمسيحية، والرفض، والبدعة؛ والدعوة على منهاج صحيح، ومنوال رائع، يعلم فيها آدابها، وشرائطها، وطرقها وفقا لأمزِجَة العهد الحاضر تحت إشراف مولاي وسندي، الشيخ الكامل، العالم الألمعي، والفاضل اللوذعي، سيف الله الصارم، الذي لا يخاف في الله لومة لائم، قامع الرفض والبدعة، صاحب التصانيف الجليلة الشان: مولانا محمد إسحاق الصديقي الندوي السنديلوي، لا زالت فيوضه على الأقاصي والأداني.

وبعد ما طالعنا قدراً يعتد به من كتب المخالفين وردّهم فُوّضت إلينا مقالات، وخرجت قرعتي بمقالة «المقارنة بين الدين المسيحي ودين الإسلام»، وإن لم أكن أَهلا لِهذا الأمر الجليل، ولقد حق لي أن أقول(شعر): بنده اين بارگران رانتوان كردكشيد، لكن مع ذلك قرعه فال بنام من ديوانه زدند (بتغيير يسير).

فبدأت بها بتوفيق الله وتوقيفه. والله أسأل أن يوفِّقنِي لإتْمامها كما وفَّقنِي لبدئها، والإتْمام بيد العزيز المنان. والمرجو من الإخوان الخلان أن يعفوا عن زلاتِي وأن يصحِّحوا خطئي وأغلاطي، وأن يكونوا أصحاب شفقة ورحمة، لا عناد وخصومة. وإني أقول من صميم القلب لحضراتكم: إني لست بأهل لِهذا الأمر الجليل والحمل الثقيل، فليعذروني إن أخطأت؛ فإن الإنسان مركب الخطأ والنسيان.

مقدمة في بيان فرق المسيحيين

يتحزب النصارى كإخوانهم الضالين الْمضلين إلى فروع مختلفة، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق: ملكانية، نسطورية، ويعقوبية. قال العلامة الشهرستاني ــرحمه الله تعالىــ: ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبار فرقهم ثلاثة: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.(١)

وقال ابن الحزم - رحمه الله تعالى-: وعمدتهم اليوم ثلث فرق، فأعظمها فرقة الملكانية، وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشى الحبشة والنوبة. وقولهم: إن الله تبارك وتعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس، كلها لم تزل. وإن عيسى عليه السلام إله تام كله وإنسان تام، ليس أحدهما غير الآخر، وإن الإنسان منه هو الذي صُلِب وقتل، وإن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وإن مريم ولدت الإله والإنسان، وإنهما معاً شيء واحد: ابن الله. تعالى الله عن كفرهم.

وقالت النسطورية مثل ذلك سواء بسواء إلا أنهم قالوا: إن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان، وأن الله تعالى لم يلد الإنسان، وإنما وَلَدَ الإله. تعالى الله عن كفرهم.

وقالت اليعقوبية: إن المسيح هو الله تعالى بنفسه، وإن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل. وإن العالَم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، وإن الله تعالى عاد محدثا، وإن الْمحدث عاد قديماً، وإنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولا به.(٢)

وقال الخوارزمي ــرحمه الله تعالىــ في تسميتهم بذلك: هم ثلاثة أصناف: الملكانية، وهم منسوبون إلى ملكاء وهم مقدمُّهم. الثاني: النسطورية، وهم منسوبون

---

(١) الملل والنحل ١/٢٤٧ .

(٢) الملل والنحل لابن حزم الظاهري ١/٤٨، بحذف يسير.

إلى نسطورس، وكان أحدث رأياً، فنفَوْه عن مَملكة الروم، فليس بها أحد منهم. والثالث: اليعقوبية، وهم ينسبون إلى مار يعقوب، وهم قليلون.(١)

وبعد مدة مديدة انحصرت النصاري معظمهم في فرقتين: الأولى كاثوليكية (رومن كيتهولك)، والثانية: بروتستانية (بروتسنت). وتفصيل ذلك أن اليعقوبية والنسطورية الذين كانوا بموجودين فيما غبر من الزمان انقرضوا إلا القليل، ولم يبق إلا الملكانية ويسمون الكاثوليكية، وبالجملة أهل المذهب الكاثوليكي كلهم ملكانية، ورئيسهم هو الأُسْقُفُّ العظيم والحِبر الكبير يسمونه البابا. يقولون: إن المسيح اليسوع بنى هذه الفرقة، ويزعمون أن بطرس نائب المسيح رئيس كليسا، وهكذا كل بابا، ومستقره روما عند دولة إيطاليا، وهو عندهم حاكم فوق الحاكمين حتى جعلوا له في سنة ٧٢٦م وفق ١٠٨هـ دولة جمهورية، ولم يزل حتى صارت له سطوة، وصاروا رؤساء في الدين والدنيا، حتى صار لهم تيجان ثلاثة، وكان للملوك تاج واحد دلالة على كمال ملكهم، وبلغ اعتبارهم إلى أنهم إذا كانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم، وكانوا إذا أمرو بالْمحاربة لا يخالفهم أحد، ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حي، وكان البابا مرة ألزم إمبراطور (ملك ملوك) المانيا أن يقف حافياً ثلاثة أيام في فصل الشتاء ليطلب منه الغفران.

فلما بلغت شوكتهم إلى هذا الحد اضطربت ممالك أوربا منهم، ونشأت فتن كبيرة، ومن ههنا نشأ انحطاط أمرهم. ثم إن الملكانية الذين يسمون كاثوليكية استمروا على مذهب الكاثوليكي إلى القرن التاسع، وكثر المنكرون رئاسة البابا صاحب رومة، وصاروا يتولون عن أحكامه واختياراته الزائدة، ألقوا أساس فرقة مستقلة تسمى «بروتستان» وكان بانيه «مارتن لوهر» ١٤٨٣م / ٨٨٨هـ، فمنع البابائية، ومنع عن تجارة الغفرانات التي اتخذوها تجارة، وأبطل كل الرسوم إلا الاصطباغ، والعشاء الرباني، وقال في حق البابا كلمات عنيفة كما نقل الشيخ رحمة

(١) مفاتيح العلوم للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، الباب الثاني، الفصل الثالث.

الله بعض أقواله فيهم، مثلاً: إن البابا ومتعلقيه زُمرة الأشرار الذين تسلطت عليهم الشياطين وملؤوا أجسامهم، والبابا صار بحيث يخرج من بصاقه ومخاطه الشياطين.(١)

وصار الكاثوليكيون يسمون المنكرين بـــ «بروتستان»، وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعة الخارجين عن مذهب أهل السنة، وكان هذا الاصطلاح في القرن التاسع، وهذا هو الفرق الأعظم بين الفريقين، وكثير منهم لايستنكفون من هذه التسمية، لكن الأكثر منهم إذا قيل لهم: «أنت بروتستان»؟ يستنكف من ذلك، بل يقول: أنا كاثوليكي؛ وإن كان غير معترف برئاسة البابا.

نبذة من الاختلافات بين الفريقين

وقد وقعت اختلافات ومنازعات كثيرة بين الفريقين، وهذا مع اتفاق كلمتهم على بعض العقائد. قال العلامة الآلوسي ـ رحمه الله تعالى ـ: ويجمعهم في الاعتقاد دستور إيمانِهم الْملخص من الإنجيل وهو هذا: نومن بإله واحد أب، ضامن الكل، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع الْمسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدّهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شي، الذي مِن أجلنا نحن البشر ومِن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقُبِر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لِمُلكه، وبالروح القدس الرب الْمُحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء وبكنية واحدة جامعة مقدسة رسولية،

(١) إظهار الحق ١/٣٤ .

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجى قيام الموتى والحياة في الدهر العتيد آمين.(١) فاتفقوا على هذه العقيدة.

وأما اختلافاهم فمعظمه في رئاسة البابا، فالكاثوليكية يعترفون برئاسة بابا، وله اختيار بيع الغفرانات، والبروتستان لايعترفون بذلك. والكاثوليكية يعترفون بالتوحيد في التثليث، وبعض البروتستان يعترفون بالتوحيد فقط لما رأوا من صحة الأدلة من الكتاب والسنة عليه، لكن هم قليل أقل. اختلفوا في الصوم فهو فرض عند الكاثوليكية، سنة عند البروتسنان. والكاثوليكية يجوِّزون في حالة الصيام تناول الطعام والشراب، لكنهم يقولون: لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه، وكذا ما تولد من الحيوان كاللبن والسمن إلا الحوت.(٢)

وذكر العلامة الهندي بعض عقائد الفِرقة الكاثوليكية: (١) إن مريم عليها السلام قد حبِلت بها أمها بلا قرب الزوج. (٢) إن مريم والدة الله حقيقة الله. (٣)إن كل خبز من الخبزات وإن كانت بمقدار مليونات في الشرق والغرب يستحيل إلى المسيح الكامل. (٤) إن خبزاً واحداً إذا كسره الكاهن ولو إلى مئة ألف كسرة يصير مسيحا كاملاً. (٥) لا بدّ أن يصنع الصور ويسجد قُدّامَهُنَّ. (٦) لا خلاص بدون الإيمان بالبابا وإن كان غير صالح في نفسه. (٧) إن أسقُفَّ رومية هو البابا دون غيره، وهو رأس الكنيسة ومعصوم من الغلط. (٨) كنيسة رومية أم الكنائس ومعلمتها. (٩) إن للبابا ولِمُتعلقيه خزانة من قدر جزيل من استحقاقات القِدِّيْسِين أن يمنحوا الغفرانات، سيما إذا استَوفَوْا ثَمنا وافيا لأجلها. (١٠) إن البابا له منصب تحليل الحرام وتحريم الحلال. (١١) إن أنفُس الصديقين تتوجه إلى العذاب حتى تمنحها

(١) الجواب الفسيح في رد عبد المسيح ص٧، لِمفتِي الحنفية: أبو البركات نعمان خير الدين الآفندي الآلوسي البغدادي.

(٢) ملخص من الفتوحات الإسلامية ١/٣١١-٣١٥.

البابا الغفران. (١٢) إن مسافة جهنم فراغ مكعب في قلب الأرض، كل من أضلاعه مئتا ميل. (١٣) إن البابا يرسم الصليب على نعليه، وغيرُه على وجهه. (١٤) بعض القِدِّيسين وجهه كوجه الكلب، وجسده كجسد الإنسان، وهو يشفع لهم عند الله. (١٥) إن خشبة الصليب وتصاوير الأب الأزلي والابن والروح القُدُس يسجد لها بالسجود الحقيقي العبادي، وصور القِدِّيسين يسجد لها بالسجود الإكراميّ. (١٦)إن البابا هو القاضي الأعلى في الحكم. (١٧) إن الأساقفة والشمامسة ممنوعون من الزواج، ولذلك يزنون. وقد قال القِدِّيس برنردوس: نزعوا من الكنيسة الزواج الْمُكرّم والمضجع الذي هو بلا دنس، فملؤوها بالزنا في المضاجع مع الذكور والأمهات والأخوات وبكل أنواع الأدناس.(١)

هذه هي الإختلافات العظام بين الكاثوليكية والبروتستان، والغرض أن الكاثوليكية انغمسوا في مبتدعات ومُخترعات ومُزَخْرفات. والبروتستان أخف منهم وأصلح عقيدة في بعض الأمور مع قولهم بالتثليث، والعَشاء الرباني، والاصطباغ، وإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والطعن في الإسلام، وهم كانوا متسلطين على الهند، أخرجهم الله وذلّلهم. وذلك فضل الله علينا عظيم، والكل عندنا سواء في الكفر، والإضرار، والزَّنْدَقَة، وكسر بيضة الإسلام. شعر

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وقد وقع فيما مضى بعض المصطلحات من البابا وغيره فاسمع شرحه، وتلك الاصطلاحات تأتي في الكتاب حيناً فحيناً. كانوا يُسَمُّون صاحبَ الدين والْمُقيم لِمَراسمه البَطْرَك، ويبعث نوابه إلى من بعد عنهم ويسمونه الأُسْقُفّ أي نائب البَطْرَك، ويسمُّون القرّاء بالقِسِّيس، وصاحب الصلاة بالجاثَلِيق، وقَوَمَة المسجد بالشمامسة، والمنقطع الذي حَبَسَ نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب، والقاضي بالْمَطْرَان. و لم يكن بِمِصر لذلك العهد أسقف إلى أن جاء دهدس وكان الأساقفة

(١) إظهار الحق بحذف كثير من ٢/١١٨-١٢٥ .

يسمون البطرك أبا، والقسوس يسمون الأساقفة أبا، فوقع الاشتراك، فاخترع اسم البابا لبطرك الإسكندرية للتميز، ومعناه: أب الآباء، ثم انتقل إلى بطرك رومة؛ لأنه صاحب الكرسي.(١)

أدوار المسيحية وأطوارها ومجامعها، وحال العهد الذي بعث فيه المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وأسباب نشر المسيحية

سنة الله تعالى في عباده أنه يرسل رسلا وأنبياء إذا تفرقت كلمة القوم، وفسدت ضمائرهم، وتوغّلوا في المعاصي، وأحدقت بهم العقائدُ الباطلة، وانتشرت فيهم الْمفاسد والشرور، وانمحت فيهم مخايِلُ الخير والرشد والهدى، ونبثت في قلوبهم وساوس الشيطان ودسائسه، ورسخت في أذهانهم مكايد وحيل تبعدهم عن الشريعة الغراء البيضاء النقية، وتزينت في صدورهم الآثام والأرجاس، فظنوها محاسن وطاعات كسراب بِقِيعة يحسَبه الظمآن ماءاً. وهكذا كانت بنو اسرائيل قبل المسيح عليه السلام، فاليهود حرَّفت شريعة موسى وأفرطتْ وفرَّطت. ومن ذلك تمالكهم في حب المال كما حكاه عبد الوهاب النجار في كتابه الشهير بـ «قصص الأنبياء» في المهمة التي جاء بها المسيح، فكانوا يحرّضون الفقراء على النذر للهَيْكل لياخذوا أموالهم، وكان فيهم قوم يسمَّون الصديقين ينكرون القيامة يقولون: لا تقوم قيامة ولا حساب ولا نشور، وفيهم فريق يسمى فريسيون تجرَّدوا لعبادة الله تعالى وانقطعوا عن العِباد، لكنهم من قبل المسيح انحرفوا عن سَنَن السلف وأقبلوا على الشهوات يراءون الناس. كان هناك الكهنة وخدمة الهيكل، وكانوا قد صاروا إلى حال ردئية يحرفون كلام الله. كل أولئك كان يستدعي إصلاحا.

(١) تاريخ ابن خلدون بحذف يسير ٢/٢٩٧.

وبالجملة دخلت فيهم بدعات ومُختَرَعات، فكان الرياء ناشئا فيهم، وكانت الأضحية لُعْبةً عندهم، يزعمون أنها كفّارة لكل صغيرة وكبيرة، وكانت لِمُقتداهم يد طُولانيّة في شرائعهم على أنهم كانوا مظلومين تعدى عليهم الرومُ، وكانوا تحت حكمهم، وكانوا ينتظرون النبِيَّ. وبيَّن لهم أئمتهم تاريخ أسلافهم بأنهم كانوا حاكمين في الأرض، فأثّر ذلك فيهم وتمنوا أن لو كان فيهم، ففي هذه الأحوال والظروف نزلت عليهم رحمة الله، فأرسل الله فيهم رسولَه اسْمُه المسيح عيسى بن مريم، فبلّغ ما أنزل الله، وأصلح ما أفسدوا، وبيَّن الحلال والحرام، وهاجر في سبيل الله إلى بلاد شتى كالجليل وكفر ناحوم، وبلغ حواريوه، ثم بعد ما رُفِع نزل ثانيا كما هو معتقدهم، وأمرهم بتبليغ رسالته إلى بعض النواحي.

قال ابن خلدون: «إن الذي بعث من الحواريين إلى رومة: بطرس، ومعه بولس من الأتباع و لم يكن حواريا، وإلى أرض السودان والحبشة: متَّى العشار، واندراوس إلى أرض بابل، وإلى المشرق توماس، وإلى أرض أفريقية فيلبس، وإلى أفسوس قرية أصحاب الكهف يوحَنَّا، وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر شمعون القنانائي».[1] وانتشر دينهم.

الأسباب التي تدخلت في نشر دينهم

انتشر دينهم في الساهرة لأسباب سردها العلماء:

منها: الجهل والظلمة التي أحاطت بالأرض، فكان الناس في حاجة إلى صديع الفجر لينمحي الظلام ويطمئن الأنام في راحة وفرحة. والوثنيون يتعجبون من استمساكهم بدينهم وتحملهم في ذلك أشد الأذى، فألقى الحواريون على الناس ديناً، فوجده الناس شفاء لعلتهم ورِوَاءً لِغُلّتِهم، ووقعوا عليه وقوع الفَراش على السراج والمصباح.

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٤ .

ومنها: سهولة العمل بدينهم ووضعهم العقائد والأعمال على طَرَف الثُّمام، فكانوا يقدمون دينهم موافقاً لأمزجتهم، فأثَّر هذا الطريق في طبائع الناس أثر النار في الحديد، فإن الناس إلى المعهود والمألوف أميل. «إن الطيور على أشباهها تقع». فاخترعوا الأب، والابن، وروح القدس ليميلوا به طبائع الفلاسفة وقرائحهم حيث كانوا قائلين بالعقل والعاقل والمعقول، وهذا أساس قصر التثليث الذي يتحَصَّنُ فيه عباد المسيح . وهذا عَرق عقائدهم، وعليه يدور رَحى نجاهم في مزعومهم.

ومنها: صفاء قلوبهم عن الرياء، فإن اليهود كانوا مرائين مفاخرين بخلاف المسيحين، فإن قلوبهم كانت صافية عن رين الرياء وصدأ الحسد وشَيْن الكبر.

ومنها: إيمانهم بالآخرة والجزاء والثواب، واليهود لم يعتقدوا بالآخرة وما فيها من الْمُكافأة والْمجازاة. نعم أصحاب أهل الأديان الأخر كانوا يعتقدون الآخرة، فالزرتشيون يعبرون عن الوجود المطلق أو الله بالنور، والسماء والكواكب النيرة بمركز النور، ويزعمون أن الأرواح تصير كالكواكب وتستنير دائما، بيد أن بعض فرق اليهود كانوا متجانبين عن عقيدة المجازاة فصادفوه نقصا في اليهودية، وقالوا: كيف خوى بطن الدين السماوي عن لذيذ طعام الْمجازاة فنبذوه وراء ظهورهم، ولما أعطاهم دين المسيحية علمَ الآخرة اعتنقوه وتقبلوه قبولاً حسناً، واستراحوا في ظله الممدود.

ومنها: الاتفاق بينهم ووحدة كلمتم، فالوِفاق يثمر الفوز، والوحدة تنتج الفلاح والنجاح حتى كانوا متساهمين في أكلهم وشربهم ومتاعهم وأراضيهم وشؤونِهم كلها، فخضعت لذا قلوب أولي الألباب ووصلوا إلى هسبانية وأفريقيه.

ومنها: إظهار الكرامات والخوارق بين أيدي الناس، وهذا أبلغ طرق التبليغ في من قويت وُصْلَته بالأسباب.[1]

(١) هذه الوجوه مستفادة من «المسيح والمسيحية» بالأردية للشيخ عبد الحليم شرر، ص٥٧-٦٥، عرّبها العبد الضعيف.

ولا يخفى على القارئ المتصدي للتحقيق أن المسيحين ابتلوا في هذا ببليات ونكَايات، وهذه المصائب امتَدَّتْ إلى عهد قسطنطين الأعظم، كما قال المؤرخون أن يعقوب أخا يوحنّا قتِل لما دخل إلى رومة، قتله غاليوسُ قيصر، والملك نيرونُ قيصر أعدم بطرسَ كبيرَ الحواريين وبولسَ، وكانا داعيَيْن في رومة، وقتِل مَرْقَسُ الإنجيليُّ وثارت اليهود في عهده على أسقُف بيت المقدس، وهو يعقوب النجار، وهدموا البِيعة ودفنوا الصليبَ، وهكذا جرت القضية حتى جاء قسطنطينُ الأعظم ٣٠٦ م مؤسِّس المدينة المشهورة.

قصة اختراع الصليب

ولما قتِل المسيح ـ على زعمهم ـ ودفِن ورفِع من القبر كانت التلاميذ كل يوم يزورون ضريحه وموضع صليبه يصلون هناك ويخضعون، فقالت اليهود: هذا المكان يكون له شأن أي شان، فثقل ذا عليهم وأحسوه رُقيً للمسيحية وذريعة لإظهار شوكتهم، فطرحوا عليه حينما رأوه خاليا تراباً وزبلاً حتى صار مزبلة، فلما كانت أيام قسطنطين جاءت أم هَيْلانة، وكانت امرأة صالحة متورعة، نشأت في صلاح وأخذت بدين المسيح، وسألت عن موضع الصليب، فأُخبرت أنهم جعلوه مزبلة ومطرحاً للقاذورات، فاستعظمت ذلك واستخرجت الخشبة التي صلب عليها، فطهَّرتْها وطيّبتْها وغشّتْها بالحرير ورصَّعَتْها بالذهب، وأمرت بكنيسة كبيرة هائلة بمكان الخشبة، وخرَّبت مسجد بني إسرائيل وأمرت بإلقاء العذرات والقاذورات على الصخرة التي كانت عليها القبة التي هي قبلة اليهود، وكان من ميلاد المسيح إلى وجود الصليب ثلاث مئة وثمان وعشرون سنة، وهذا عهد مبارك للمسيحية ترقت فيه، وكانت مذهبا لدولة الروم، وكانت آنئذ دولة كبيرة وملكا عظيما كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالتاريخ.

الاختلافات بينهم والمجامع العشرة لهم

وبعد وصول قمرهم إلى التمام وثمراتهم إلى النضج انتقص أمرهم وظهر الاختلاف واللغط بينهم، ولذا انعقدت فيهم مجالس ومجامع. تفصيله: أن آريوس خالف الكنيسة فمنعه بِطْريقُ الإسكندرية عن دخول الكنيسة، فخرج آريوس إلى الملك مستعيناً منه، ومعه أسقفان، وطلبوا المناظرة والمناقشة فاستحضره الملك وقال لآريوس: اشرح مقالتك. فقال آريوس: أقول «إن الأب كان إذا لم يكن ابن، ثم أوجد الابن فكان كلمةً له، فهو مُحدَث مخلوق. ثم فوَّض الأمر إلى الابن المسمى كلمة، فكان هو خالق السموات والأرض، ثم إن الكلمة تجسَّدت من مريم العذراء ومن روح القدس، فصار ذلك مسيحا واحداً». فقال بِطريق الإسكندرية: أخبِرنا أيهما وجبت علينا عبادته؟ عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟ فقال آريوس: بل عبادة من أخرجنا من الليس إلى الأيس، فقال: فإن كان الابن خالقنا كما وصفت، وكان الابن مخلوقاً، فعبادة الابن الذي خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تصير عبادة الأب الخالق كفراً، وعبادة الابن المخلوق إيماناً، وذلك من أقبح الأقوال، فاستحسن الملك مقالته وأمر أن يلعنوا آريوس وكل من يتفَوَّه بمقالته. ثم طلب البطارقةَ وقال: اتفقوا حتى يكون لنا مجمع، فاجتمع من الأكناف ألفان وثمانية وأربعون أسقفا، فلما اجتمعوا ارتفعت الأصوات، فتعجب الملك وأمرهم أن يتناظروا واتفق ٣١٨ أسقفاً على رأي واحد، فعقدوا مجلساً خاصاً جلس في وسطه، وأخذ سيفه وخاتمه وقضيبه، فدفعها إليهم، وقال: قد سلطتكم على الدولة وباركوا عليه، وقال: ظهرت النصرانية، واتفقوا على الأمانة التي أسلفناها، أوله: نؤمن بالله الواحد الأب الخ. ثم ذهب آريوس يدعو إلى مقالته، فجمع جمعاً عظيماً وقال: إن هؤلاء تعدوا عليّ وظلموني، ووافقه كثير، وقالوا: صدقت فوثبوا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً، حتى كادوا أن يقتلوه لو لم يخلصه بعض المخلصين.

ثم كان لهم مجمع ثانٍ بعد ٥٨ سنة من الْمجمع الأول، وهذا حينما قال بعض الوزراء للملك: إن مقالة آريوس غلبت على الناس، فجمع الملك البطارقة ولعنوا آريوس وأشياعه، وكان من مقالتهم «أن روح القدس مصنوع مخلوق»، فردوا مقالتهم ولعنوهم، ثم خرج نسطورس وكان من مقالته «أن مريم ليست والدة الإله حقيقة، والمسيح ليس إلهاً بذاته، بل بالموهبة والكرامة» فاجتمع مئتا أسقف وأجمعوا على تخطئة نسطورس ونفيه، وأثبتوا بزعمهم أن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح إله حقيقة، لا بالموهبة، وهذا مجمع ثالث.

ولما نفَوْا نسطورسَ قام يوحنّا بطرك إنطاكية في حمايته، فجمع الأساقفة وناظرهم، ولم يزل الملك «تذوس» يسعى الصلح بينهم حتى أصلح بينهم، فكتب أولئك صحيفة مضمونها: «إن مريم القديسية ولدت إلها وهو ربنا يسوع». وبعد موت نسطورس أحيىَ مقالته ابنُ صرما وبثّها في بلاد المشرق، فجمعوا مجمعاً واتفقوا على لعن نسطورس ومن قال بقوله هذا، وهو الْمجمع الرابع.

ثم خرج راهب بالقسطنطنية يقال له أوطيوس قال: «إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة، وإن للمسيح قبل التجسّد طبيعتين، وبعد التجسد طبيعة واحدة». ثم سار إلى قسطنطينة، فأحضر بطريقُ الإسكندرية مجمعاً عظيماً، وتناظروا فلعنوه، فاستعان بالملك فاحضر البطاركة، فأيد بطريق الاسكندرية مقالة أوطيوس، وفسدت الأمانة.

ثم كان لهم مجمع سادس في دولة مرقيون، وذلك أنه اجتمع عنده الأساقفة وأعلموه أن مقالة أوطيوس غلبت على الناس، فجمع الملك الأساقفة واجتمع في ذلك ٦٣٠ أسقفا، فنظروا في مقالته فأفسدوا مقالته ولعنوه، وثَبَّتُوا قول الأساقفة.

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع سابع في أيام انسطاس الملك، وذلك أنه جاء سورس إلى الملك فقال: إن أصحاب الْمجمع السادس وهُم ٦٣٠ نفَراً قد أخطئوا،

والصواب ماقاله أوطيوس، واكتب إلى جميع البلاد أن يلعنوا ٦٣٠ أسقفاً، فأجابه الملك، ولما بلغ إلى بطرك بيت المقدس جمع الرهبان، فلعنوا الملك وسورس. ولَمَّا بلغ الملكَ نفَى البطركَ إلى أيلة، وبعث يوحنّا بطركا على بيت المقدس، فاجتمع الرهبان عنده وقالوا له: إياك أن تقبل من سورس، لكن اقبل عن ٦٣٠ ونحن معك، ففعل، ولما بلغ الملك بعث قائدا وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك ويكلفه بمخالفتهم، فإن لم يفعل أنزله عن الكرسي، فجاء القائد وألقَى يوحنّا في الحبس، ثم لما حضر القائد عند يوحنا أقر بلعنة كل من لعنه الرهبان، ففزع رسول الملك وبلَغ ذلك الملكَ فهمّ بنفي يوحنا، فاجتمع الرهبان وكتبوا أنهم لا يقبلون مقالة سورس، فانفض هذا المجمع بين لاعن وملعون.

ثم كان مجمع ثامن، وذلك أن بعض الأساقفة قالوا: «لا تقوم القيامة»، والبعض يقول: «إن جسد المسيح خيال ليس حقيقة». فبعثهم الملك إلى بطرك قسطنطنية فتناظروا واحتج عليهم، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع، فجمع البطاركة فاجتمع ١٦٤ أسقفاً، ولعنوا القائلين المذكورين.

ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك أنه كان برومة راهب له تلميذان، فجاءا إلى قسطا الوالي فوبَّخاه على قبح مذهبه، فأمر به قُسْطَا فقطعت يداه ورجلاه وقطع لسانه، هكذا صنع بأحد التلميذين، ونفى التلميذ الآخر، فبلغ ملكَ قسطنطنية، فأرسل إليه أن يوجه الأساقفة ليعلموا حقيقة الحال، فجمع ٢٩٨ أسقفا وكان رئيسهم بطرك قسطنطنية وبطرك إنطاكية، فلعنوا من تقدّم من القسيسين والبطاركة واحداً واحداً، ولَخَّصوا الأمانة وزادوا ونقصوا.

ثم كان لهم مجمع عاشر، وذلك لما مات الملك و وُلِّيَ ابنُه بعده، اجتمع أهل الْمجمع السادس وقالوا: كنا على الباطل، فجمع الملك أهل المجامع الخمسة ولعنوا

من لعنهم وخالفهم، فهذه عشرة مجامع لهم اشتملت على لعن المخالف والمناوي.(١) والله أعلم.

كلمة في الكتاب المقدس وعدم صحته

الكتاب المقدس ينطوي على كتابين وعهدين: العهد القديم، والعهد الجديد ويسمى بائيبل، لفظ يوناني معناه: الكتاب. والعهد القديم أو العتيق يحيط بتسعة وثلاثين كتاباً: (١) سِفْر التكوين. (٢) الخروج. (٣) سِفْر اللاوين. (٤) العدد. (٥) التثنية أو الاستثناء، ويسمّى الخمسة بالتوراة، ومعناه التعليم. (٦) سِفْر يوشع بن نون. (٧) القضاة. (٨) راعوت. (٩) صموئيل الأول. (١٠) صموئيل الثاني. (١١) الملوك الأول. (١٢) الملوك الثاني. (١٣) الأيام الأول. (١٤) الأيام الثاني. (١٥) عزرا. (١٦) نحمياء. (١٧) استير. (١٨) أيوب. (١٩) المزامير. (٢٠) الأمثال. (٢١) نشيد الإنشاد. (٢٢) الجابعة. (٢٣) أشعيا. (٢٤) أرميا. (٢٥) المراثي. (٢٦) حزقيال. (٢٧) دانيال. (٢٨) هوشع. (٢٩)يوئيل. (٣٠)عاموص. (٣١)عوبديا. (٣٢) يونان. (٣٣) ميخا. (٣٤) ناحوم. (٣٥) حيقوق. (٣٦) صفنيا. (٣٧)حجّي. (٣٨) زكريّا. (٣٩) ملاخي.

وجعل الشيخ رحمة الله الكيرانوي كتاب «استير» في المختلفات وهو مذكور في النسخة العربية التي هي في أيدينا.

والعهد الجديد يشتمل على سبعة وعشرين كتاباً: (١) إنجيل متّى. (٢) إنجيل مرقس. (٣) إنجيل لوقا. (٤) إنجيل يوحنا. (٥) أعمال الرسل. (٦) رسالة بولس إلى رومية. (٧) رسالته إلى كورنثوس. (٨) الرسالة الثانية إلى كورنثوس. (٩)رسالة إلى

---

(١) هذا التفصيل مستفاد وملخص من إغاثة اللهفان ٢/٢٨٠-٢٨١، ومنحة القريب ص١٥-٢٦، وتاريخ ابن خلدون ٢/٣٠٢-٣٠٦.

غلاطية. (١٠)رسالة إلى أفسس، (١١)رسالة إلى فيلبي، (١٢) رسالة إلى كولوس. (١٣) رسالة إلى تسالونيكي. (١٤) الرسالة الثانية إلى تسالونيكي. (١٥) رسالة إلى نيموثاوس. (١٦) الرسالة الثانية إلى تيموثاوس. (١٧) رسالة إلى تيطس. (١٨) رسالة إلى فليمون. (١٩) رسالة بولس إلى العبرانيين. (٢٠) رسالة يعقوب. (٢١) رسالة إلى بطرس. (٢٢) الرسالة الثانية إلى بطرس. (٢٣) الرسالة الأولى ليوحنا. (٢٤)الرسالة الثانية ليوحنا. (٢٥)الرسالة الثالثة ليوحنا. (٢٦) رسالة يهودا. (٢٧) رؤيا يوحنا.

وقال الشيخ رحمة الله الكيرانوي في «إظهار الحق»: أن المتفق عليه عشرون كتاباً. وجعل رسالة بولس إلى العبرانيين، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالتين الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يعقوب ويهودا، ورؤيا يوحنا من المختلفات.[١] والله أعلم.

إذا وعَيْت هذا فاعلم أنه يشترط لكل كتاب يسسب إلى نبي من الأنبياء أن يكون له سند متصل قوي رواه جَمٌّ غفير عن جم غفير بحيث لا يمكن فيه وهم واهم وشكٌّ شاك، وهذا مفقود في حق الكتاب المقدس، فإنهم يعترفون أنه لا يوجد له سند متصل لتظافر الحوادث والوقائع والفتن على بني اسرائيل، على أن بعض الفرق يردون بعض الكتب ويرفضرنها.

قال في «الفارق»: وأنت ترى أن نيفا وسبعين كتابا من كتب العهد الجديد منسوبة إلى عيسى بن مريم والحواريين وتابعيهم، وقد رفضتْ كنيسة كريك وكاتوليك وبروتشنت: المشاهداتِ، والسِّفرَ الصغير للتكوين، وكتاب المعراج، وكتاب الأسرار، وكتاب تستمنت، وكتاب الإقرار، المنسوب جميع ذلك إلى موسى عليه السلام.[٢]

وهكذا التوراة الموجودة في أيديهم ليست ما أنزل على موسى عليه السلام.

---

(١) إظهار الحق، ص ٩٥-٩٨ .

(٢) الفارق لباجه جي زاده عبد الرحمن، ص٩.

وقد حقق المحقق نورتن في الجزء الثاني من كتاب الإسناد بدلائل أن التوراة المتداولة بين الناس ليس لها سند. من شاء فليراجعه.(١)

وبذلك اعترف صاحب كتاب «خلاصة الأدلة السَّنية على صدق أصول الديانة المسحية» أن نسخة التوراة فقدت وطرحت بين الرِّثاث (سقط المتاع)، ويستحيل أن تبقى نسخة منها.(٢)

وعندنا شواهد على أن التوراة الموجودة ليست هي المنـــزلة على موسى عليه السلام:

منها: أن موسى عليه السلام كتب التوراة وسلَّمها إلى الكهنة كما في سفر التثنية: «وكتب موسى عليه السلام هذه التوراة وسلمها لكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهدَ أيوب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى عليه السلام في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظال فيما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الربِّ إلهك في المكان الذي يختاره، تُقْرَءُ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم».(٣)

و لم يثبت قراءة التوراة بعد ذلك إلا مرتين ليوشع عليه السلام، ففي سفر هوشع «وكلم الرب يشوع قائلا: مُر الكهنة حاملي تابوت الشهادة أن يصعدوا من الأردن».(٤)

وفي موضع آخر: «وكلم بني إسرائيل قائلاً: إذا سأل بنوكم غداً آباءهم قائلين: ما هذه الحجارة؟ تعلمون بنيكم قائلين على اليابسة عبر إسرائيل الأردن».(٥)

---

(١) إزالة الشكوك ٢/٧٨.

(٢) شبهات النصارى بخلاصته.

(٣) استثناء ص٣١، الآية: ١٢.

(٤) يشوع، ص٤، الآية: ١٥.

(٥) يشوع، ص٤ الآية: ٢١-٢٢.

وفي عهد سليمان لما جمع الكهنة وأخرجوا التابوت لم يجدوا فيه إلا الحجران اللّذان كتب فيهما الأحكام العشرة، كما في الملوك الأول «لم يكن في التابوت إلا لَوْحَا الحجر اللّذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الربُّ بني إسرائيل عند خروجهم من مصر».(١)

ثم بعد سليمان افترق بنو إسرائيل فرقتين، وفشا فيهم عبادة الأوثان مئتين وخمسين سنة على وجه التقريب، وارتدوا وصَالَ عليهم العدو مرتين: مرة سلطان مصر، ومرة سلطان بني إسرائيل الذي ارتد.

وبالجملة أربع مئة سنة بعد سليمان كانوا على هذه الحال حتى جاء منسا، وفي عهده انتشر الكفر والارتداد ووضع الأوثان في بيت المقدس. وبعد ذلك جاء يوسيا بن آمون، وتاب توبة نصوحاً، وفتش التوراة فلم يجدها حتى ادّعى حلقيا الكاهن أني وجدت التوارة في بيت المقدس مدفونة وأعطاها بيد سلطان يوسيا الملك.

والعجب أن الملك وسائر الناس لم يجدوا نسخة التوراة وفاز به هذا الرجل، فالمعقول أنه اجتهد وجمع الأحوال في مدة تفتيشهم حتى أعطاه الملكَ. بعد ذلك لما حمل بخت نصر على بني إسرائيل هدم الجليل وبيت المقدس و لم يبق بأيديهم كتاب ولا وصية.(٢)

ومنها: أن المصنف يعبر عن نفسه بالمتكلم أو ما يفيد معناه، وموسى عليه السلام ذكر في التوراة كلها بصيغ الغائب. فهذا ينادي بأعلى نداء بأنه إبداع شخص آخر بعده، وهذا ظاهر؛ فإن التوراة الموجودة سيرة من السير من آدم عليه السلام إلى موسى عليه السلام ومن بعده كتاريخ ابن خلدون وابن جرير. وأما

(١) ملوك اول ص٨، الآية: ٩.

(٢) مقدمة تفسير حقاني ص١٧٩ .

التوراة المنــزلة على موسى عليه السلام فهو كتاب الله فيه أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وأحكام، ومواعظ، ولا تكون فيها هذه النوازل إلا قليلا أقل.

ومنها: أن فيها ذكر وفاة موسى عليه السلام وقبره فكيف يكون منــزلا عليه. وإليك عبارة الأصحاح الرابع وثلاثين «أنه لم يخل في بني إسرائيل نبي مثل موسى عليه السلام لم يعرف قبره إلى الآن». وفي سفر التثنية «هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن في البرية في العربة»[١].

وأجاب البعض عن هذا الإشكال ـ وهو الداء العضال ـ أن هذا الفصل الأخير من يشوع. ولا يصح من وجوه:

الأول: أن ذكر يشوع فيه بصيغة الغائب.

والثاني: أن هذا تدليس بأن جعل ما ليس من التوراة منها، ولا يليق هذا بنبي ذي شأن عظيم.

والثالث: قيل فيه: «ولم يعرف قبره إلى اليوم». فيترشح منه أنه كتب بعد ذلك بمدة طويلة انطمست فيها آثار القبر وانمحت. وماذا ليشوع يقول «لم يعرف قبره إلى اليوم» وهو صاحبه وملازمه في السفر والحضر. فعلم أنها كتبت بعد زمن طويل.

ومنها: أن التوراة تشتمل على حوادث وواقعات تشمئز العقول منها، وتتنفر الطباع، ولا يخطر ببال ذي بال أن يكون هذا كلام الله، بل لا يتصور أن يصدر من رجل من عامة الناس فضلاً عن الأنبياء والخواص، ونقدم إليك نماذج: منها: قصّ التوراة قصَّةَ آدم عليه السلام ولم تحك توبته كما هو الظاهر لمن نظر في التكوين،

---

(١) استشناء ص١، الآية: ١.

قال في طريق الأولياء (ص٣٣): «يا أسفى أنه لم تثبت توبته و لم يستغفر الله لذنبه مرة». قال بادري وليم اسمت: بعد ما اظهر معصية آدم عليه السلام بأكل الشجرة فيا أسفا ألف مرة لا يوجد لتوبته علاقة وما دعا لعفوه مرة.(١)

والقرآن يصرح ويفصح أولا أنه فعل ما فعل ناسياً، لا عازما قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.(٢) ولو عزم اجتهاداً فقد تاب وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.(٣)

هَذَيانه في نوح عليه السلام

وقالت التوراة في حق نوح عليه السلام ما لا ينبغي أن يقال، وطعنت فيه بشرب الخمر، والسكر، وكشف العورة، ورؤية الولد ذلك المنظر الشنيع، وإخبار الإخوة بذلك، ولعن نوح ابنه؛ ففي سفر التكوين «شرب (نوح) من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما، ووجههما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمر وعلم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته».(٤)

فانظر أيها القاري الذكي أن فيه انتساب قبائح مختلفة إلى نوح عليه السلام الذي هو من أولي العزم من الرسل: شرب الخمر، ولا يليق بنبي فساد العقل،

(١) إزالة الشكوك لرحمة الله الهندي، ٢/٣٤٩ .

(٢) طه، الآية: ١١٥ .

(٣) الأعراف، الآية: ٢٣ .

(٤) تكوين ص٩، الآية: ٢١-٢٦.

وكشف العورة، وهو عيب في عامة الناس، فما ظنك بالخواص والأنبياء الذين هم معصومون من هذه القبائح والمعائب؟ والدعاء على كنعان مع أ نه غير مذنب، ولو كان إلقاء الرداء ذنبا فذلك صدر من حام لا من ابنه. ع

بدين عقل ودانش بايد گريست

طعنه في إبراهيم عليه السلام

والتوراة عزت إلى إبراهيم عليه السلام ما لا تستطيع الآذان أن تسمعه، فقال وحدث: «لما قرب أن يدخل أنه قال لسارة: إني قد علمتُ أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويسبقونك، قُولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيى نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخِذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعونَ وبيته ضربات عظيمة بسبب سارة امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك»(١).

ذكر في هذه القصة أمور لا يمكن أن تكون في من له شأن عظيم من الانبيآء:

الأول: أنكر الزوجية قبل أن يدرك الخوف، و لم ينتظر ما يفعل الله تعالى.

والثاني: إنكار الزوجية لم يكن لتعفيفها، بل لحفظ النفس وطلب الخير، والظاهر أنه المال كما قابه بعد ذلك .

---

(١) تكوين ص١٢، الآية: ١١-١٩.

الثالث: أن إبراهيم أخذ بسبب امرأته مالاً خطيراً، والظاهر أنه كان مهراً لها من حمير وجمال. سبحان الله تكاد السموات يتفطرن وتنشق الأرض وتخر الجبال من تصور هذا الأمر الفظيع.

والرابع: أن الله ضرب فرعون وأهله، ولا يليق هذا بالله تعالى، إذ الظلم كان من فرعون ويعذب أهله وامرأته، أيّ قصور صدر منهم، وأي ذنب وقعوا فيه؟ بل الذنب على إبراهيم - معاذ الله ثم معاذ الله- على قولهم، إذ لم يطلعهم أنها امرأته، ولو تَبَيَّنَ لم يقع هذا.

والقصة مذكورة في الأحاديث النبوية ليست فيها هذه الأباطيل، وإليك نص حديث البخاري مع الشرح والإيضاح: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات صورة، وإلا فليس في الحقيقة كذبا، فالمراد من «إني سقيم» أي سقيم القلب، أو سأسقم، أو سقيم الحجة على الخروج معكم. وقوله: «بل فعله كبيرهم...إن كانوا ينطقون» يعني فعلهم مشروط بالنطق، وإذ انتفى الشرط انتفى المشروط. وفي «هذه أختي» ما ذكر في الحديث أن المراد الأخت في الإسلام. ثنتين منهن في ذات الله تعالى، والثالث أيضاً في ذات الله، لكن فيه جر النفع إليه أيضاً. وقد جاء في روايةٍ: كلهن في الله تعالى؛ قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقال: بينا هو ذات يوم وسارةُ إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه ؟ قال: أختي. إنما قال ذلك؛ لأنه كان من عادته أن لا يتعرض إلا لذات الزوج، أو لأنه كان مجوسيا وعقيدتهم أن الأخ أحق بأخته، أو أراد إن قلت: زوجتي، أكرهني على الطلاق. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنكِ أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه وذهب يتناولها بيده فأُخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا

أضرك. فدعت الله فأُطْلِقَ، ثم تناولها ثانية، فأُخِذَ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر فأتته، وهو قائم يصلي، فأومأ بيده مهيا (ما الخبر)، قالت: رد الله كيد الكافر ـ أو الفاجر ـ في نحره، وأخدم هاجر. قال أبوهريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.[1] ليست فيها المعائب والمطاعن التي عزتها التوراة إليه عليه السلام، ففيه أن الكذب الصوري إنما تصدى له بعد ما وقف على خديعة الملك، ولا عيب فيه، فإن الكذب ولوكان حقيقةً جائزٌ لحفظ النفس والعرض. وليس فيه قبول المال عند ما كانت سارة عند الملك، بل لما تمكنت عظمتها في قلبه أمر بإخدام هاجر. وفيه تطهير سارة وأخذ الظالم، وهو أليق بشأن الأنبياء وأوفق بعقل العقلاء. وليس فيه شائنة ضرب الله أهل فرعون الملكِ. فسبحان الذي جعل الإسلام نوراً، الاهتداء به يليق، ومَطْهَرا عن دنس المعائب، الاقتداء به حقيق.

حديث خرافة في التوراة يتعلق بلوط عليه السلام

ثم ارفع بصرك إلى قصة لوط عليه السلام، وهو نبي ورسول اتَّهمته بقبائح وشنائع يجب أن يتنـــزه منها ساحة الأنبياء عليهم السلام, فقد نطقت التوراة: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المفازة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض بعل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هَلُمَّ نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك اللّيلة، ودخلت البكر واضطجعت

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ١/٤٧٤ .

مع أبيها، و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرا الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت، و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيها، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب. وهو أب الموآبين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ودعت اسمه بن عَمِّي، وهو أبو بنِي عَمُّون إلى اليوم.(١)

هذه الخرافة يأبى الإنسان أن يمثلها على لوح الذهن، ويكتبها في صحيفة الخاطر؛ فإن فيها إلحاق العار والشَّين بنبي ورسول وبناته العفيفات؛ فإن بنات النبي لا يمكن أن يطعن بمثل هذا الطعن الذي لا يتصور في بغايا الأسواق. فسقي الخمر والمكر بالأب والمضاجعة والمُجامعة يستحيل في حق هاتين الشريفتين. وفيه إلحاق العار بلوط عليه السلام، إذ لو فرضنا أنه شرب الخمر، فقد سكر أو لم يسكر، فإن كان الأوّل، كيف يمكن هذا الفعل القبيح فيه؛ فإن العقل إذا كان مخمورا والقلب مستورا والأعضاء ساكنة والجوارح باردة لا يمكن هذا الفعل القبيح. فعلم أنه لم يسكر كاملاً ونسبة هذا مع بقاء الحواس وعدم السكر وظيفة أهل الكتاب. قاتلهم الله وعاقبهم بهذه الجسارة والوقاحة.

أقول: ولوط عليه السلام على الفرض لما فعل هذا الفعل في الليلة الأولى، وعلم بذلك بعده، فلم لم يعاتب على هذه الجريمة مع أنه لم يُحْكَ أنه ذمها وعاتب عليها.

(١) تكوين ص١٩، الآية: ٣٠-٣٨ .

يعقوب عليه السلام في مرآة التوراة

وأفصحت التوراة عن يعقوب عليه السلام الخيانة بالأب، وأخذ النبوة كرها، والخيانة بالأخ، والخداع والمكر بالله تعالى، وهو ما ذكر في الأصحاح السابع والعشرين، وحاصله: أن إسحاق عليه السلام كان له ابنان يعقوب وعيسو، ولما شاخ إسحق أراد أن يمنح النبوة لعيسو ابنه فبعثه للعيد وقال: اصنع لي طعاما أباركك بعد أكله. وكانت أم يعقوب تسمع فأخبرت ابنها وقالت: اذهب إلى الغنم وخذ لي جديين جيدين فاصنعهما أطعِمةً لأبيك كما يحب، فقال يعقوب: هو ذا عيسو رجل أشعر وأنا أملس، فلو عرفني أكون كمتهاون، فقالت: اسمع قولي واذهب، فذهب وأخذ، فأحضر لأمه وصنعت كما يحب، وأخذت ثياب عيسو وألبست يديه (يعقوب) شَعر المعز، فدخل إلى أبيه وقدم إليه الطعام، فقال: أنا عيسو، فقال إسحق: تقدم لأجسّك، فتقدم فجسه فكانت يداه مشعرتين كعيسو، فأكل وأحضرا خمرا فشرب فقبله وبارك، ولما حضر عيسو وسأله إسحاق وأجاب أنه عيسو ارتعد وعلم بمكره لكن الأمر قد تم .(١)

هذا ما لخصته من سفر التكوين. يشتمل هذا الأصحاح على عزو الكذب إلى يعقوب عليه السلام، والخيانة بالأب والأخ، وأخذ عهدة النبوة بالمكر والخداع. ولا نعلم حال هذا الإله الذي لا يعلم من هو مستحق للنبوة، فيعطي لغير المستحق ويدفع المستحق. هذه قصص التوراة ترتعد منها الفرائص.

وقد ذكر في التوراة أن يعقوب صارع الله، ولما تعب الله قال ليعقوب: أطلقني، قال: لا أطلقك حتى تباركني ولم يَفلِت (الله) منه. وإليك نص التوراة: «فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان (وهو الله) في شكل الإنسان ـ كما هو المصرح بعد ذلك ـ حتى طلوع الفجر، ولما رآه أنه لا يقدر عليه ضرب (أي الله)

---

(١) تكوين، ص٢٧ .

حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: اطلقني؛ لأنه قد طلع الفجر».[١]

انظر إلى هذه القصة المختلقة من أولها إلى آخرها، فيها المصارعة مع الله، وكون الله مُجَسَّما، وعجز الله عن المصارعة حتى ضرب فخذه، وأخذ البركة كرها، وغير ذلك من الفضائح والشنائع.

موسى وهارون عليهما السلام في مِرآة التوراة

لقد صرحت التوراة بخيانة موسى عليه السلام، فقال الله لموسى: «مت في الجبل كما مات هارون وضم إلى قومك كما ضم إلى قومه؛ لأنكما خُنتما في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قارش في برية صين إذ لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل».[٢]

ونطقت بالاستقالة من منصب الرسالة كما في الخروج: «وقال: لست صاحب كلام، فقال: استمع أيها السيد! أرسِلْ بيد من تُرسِل، فحمي غضب الرب على موسى وقال: أليس هارون اللاوي أخاك؟».[٣]

وقد نطق القرآن الحكيم أن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى دعا إلى الله أن يرسل معه هارون لعقدة في لسانه حيث قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.[٤] ليس فيه الاستقالة من الرسالة لذنب تكلم به.

---

(١) تكوين ٣٢، الآية: ٢٤-٢٨.

(٢) تثنيه، ص٢٣، الآية: ٥١.

(٣) خروج، ص٤، الآية: ١٣-١٤.

(٤) طه، الآية: ٢٥ -٢٨.

وقد اتهمت التوراة الموجودة في أيديهم هارون بالردة واتخاذ العجل وثناً ومعبوداً. قال في الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النـــزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم وضع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ما ذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنـــزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل ووضعه عِجلا مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر!».(١)

هذا نص التوراة في نبي من أنبياء بني إسرائيل يتهمه بالارتداد، واتخاذ الصنم، ومخالفة أمر الله. -معاذ الله- كيف يرتد نبي ويتخذ العجل، وهو إنما يجيء لقَلع عِرق الشرك، ونشر كلمة التوحيد!

وما أحسن ما قال القرآن في هذا الموضوع: لم يصنع هذا هارون، بل انتهز رجل يقال له السامري، وقد ارتد واتخذ الحلي ووضع العجل واتخذه إلها، ومنعه هارون عليه السلام. قال عزوجل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.(٢) وقال بعد ذلك: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾.(٣) وبعد ذلك بآية: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.(٤)

---

(١) خروج، ص٣٢، الآية: ١-٥.
(٢) طه، الآية: ٨٥ .
(٣) طه، الآية: ٨٧-٨٨.
(٤) طه، الآية: ٩٠.

داود عليه السلام في مرآة التوراة

لقد نسبت التوراة إلى داود عليه السلام ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويؤمنون بالله العظيم، وما يستحيل تصوره، وهي نسبة الزنا، وقتل المجاهد في سبيل الله، واستقاء الخمر منه، والاستنفار من المعترك إلى البيت والمسكن، وغير ذلك من الفضائح والفظائع، كما في حموئيل الثاني: «وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت الملك، فرأى من أعلى السطح امرأة تستَحِمُّ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيْعَام امرأة أورِيا الحِثّي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها، وهي مطهرة عن طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبِلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يوآب وكان ضابط العسكر يقول: أرسل إليّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. يعني أمر داود أوريا أن يذهب إلى البيت ويضطجع مع امرأته ليخفى أمر الزنا، فأبى أوريا وقال: تنور الحرب تسجر وأنا استلذ بالنساء، ولما علم داود أنه لا يذهب احتال لقتله وأمر يوآب (أمير العسكر) أن يجعله في موضع يتيقن فيه الموت، ففعل وقتل».(١)

هذه خلاصة هذا الأصحاح ـ معاذ الله، نعوذ بالله من هذه الهفوات الشنيعة ـ. انظر إلى كتاب يؤمن به النصارى واليهود ويعتقدون أنه منـــزل من الله كيف يحيط على قذف نبي من الأنبياء ويلصق العار والشائنة به. هذه التصورات لايمكن أن تتحصل في الذهن. وعندي أنه ليس تصور محال (بالإضافة) بل تصورٌ محالٌ وفرضٌ مستحيلٌ لمن كان في قلبه شمة من الإيمان، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

(١) حموئيل الثاني ص١١، الآية ٢-٨ .

فنسبة النظر إلى امرأة الغير مع وجود حرائم كثيرة، ثم السفاح بها، ثم الاحتيال برجل مؤمن، ثم قتله في ميدان الْمحاربة، قبائح وفضائح ومثالب ومعائب لايمكن أن يلحق برجل مسلم فضلاً عن نبي ورسول!

وقد ذكر في التوراة بعد ذلك «أن الله سلط على نساء داود الشابوم ابن داود فدخل وزنى بنساء أبيه». ـ معاذ الله ـ ما هذه الجرأة! هل تُجَوِّزه في نساء النبي؟ هذا وما إثم الحريمات حتى يتسلط عليهن ابن داود؟ هل يقال لهذه الخرافات والأباطيل أنها منـــزلة من الحكيم الجليل؟ كلاّ ثم كلاّ.

سليمان عليه السلام في مرآة التوراة

قد بينت التوراة في سليمان عليه السلام ما تمجّه الآذان والأسماع، وتتنفر منه القلوب والطباع، وهو كونه مشغوفا بحب النساء ومغازلتهن واستغراقه في عبادة الأوثان، فاستمع ما تقول التوراة فيه: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتكم، فالتصق سليمان بهولاء بالْمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبَه. وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إله الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمانُ الشر في عيني الربّ ولم يتبع الربَّ تماماً كدأب أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لِكموش رجس الموآبين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويَذْبَحْن لآلِهتهن.[1]

(١) الملوك الأول ص١١، الآية ١-٩.

عُيِّبَ فيه سليمانُ عليه السلام بعيوب يجب التنــزه عنها: الاستغراق في محبة النساء، والإعراض عن حكم الله إذ منعه الله عن نساء الموآبين والعمونيين وغيرها، وفَعَل ذلك، وجعل حريْماته عابدات أوثان وتابعات أرجاس، وتركهن الإله الحق، وكانت نساؤه يوقدن للآلِهة الباطلة ويذبحن للآلِهة.

هذه نبذة من خرافات العهد القديم في الأنبياء عليهم السلام، وما صدفنا عنه أكثرُ مِمّا تصدينا إليه إلا أن القليل أنموذج الكثير، والغُرْفة تنبيء عن البحر الكبير، ولا نشغل أفكارنا بذكر الباطل، فإن الأباطيل الداحضة ينبو عنها العاقل.

ذكر الأناجيل المشهورة

ثم استمع لذكر أناجيلهم. الأناجيل المشهورة المتداولة بأيديهم أربعة: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا. نسخها أربعة أشخاص وسميت بأسمائهم. ثم اعلم أن الأناجيل الموجودة المشهورة ليست الإنجيل الْمنــزل على المسيح عليه السلام؛ فإنه كان واحداً، ويشير إليه ما قال المسيح في بدء رسالته وأوائل نبوته: «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».(١)

فدعوة الإيمان بالإنجيل في بدء الرسالة تصريح بوجود الإنجيل المنــزل دفعة واحدة على المسيح عليه السلام. وأما هذه الأناجيل فمكتوبة بعد المسيح عليه السلام ليس فيها إلا هَدْيُ المسيح عليه السلام وحواريه بل فيها أحكام لا نعلم أنها من الإنجيل أم لا ؟ والله تعالى أعلم.

فإن قيل: يجوز أن يكون الإنجيل واحداً لا أربعة، واختلافها باختلاف بعض التعبيرات مع وحدة الْمعنى كما في القرآن الكريم، فإنه كتاب واحد مع أن فيه سبعة أحرف ولغات، فَقِس عليه حال الإنجيل.

---

(١) مُرقُس، ص١، الآية: ١٥.

قلنا: ليس هذا مثله؛ فإن اللغات الواردة في القرآن مرجعها واحد ليس فيها تناقض بل بعضها شرح وبيان للبعض كما يعرفه من تدبر فيه وتفكر، مثلاً جاء في قوله تعالى في السارق ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ﴾.[1] وجاء في قراة عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه «فَاقْطَعُوا أيْمَانَهُمَا». فهذا تفسير لذلك وتبيين، ليس فيه تخالف وتهافت. بخلاف الأناجيل، فإن فيها تناقضا وتهافتا ظاهراً . وتفكر في أمثلة معدودة منها يتضح لك التدافع:

(١) قال متى في نسب المسيح عليه السلام: المسيح بن يوسف بن يعقوب. ولفظه: «ومتان ولد يعقوب ويعقوب ولد يوسف رجل مريم ».[2] وقال لوقا: «وهو على ما يظن بن يوسف بن هالي ».[3] فجعل يوسف بن هالي، ومتى جعله من ولد يعقوب. ويفهم من البعض أنه من ولد سليمان بن داود، ومن لوقا أنه من ولد ناثان بن داود.

(٢) ويستنتج من متى أن يوحنا المعمدان هو إيليا كما قال: «أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيليا».[4] ويدل يوحنا أنه ليس إيليا: «فسألوه (يوحنا) إذاً ماذا إيليا أنت؟ فقال: لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا».[5]

(٣) ويصرح مرقس أن نسوة ثلاثا أتين إلى القبر، قال: «وباكراً جداً في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس، هن: مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب، وسالوته».[6] ويقول يوحنا : إن امرأة واحدة أتت.

---

(١) المائدة، الآية: ٣٨.

(٢) متى، ص٣ .

(٣) لوقا ص٣، الآية: ٣٣.

(٤) متى ص١٩، الآية: ١٣.

(٥) يوحنا ص١، الآية: ٢١

(٦) مُرقُس ص١٦، الآية: ٢.

قال: «وأول الأسبوع جاءت مريم الْمجدلية إلى القبر باكراً والظّلام باق، فنظرت الحجر مرفوعا من القبر».(١)

هذه نماذج الاختلافات، وليس هذا إلا كقطرة من بحر؛ فإن العهدين مملوءان من الاختلافات والأغلوطات والتضادات، ومع هذه التناقضات الفاحشة التي لا يمكن تطبيقها وتوفيقها، كيف يعد هذا إنجيلاً واحداً، بل هي أناجيل يعني سير مختلفة، كتبها المؤرخون وفق علمهم، فتناقضوا، وتهافتوا.

كلمة موجزة في مصنفيهم

أولهم: متى: هو من الحواريين الاثني عشر. كان مأموراً بأخذ العشر في كفر ناحوم، يزعمون إنجيله من أقدم الأناجيل. ومذهب القدماء منهم أنه كتب إنجيله بالعبرانية، وقد استشهد عليه العلامة باجه جي زاده بشواهد كثيرة، وإليك بعضها: ففي المجلد ١٩ من انسائيكلو بيديا بريتنكاه «كتب كل كتاب من العهد الجديد في اللسان اليوناني إلا إنجيل متى، والرسالة العبرانية، فإن تاليفهما باللسان العبراني أمرٌ يقينيٌ بالدلائل». وقال لاردنر في صفحة ١١٩ من الْمجلد الثاني من الكليات: «وكتب بي بيسر أن متى كتب إنجيله بالعبرانية». وفي صحيفة ١٧٠ من المجلد المسطور: «كتب أرنيوس أن متى كتب إنجيله لليهود بلسانهم في الأيام التي كان بولس وبطرس يعظان في الروم». وفي صحيفة ٥٧٣ من الْمجلد المذكور قال لأرجن في ذلك ثلاث فقرات: «الأولى: نقلها يوسي بيس أن متى أعطى الإنجيل للمؤمنين من اليهود باللسان العبراني. والثانية: أن متىَّ كتب أولاً وأعطى الإنجيل للعبرانيين. والثالثة: أن متىَّ كتب الإنجيل للعبرانيين الذين كانوا ينتظرون شخصاً موعوداً من نسل إبراهيم وداود».(٢)

(١) يوحنا، ص٢.

(٢) إظهار الحق ١/٤٢٣-٤٢٤.

فقد استنار لك من هذا أن أصل إنجيل متى كانت بالعبرانية ثم نقل إلى اليونانية، ولا ندري من تَرْجَمَه ونقله من العبرانية؟ وفي أي زمان ترجمه؟ وما حال ناقليه هل يعتمد عليهم أم لا؟ يهوديون أم مسيحيون؟ وقد اعترف به المسيحيون؛ فإنهم يقولون: إنه كتب بالعبرانية، وكانت في مكتبة قيصرية، لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت، قال جيروم وهو من علماء النصارى المتقدمين في ترجمة إنجيل متىَّ: لا يوجد إسناد هذه الترجمة، وحتى إلى الآن لم يعلم باليقين اسم المترجِم.(١)

الثاني: إنجيل مُرقُس: بضم الميم والقاف، ليس بحواري المسيح عليه السلام، بل هو تلميذ بطرس أقام كليّة الإسكندرية، ولهذا يقولون لبابا خليفة الكلية الاسكندرية، واستشهد ٦٨م، وإنجيله أيضاً تاريخ ووقائع من وقائع المسيح نقله من شيخه البطرس، لا يمكن أن يقال له كتاب إلهامي، وقد اعترف به المسيحيون. قال ريس في الْمجلد التاسع عشر من كتابه المشهور إنسائيكلو بيديا الذي كتبه بمعرفة كثير من الْمحققين نقلاً عن مستركول في الفصل الثاني من رسالته في بيان الإلهام ما ملخصه: أن الكتب التي كتبها تلاميذ الحواريين مثل إنجيل مرقس ولوقا وكتاب الأعمال ليست بإلهامية.(٢)

ولما ثبت أنه ليس من الحواريين وأنه كان منكرا ألوهية المسيح، فكيف يعد إنجيله من الأناجيل النازلة على المسيح عليه السلام، وكيف يقال أنه كتاب إلهامي؟

والثالث: إنجيل لوقا: ولوقا هذا من تلاميذ بولس الرسول مُحَرِّف الدين العيسوي ومُخَرِّبه، المخترع لعقيدة الفداء والتثليث، وإذا لم يلق بولس المسيحَ عليه السلام فما ظنُّك بتلميذه لوقا، وكان لوقا سافر مع بولس، قال بولس في رساته إلى أهل كولوليسي: «يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب وديماس».

الرابع: إنجيل يوحنا: ادَّعُوا أن مصنفه يوحنا من زبدة من الحواريين، وحكم

(١) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٢١.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، ص ٢٦٧.

عليه في الرومية أن يلقى في الزيت الْمُغْلَى، فلم يمت، ثم نفي إلى جزيرة بالحموس، وبعد وفاة الملك راح إلى أفسس، وكان بعض الجماعات كثيرينطوس مابيسوس يعطون المسيحية ويكرّزون[1] بأن المسيح ليس إلا إنساناً ولم يكن قبل أمه مريم، فاجتمعت أساقفة آسيا وخدماء الوطن في ٩٦م عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادي بالإنجيل لِما لم يكتبه الإنجيليون، وأن يكتب لألوهية المسيح فأجابهم وكتب هذا الإنجيل.[2]

لاح من هذا البيان أشياء:

الأول: أن مسيحي القرن الأول يعتقدون أن المسيح إنسان كامل كأناس آخرين، وما اعتقدوه من اللاهوت والناسوت في المسيح عليه السلام من اختراعات أذهانهم، لا تجد لها أثرا في عهد الحواريين .

والثاني: أن يوحنا الحواري لم يكن قائلا بخرافاتهم، لكنهم أكرهوه على تصنيف وابتداع إنجيل مشتمل على هيئة الْخُزَعْبلات .

الثالث: أن كتابهم ليس بإلهامي نزل على المسيح عليه السلام بل كتب بأمر الفرقة المازقة الخارجة من دين الله. وذهبت طائفة عظيمة إلى أن يوحنا مصنف إنجيل يوحنا ليس من الحواريين. قال في الفارق: إن كثيرا من علمائهم أنكروا كون هذا الإنجيل تاليف يوحنا التلميذ؛ فمن ذلك ما كتبه استارلن ونقله عنه كاتلك هولد في صحيفة ٢٠٥ من الْمجلد السابع المطبوع ١٨٤٤م، ونصه: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة المدرسة الاسكندرية». وقال المحقق برطشبند: «إن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنفها أحد في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنّا ليعتبره الناس».[3]

---

(١) قوله: يكرزون، أي يدعون وينادون.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق.

(٣) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٣٢.

تحريف الكتاب المقدس

لقد بين القرآن الكريم تحريف الكتاب المقدس التوراة والإنجيل، وفيه قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.(١)

وقد استشهد المسيحيون بسلامة الكتاب المقدس ـعندهم، الْمحرف عندناـ بآيات من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنزلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾.(٢) وقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ﴾.(٣) وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.(٤)

فدلت الآيات المذكورة على أن التوراة والإنجيل ـ والمتبادر ما يتعارف بين الناس والموجود في العهد المسعود عهد النبي صلى الله عليه وسلم ـ مأمور بهما بالإيمان كالقرآن.

ونحن نجيب ـ وهو المصيب ـ أن المراد بالتوراة والإنجيل المنـــزَّلَين على موسى وعيسى عليهما السلام، لا الموجودَين الْمحرفين في أيديهم، ونحن نؤمن بالتوراة والإنجيل الأصليَّن وإن كانا عنقاء بل أشد افتقاداً منه. أما الموجودان الآن فقد ثبت تحريفهما، وصدّقه المسيحيون، فقد سلَّموا التحريف في هذا القول «إن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم: الأب، والكلمة، والروح القدس؛ وهؤلاء

---

(١) هود، الآية: ١١٠.

(٢) آل عمران، الآية: ٣-٤.

(٣) المائدة، الآية: ٦٨.

(٤) النساء، الآية: ١٣٦.

الثلاثة واحدة. والشهود الذين يشهدون في الأرض ثلاثة، وهم: الروح، والماء، والدم؛ وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد». ففي هاتين الآيتين كان أصل العبارة على ما زعم محققوهم هذا القدر: «الشهود الذين يشهدون ثلاثة، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثلاثة تتحد في واحد»، فزاد معتقدو التثليث هذه العبارة «في السماء ثلاثة، وهم: الأب، والكلمة، والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة واحدة، والشهود الذين يشهدون في الأرض» فيما بين أصل العبارة، وهذه العبارة إلحاقية محرفة عند جمهور بروتشنت، ومحققيهم، وكريسباخُ وشولز متفقان على كونهما محرفة. وقال هورن مع تعصبه: إنها إلحاقية واجبة الترك.(١)

واليهود تقرّ أن سبعين كاهنا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم حيث زال الملك عنهم، ولم يتولهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومن رضي بتبديل حرف واحد من كتاب الله فلا يؤمَنُ عليه تحريف غيره.

واليهود أيضاً تعترف أن الساحرة حرفوا مواضع من التوراة، وبدلوها تبديلا ظاهرا، وزادوا ونقصوا. والسامرة يدعي ذلك عليهم.(٢) وأقر القسيس فندر بأن التحريف وقع في سبعة أو ثمانية مواضع.(٣)

ويا للعجب كيف يقولون أن القرآن يصدق التوراة والإنجيل الموجودين، وقد وقع فيهما استهانة الأنبياء وسبُّهم والبهتان عليهم، والتثليث، والكفارة، وابنية المسيح، وغير ذلك. والقرآن ينهى عن ذا أشد نهي، بل هذا من أهم ما يبينه القرآن.

وقد بين القرآن تحريفه في مواضع شتى فقال عزوجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾.(٤) وقال تعالى:

---

(١) إظهار الحق ٣٩٤/١-٣٩٥.

(٢) هداية الحياري على هامش ذيل الفارق، ص٢٧.

(٣) إظهار الحق ٣٩٦/١.

(٤) البقرة، الآية: ٧٩.

﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.(٣)

نموذجات من التحريف والتناقض في كتابهم المقدس

لاحاجة بعد ما أقروا بالتحريف إلى مزيد بيان، فإن المرأ أدرى بما في بيته، لكن نفصّل بعض التحريفات والتدافعات في كتابهم. وقد أطنب العلماء ـ شكر الله مساعيهم ـ في هذا الموضوع، لا سيما الشيخ الهندي الكيرانوي رحمة الله عليه. فالتحريف: وهو التغيير الواقع في كلام الله بالزيادة والنقصان، أو التبديل الواقع فيها. قال الشيخ الهندي ما فَذْلَكَتُه: أن النسخ المعتبرة عندهم للعهد العتيق ثلاث نسخ: النسخة العبرانية، واليونانية، والسامرية، وبينها اختلافات. مثلاً: الزمان من خلق آدم إلى طوفان نوح على وفق العبرانية ١٦٥٦ سنة، وعلى وفق اليونانية ٢٢٦٢ سنة، وعلى وفق السامرية ١٣٠٧ سنة. وهذا اختلاف بالتبديل.(٤)

وهكذا التحريف بالزيادة، فإن الكتب الثمانية، وهي: كتاب استير، وباروخ، وطوبيا، ويهوديت، ووزدم، وايكليز ياسيتكس، والكتاب الأول لمقابيين، والكتاب الثاني لمقابيين كانت غير مقبولة عندهم إلى سنة ٣٢٥ مسيحية، ثم انعقدت الْمجالس مرة بعد أخرى حتى سلّموا هذه الكتب، وهذه زيادة. وأثبت علماء بروتستنت أن الترجمة اللاطينة محرفة. قال هورن في المجلد الرابع من تفسيره: وقعت

(١) البقرة، الآية: ٧٥.
(٢) المائدة، الآية: ١٥.
(٣) هود، الآية: ١١٠.
(٤) إظهار الحق ٣٣٨/١-٣٣٩ .

التحريفات والإلحاقات الكثيرة في هذه الترجمة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر.(١)

والتحريف بالحذف أيضاً كثير. مثلاً في النسخة العبرانية عبارة سفر التكوين هكذا: «ولما سكن إسرائيل تلك الأرض مضى روبيل وضاجع بلها سرية أبيه، فسمع إسرائيل». قال جامعو تفسير هنري واسكات: اليهود يسلمون أن شيئاً سقط من هذه الآية والترجمة اليونانية، تتمها هكذا: «وكان قبيحا في نظره».(٢)

وقد فصّل هذه المباحثَ الشيخُ الكيرانوي أحسن تفصيل فليرجع إليه. والآن نقدم إليك نماذج التناقضات في كتبهم:

الأول: كما في حموئيل الثاني: «ونصب داود تذكارا عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر أنفاس من روم في وادي الملح».(٣) وفي المزامير: «فرجع يوآب وضرب عن ادوم في وادي الملح اثني عشر الفاً».(٤)

الثاني: في الملوك الثاني: «كان أخزيا ابن اثنتين و عشرين سنة حين ملك، وملك سنة واحدة في أورشَلِيم واسم أمه عَثْلِيا بنت عمري ملك إسرائيل».(٥) وفي أخبار الأيام الثاني: «كان أخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين مَلَكَ وملك سنة واحدة في أورشَلِيم واسم أمه عَثْلِيا بت عُمْري».(٦)

والعجب أن أباه يهورام حين ملك كان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وتولى الملك ثماني سنوات كما صرح به في أخبار الأيام الثاني: «كان ابن اثنتين وثلاثين سنة

(١) إظهار الحق ١/٤٥٣ .
(٢) إظهار الحق ١/٤١٥-٤١٦.
(٣) حموئيل الثاني، ص٨، آية ١٣.
(٤) مزمور ٦٠.
(٥) ملوك ثاني ص٨، آية ٢٦.
(٦) أخبار الأيام الثاني ص٢٢، الآية: ٢.

حين ملك، وملك ثماني سنوات في أورشَلِيم».[١] فكان عمره حين الموت أربعين سنة. وهذا يفهمه صبيان المكاتب. وبعد موته لما تولى الملكَ ابنه الأصغر (كما هو المصرح) كان ابن اثنتين وأربعين سنة فكان ابنه الأصغر أكبر من أبيه سنتين فما ظنك بالأكبر!!! هذا هو العجب العجاب. وهذا تناقص صريح وتحريف بديهي لايمكن أن ينكره عاقل، وإن كان المنصرون مُصرِّين على سلامة كتابهم من التحريف، ولقد أحسن من قال: شعر،

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الشهد من سقم

الثالث: في التكوين: «ورأى العرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وإن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان».[٢] وحاصله أنه ندم لخلق الإنسان؛ لأنهم يعملون الشر. وفي حموئيل الثاني: «وأيضاً نصيح إسرائيل لايكذب ولا يندم؛ لأنه ليس إنساناً ليندم».[٣]

هذه نبذة من اختلافات العهد القديم. وقد مرّ بعض اختلافات الإنجيل، وإليك بعضاً آخر:

الأول: قال متى في بيان خروج المسيح عليه الصلاة والسلام من أريحا: «وإذا أعميان جالسان في الطريق».[٤] وذكر مُرقُص واحداً، قال: «كان بارتيماوس جالساً على الطريق يستعطي».[٥] وأنت تعلم أن بين الواحد والاثنين اختلاف بين.

الثاني: يعلم من متى أن يوحنا كان لا يأكل ولا يشرب، وعبارته: «لأنه جاء

---

(١) أيام ثاني، ص٢١، الآية: ٢٠.

(٢) تكوين، ص٦، الآية: ٦١٥.

(٣) حموئيل الثاني، ص١٥، الآية: ٢٩.

(٤) متى، ص٢٠، الآية: ٣٠.

(٥) مرقص، ص١٠، الآية: ٤٦.

يوحنا لا يأكل ولا يشرب، فيقولون: فيه شيطان».[١] ويفهم من مُرقُص أنه كان يأكل ويشرب. قال: «كان يوحنا يلبس وَبَرَ الإبل ومِنْطَقة من جلد على حَقْويه، ويأكل جراداً وعَسَلاً بَرِّيّاً» .[٢]

الثالث: اختلفوا في اسم من آمن بالمسيح حين اجتاز من المدينة، فقال متى: «وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجِباية اسمه متىً فقال له: اتْبَعْنِي. فقام وتَبِعه».[٣] ويعلم من مُرقُس ولوقا أن اسمه لاوي بن حلفي. قال: «وفيما هو مجتاز رأى لاوي بن حلفي جالساً عند مكان الجِباية».[٤] وقال لوقا: «وبعد هذا خرج، فنظر عَشّاراً اسمه لاوي جالساً عند مكان الجباية فقال له: اتبَعني».[٥] وإن قيل: يجوز أن يكون لرجل واحد أسماء مختلفة، فيكون متى ولاوي اسم شخص واحد. فنقول في الجواب مستفيدين من كلام الشيخ رحمة الله: أنه قد جاء في أسماء الحواريين يعقوب بن حلفي، وجعلوا متى شخصا آخر من الحواريين، فلو كانا واحداً لجعلوا متىَّ بن حلفي كما أن لاوي هو بن حلفي.[٦]

وكتبهم مشحونة بالاختلافات، وفيما ذكرنا كفاية لمن له دراية، وهداية لمن به مرض ضلالة، والله يهدي إلى أقوم الطريق، وبيده أزمة التوفيق والتحقيق.

---

(١) متى، ص١١، الآية ١٩.

(٢) مرقص، ص١، الآية ٦.

(٣) متى، ص٩، الآية ٩.

(٤) مرقص، ص٢، الآية ١٤.

(٥) لوقا، ص٥، الآية ٢٧.

(٦) إزالة الشكوك ٣٨/١.

حياة اليسوع المسيح في مرآة الأناجيل وعقيدة المسيحيين في عيسى عليه الصلاة والسلام

الآن نُسمِعكم قول النصارى في المسيح عليه السلام، وماقالوه في حياته ملخصاً من الأناجيل. قالوا: أرسل الله جبريل في بلدة اسمها: ناصرة، إلى امرأة اسمها: مريم، وكانت مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، فسلم جبريل عليها وقال: وجدتِ منحة الله وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوعا، وفيما هو متفكر إذ قال له ملاك الرب وظهر عليه في النوم: يا يوسف لا تخف، فإن الحبل نفخة من الروح القدس، فتلد ابنا اسمه يسوع، فقالت مريم: أنى يكون لي ولد ولا أعلم رجلاً. فقال ملاك الرب: ينـــزل عليك روح القدس ويكون المولود المقدس ابن الله. قالت: إني أمة الله، نسمع قولك بالرأس والعين.

ولادته عليه السلام

وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس بأن يكتتب كل المسكونة، فصعد يوسف من الجليل من الناصرة إلى اليهودية مدينة داود تدعى بيت اللحم ليكتب مع مريم ـ وهو حبلى ـ اسمهما، وفيما هما هناك اذ تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وكان في تلك الكورة زعاة يحرسون حراسات الليل على رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفاً عظيماً، فقال لهم الملاك: لا تخافوا، فها أنا أبشّركم بفرح عظيم: أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مُخَلِّصٌ هو المسيح الرب، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعاً في المذود، فلما رأوه أخبروا بالكلام الذي قيل لهم عن الصبي، وجيمع من سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة.

اختتانه وتسميته

وبعد ثمانية أيام اختتنوه وسمَّوْه يسوعاً. ولما تمت أيام تطهيرها صعدوا به إلى يروشليم ليقدموا للرب، وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان بَرّاً تقيّاً، فأتى بالروح إلى الهيكل، وعند ما دخل بالصبي يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس أخذه على ذراعيه وبارك الله ودعا، ولما أكملوا كل شيء وفق ناموس الرب رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة، وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة، وقد أنعم الله عليه، وكان أبواه يمشيان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح.

ظهوره عليه السلام

ولما تولد في بيت لحم في أيام هيردوس رأوا نجماً في المشرق، وجاءت الْمجوس إلى يروشليم قائلين أين المولود ملكُ اليهود؟ أتينا نسجد له. فلما سمع هيردوس اضطرب هو وجميع أورشليم، فجمع كل الكهنة وكتبة الشعوب وسألهم: أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم اليهودية. حينئذ دعا هيردوس الْمجوسَ سراً وسألهم عن وقت طلوع النجم وقال: اذهبوا وفَحِّصُوا بدقة عن الصبي، ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق مكان كان فيه الصبي، فأتوا إلى البيت وسجدوا له وقدَّموا له هدايا ذهباً ولُبَاناً[١] ومراً. ثم أوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودوس، فانصرفوا في طريق آخر إلى كورهم (قبيلتهم)، وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر قائلاً ليوسف قم وخذ الصبي واذهب إلى مصر، فقام وأخذ الصبى وجاء ليلا إلى مصر وكان هناك إلى وفاة الملك. ولما رأى هيرودس أن الْمجوس سخروا به وخدعوا به غضب، فحكم فقتل من في بيت لحم

(١) اللُّبان: (بالضم) ضرب من الصّمغ، يقال له: الكُنْدُر. (تاج العروس)

من الصبيان، وبعد موته ملاكُ الرب ظهر ليوسف في حلم قائلاً: قم وخذ الصبي واذهب إلى إسرائيل، لكن لما سمع أن أرخيلاوس تملك على اليهودية بعد هيردوس خاف أن يقع عليه وقائع، وإذا أوحي إليه أن انصرف إلى نواحي الجليل أتى وسكن في مدينة يقال لها: ناصرة.

وجوده في الهيكل

ولما تم له اثنتا عشرة سنة صعد إلى أورشليم كعادة العيد وبعد ما أكملوا المدة ورجعوا، وتخلف منهم الصبي يسوع في أورشلم، ويوسف وأمه لم يعرفا الأمر، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسا في المعلمين يسمعهم ويسألهم، والذين يستمعون إليه يَبْهتون من فطانته وذكاوته وأجوبته، فلما أبصراه اندهشا وقالت له: «يا بني! لما فعلت بنا هكذا؟ إنا نطلبك معذَّبَين»، فقال لهما: «لما كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي».

الاصطباغ والوحي

وحينما بلغ عمره ثلاثين سنة جاء من الجليل إلى الأردن إلى يوحنّا ليَعْتَمِد منه بمَعْمُوْدِيّة التوبة لمغفرة الخطايا، لكن يوحنّا أنكر قائلا: أنا محتاج لأن اعتمد منك وأنت تأتي إلي. فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن؛ لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برّ. حينئذ سمح له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السَّموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة آتيا عليه وصوتا من السموات قائلاً: هذا هو ابنى الحبيب الذي به سُرِرت وفرحت، ورجع من الأردن ممتلئاً من الروح القُدُس.

معجزاته عليه السلام

مَن طالع الإنجيل وأمعن فيه تيقن أن حياة المسيح عليه السلام لم تكن إلا وعاء الْمُعجزات ما من لَمحة إلاّ له فيها خارقة، والآن نذكر منها ما هو يوافق القرآن الحكيم، فكان يحي الموتى ويشفي المرضى كما في إنجيل متى: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرّز (يعلن) بشارة الملكوت، ويَشفي كل مرض، وكل ضعف في الشعب، فذاع خبره في جميع سورية، فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفةٍ والْمجانين والمصروعين والمفلوجين، فشفاهم».[١] والأناجيل مملوءة من معجزاته عليه السلام من شاء فلينظر.

حوارى اليسوع المسيح عليه الصلاة والسلام

كان له اثنا عشر حوارياً، اختارهم من بين أمته يُقوُّونه في دينه، ويلازمونه في السفر والحضر، ويساعدونه في الشدائد. وأسماءهم مذكورة في العهد الجديد. قال متى: «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر رسولاً وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويَشفوا كل مرض. وأما أسماء الاثني عشر رسولاً فهي هذه: (١) سمعان الذي يقال له بطرس. (٢) أندراوس أخوه. (٣) يعقوب بن زبدي. (٤) يوحنا أخوه. (٥) فيلبس. (٦) برثولماوس. (٧) توما. (٨) متى العشار. (٩) يعقوب بن حلفي. (١٠) لباوس الملقب تداوس. (١١) سمعان القانوي. (١٢) يهوذا الإسخريوطي الذي أسلم المسيح».[٢]

---

(١) متى، ص٤، الآية: ٢٣-٢٤.

(٢) متى، ص ١٠، الآية: ١-٤.

تبليغه وتعنيفه اليهود وغضبهم عليه

ثم إنه قد بلّغ ودعا، وأمر ونهى فقال: «متى صليتم فلا تكونوا كالمرائين، ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين، ولا تكنـــزوا لكم كنوزاً على الأرض». وخاطب اليهود خصوصاً وحذّر تلاميذه من اتّباعهم، وعَنَّفَهُم بألفاظ شديدة، فقال في أعمالهم: «لا تعملوا؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون». وقال مخاطبا: «لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تُغلقون ملكوت السماوات قُدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تَدَعون الداخلين ليدخلوا، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ــ هم بعض اليهود ــ؛ لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتى حصل تصنعونه لجهنم أكثرَ منكم مضاعَفا. أيها القادة والعميان الذين يصدفون عن البعوضة ويبلعون الجَمَل» إلى غير ذلك. فغضب لذلك اليهود وعزموا على قتله وشرعوا في الحيل الزائغة. واطّلع على ذلك اليسوع المسيح واخبر تلاميذه بذلك، كما قال متى:

«ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه: «تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان يصلب». وحينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذي يدعى قيافاً وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه، ولكنهم قالوا: ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب. حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة، وقال: ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه».[1]

---

(١) متى، ص ٢٦، الآية: ١-١٦.

العشاء الأخير

وفي أول يوم الفطر تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: أين تريدون أن نُعِدَّ لك لتأكل الفصح؟ فقال: اذهبوا إلى المدينة إلى فلان وقولوا له: المعلم يقول: إن أجلي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي، ففعل التلاميذ ما أمرهم يسوع، وهيئوا الفصح، ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر، وفيما هم يأكلون قال: الحق أقول لكم أن واحدا منكم يسلمني، فحزِنوا جداً، وابتدأ كل واحد منهم يقول: هل أنا هو يا رب؟ فأجاب وقال: الذي يغمس يده معي في الصفحة هو يسلمني. إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الإنسان، كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد. فأجاب يهوذا مُسَلِّمُه وقال: هل أنا هو يا سيدي؟ قال له: أنت قلت؟ وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسّر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا وكلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: اشربوا منها كلكم؛ لأن هذا هو دمي الذي يُسْفَك من أجل كثيرين لِمَغفرة الخطايا.

قتله على الصليب عندهم

وفيما هو متكلم إذ يهوذا أحد الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا: الذي أقبّله هو هو، أمسكوه، فللوقت تقدم إلى يسوع وقال: السلام يا سيدي وقبّله، فقال له يسوع: يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذٍ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه، وإذا واحد من الذين مع يسوع استل سيفه، فمنعه يسوع، فأمسكوه ومضوا به إلى رئيس الكهنة، فدخل وجلس بين الكهنة، وجاءوا بشاهدي زور ليحتالوا في قتله بعد سعي بليغ، ولما آن وقت انفلاق الصبح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع ليقتلوه، فأوثقوه ومضوا به إلى بيلاطس النبطي

الوالي، فوقف يسوع أمام الوالي، وكان الوالي يعتاد في العيد أن يطلق أسيراً واحدا مَن أراده، وكان حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس: مَنْ تريدون أن أُطلِق لكم باراباس أم يسوع؟ لأنه علم أنهم أسلموه حَسَداً، ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرَّضوا الجميع على أن يطلقوا باراباس ويهلكوا يسوع، فاتفق الجمع على صلبه، فأخذ عسكر الوالي يسوعَ إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة فعَرُّوه وألبسوه رداء قرمزيا، وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه، وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قُدّامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود، بصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوا رأسه، وبعد ما استهزئوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب، وسخروا رجلاً قيروانيا ليحمل صلبه وصلبوه (يسوع)، وصُلِبَ معه لصان: واحد عن اليمين وواحد عن اليسار، ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة، ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلي إيلي لما شبقتني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني؟ وصاح بصوت عظيم، وأسلم الروح.

دفنه ورفعه إلى السماء بعد ثلاثة أيام

وجاء رجل اسمه يوسف وقت المساء يطلب جسد المسيح، فأعطاه بيلاطس، فأخذه يوسف ولفّه بكتان نَقِيّ ودفنه. وفي الغد اجتمع رؤساء الكهنة إلى بيلاطس، وقالوا: إن ذلك المضل قال في حياته: إنّي أقوم بعد ثلاثة أيام، فأمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا ينبشوه من قبره، وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع حدثت زلزلة عظيمة، وجاء ملاك الرب ودَحْرَجَ الحجر عن الباب، وقام اليسوع من القبر وتكلم مع امرأتين مريم الْمَجْدلية ومريم الأخرى اللتين جائتا لتزورا قبره، وبعد ما لاقى تلاميذه وبارك فيهم أُصعِد إلى السماء وجلس عن يمين الرب.(١)

---

(١) هذه خلاصة ما في الأناجيل، وحياة المسيح (مسیح کی زندگی) لايلس ريناود وغير ذلك من كتبهم.

عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام وفق ما نطق به كلام الله تعالى

اسمه عيسى بن مريم. والمسيح قيل: اسمه، لقوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾. وقيل: لقبه. واختلف في معناه كما فصله العلامة الآلوسي: عيسى معرب يشوع، ومعناه السيّد. وعن كثير من السلف أن المسيح مشتق. واختلفوا في وجه إطلاقه على عيسى، فقيل: أنه مسيح بالبركة واليمن. وروي ذلك عن الحسن وابن جبير. وقيل: لأنه كان يمسح عين الأكمه فيبصر، وروي ذلك عن الكلبي. وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا برئ، رواه عطاء والضحاك عن ابن عباس. وقال الجبائي: لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه، وكانت الأنبياء تتمسح به. وقيل: لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عَوْذَة من الشيطان الرجيم. وقيل: لأنه حين مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه ذرات ذريته، لم يرده إلى مقامه كما فعل بباقي الذرات، بل حفظه عنده حتى ألقاها إلى مريم، فكان قد بقي عليه اسم المسيح أي الممسوح.(١)

المسلمون قاطبة متفقون على أن عيسى وأمه عليهما السلام كانا عبدين كاملين من عباد الله، عيسى عبد الله ورسوله، وأمه من أولياء الله تعالى صدقت بكلمات ربها وكانت من القانتين. وقد فرط فيه فرقة، وأفرطت الأخرى. فأفرطت النصارى وفرّطت اليهود، فقالت النصارى بألوهيتهما ويصلون لِمَريم، واليهود ينسبون المسيح إلى غير رشدة، وأمَّه إلى السّفاح ـ معاذ الله ـ. فأفرط النصارى كما فرطت اليهود. والمسلمون يعتقدون أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله كما أن مريم طاهرة نظيفة، نفخ في جيب درعها جبرئيلُ، وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم بقوله عزّ وجلّ في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ يعني اعتزلت وانفردت ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ يعني أتت مكانا شرقيا من بيت المقدس

---

(١) روح المعاني ٣/١٦١.

أو من دارها لتتخلى للعبادة ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ قيل: قعدت في مشرفة لتتطهر من الحيض، ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ والأكثر على أنه جبريل جاءها في صورة شاب أمرد وضيئ الوجه، وسمي روحاً لأنه سبب لما فيه روح العباد. ويقدر جبريل عليه السلام أن يتمثل بصورة رجل كما كان يتمثل حين يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصورة دِحيَة الكلبي رضي الله عنه. وكان أحسن الصحابة وجهاً. ثم إنه نفخ في جيبها، وقيل: في كمها، وقيل: في فمها، وقيل: غير ذلك. فدخلت النفخة في جوفها فحملت بعيسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾. قَالَتْ تعجباً: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. أي لم أتزوج ولم أبغ ولم أزن. ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. يعني لما ثقلت اعتزلت بعيداً من أهلها. ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾. واختلفوا في مدة حملها، فقيل: ساعة واحدة وهو المروي عن ابن عباس، وقيل: كانت سبعة أشهر، وقيل: ستة أشهر. وقيل غير ذلك. ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾. قال ابن عباس: لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف، وكان وقت الشتاء فـ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ استحياء من الناس وخوفا من أئمتهم، وإلا فهي تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم. ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. وروي أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا، وجعل الرطب يقع بين يديها، وكان برنياً، وقيل: عجوة، وإنما كان رطبا؛ لأنه ورد: «لا للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من عسل».[1] ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ

(١) الجواب الفسيح، ص١٧٩.

أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. وكان عيسى عليه السلام يرضع، فلما سمع ما قالوا ترك الرضاع وأقبل بوجهه عليهم، وقيل إن زكريا عليه السلام أقبل يستنطقه. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.(1)

هذه قصة المسيح بن مريم بيَّنها الله تعالى، ليس فيها مسئلة البنوة، وكونه كفارة للذنوب، وغير ذلك من الخرافات والاختراعات، بل صورة صحيحة للواقعة، ليس فيها استخفاف ولا تذليل ولا تناقض ولا تدافع، ولله دَرّ العلامة ابن حزم حيث جمع أقوالهم في اليسوع المسيح وتناقضهم في ذلك واستخفافهم وضلالتهم فقال: وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله، ومرة هو ابن يوسف وابن داود وابن انسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف(2) الله، ومرة هو في الله والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته، ومرة لا يحكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي وغلام الله، ومرة أسلمه الله إلى أعداءه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو، وصار يشرف الله تعالى، ويعطي مفاتيح السموات ويولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل، ويعطش ويشرب ويعرق من الخوف، ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تيناً يأكله، ويفشل فيركب حماره، ويؤخذ، ويلطم وجهه، ويضرب رأسه، ويبزق في وجهه، ويضرب ظهره بالسياط، ويميته الشُرط،

---

(1) مريم، الآية: ١٦-٣٤ .

(2) الخروف: الذكر من الضأن، ولعل المراد هنا: المحبوب. وقيل: ولد الفرس.

ويتهكمون به، ويسقى الخمر في الحنظل، ويصلب بين سارقين، ويسمر يداه، ومات في الساعة، ودفن، ثم يحيى بعد الموت، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله. هذا كله نص أناجيلهم.(١)

وهل يمكن استهانة وإذلال فوق هذا! إذ اتفقوا على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلاً مقهوراً، وهو يحمل الخشبة التي صلبوه عليها، وأنهم يصفقون في وجهه ويضربونه ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات وتركوه مصلوبا حتى التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاَهُوْتِيَّته من قبره. هذا قول جميعهم، وليس فيهم من ينكر.(٢)

نبوته عليه السلام

ثم إن مريم بعد أن فطمته وصلح للتعلم جعلته مع صبيان اليهود ليتعلم، ثم بعد ذلك بمدة أتاه الوحي وادّعى النبوة. واختلف في زمن رسالته فقيل: في الصبا وهو ابن ثلاث سنين، وفي البحر: أن الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين .(٣)

تبليغه اليهود وتدبيرهم القتل ورفعه إلى السماء

ثم لما بلغ ثلاثين سنة (على قول) بعثه الله نبياً أَمَرَ ونَهَى، وسنة الله في أنبيائه أنهم يصابون من الكفار بمصائب شديدة، فهذا إبراهيم عليه السلام صَدَّه نَمرود عن الإبلاغ وألقاه في النار، وهذا موسى عليه السلام لم يستمع له فرعون ورده و لم يلق له بالاً ورَدَّ كلامه أفظع ردّ، وكذلك عيسى عليه السلام خالفته اليهود ومكروا

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥٩/٢ للعلامة ابن حزم الظاهري رحمة الله عليه، بحذف.

(٢) منحة القريب المجيب ١٥٩.

(٣) روح المعاني ١٦٧/٣.

ليقتلوه، ومكر الله والله خير الماكرين. فروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رهطا من اليهود سبّوه عليه السلام وأمه، فدعا عليهم، فمُسِخوا قردة وخنازير، فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود، فاتفقوا على قتله، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعه منه إلى السماء و لم يشعروا بذلك، فدخل عليه طيطانوس ليقتله، فلم يجده وأبطأ عليهم، وألقى الله عليه شبه عيسي عليه السلام، فلما خرج قتلوه وصلبوه. وقال ابن المنذر: أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون فأحاطوا بِهم، فلما دخلوا عليهم صَيَّرَهم الله كلهم على صورة عيسى عليه السلام، فقالوا لهم: سحرتمونا، لَيَبْرُزَنَّ لنا عيسى (عليه السلام)، أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من يشتري نفسه منكم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، فقتلوه وصلبوه. ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام من بينهم.(١)

وقيل: كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام، فلما أراد قتله قال: أنا أدلكم عليه، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما، فدخل بيت عيسى، فرفع عليه السلام وألقي شبهه على المنافق، فدخلوا عليه فقتلوه، وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام.(٢)

وكان عيسى عليه السلام يلبس الصوف والشعر، ويأكل من نبات الأرض، وربّما تَقَوّت من غزل أمه.(٣)

وبالجملة لم يفوزوا في مرامهم، ورفعه الله تعالى إلى السماء، والآن هو في السماء يجيء في آخر الزمان عند قرب القيامة، فيحكم بدين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

(١) الجواب الفسيح، ص ١٨٤.
(٢) روح المعاني ٦/١٠.
(٣) المختصر في أخبار البشر ١/٣٥.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.(١)

وقد جاء في نزوله أحاديث، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: «ينـــزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري».(٢) وفي المعالم: فبعث الله جبريل، فأدخله في خوخة في سقفها روزنة، فرفع إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلاً من أصحابه يقال له: ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل لم ير عيسى، فأبطأ عليهم، فظنوا أنه يقاتله فيها، فألقى الله شبه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه.(٣)

فقد تحقق الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين في أمور في شأن المسيح عليه السلام:

يقولون: قتِل وصلب بأيدي اليهود. ونعتقد معشر المسلمين أنه لم يقتل و لم يصلب، بل رفع إلى السماء حيا وحفظه الله من كيدهم ومكرهم. ومكروا ومكر اللهُ والله خير الماكرين.

ويقولون: كان قتله كفارة عن ذنوب بني آدم. ونعتقد أن عقيدة الكفارة باطلة من خُزَعْبَلاتِ بولس محرِّف الدين العيسوي.

ويزعمون أنه ابن الله وثالث ثلاثة. ونحن نقول: هو بشر وعبد الله ورسوله خُلِق من بطن مريم، ومن قال غير ذلك فقد جاء ظلماً وزوراً، والله على ما نقول شهيد.

ويقولون: كان أعظم حوارييه يهوذا مكر باليسوع وأخذه وأحاله إلى اليهود. ونقول: كانت حواريُّه وأصحابه من المؤمنين الصادقين.

---

(١) النساء، الآية: ١٥٧.

(٢) مشكاة المصابيح، باب: نزول عيسى عليه السلام، ص٤٨٠ .

(٣) معالم التنـــزيل ٢/٤٤.

والآن نريد أن نبحث على وجه الإيجاز عن كل مسألة من هذه المسائل ليعلم أن الحق مع المسلمين، والمسيحيون ليسوا على شيء، بل مذهبهم كسَراب بقِيعَة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. والله ولي التوفيق، وبيده أزمة التحقيق. ونذكر هاهنا حال حواري عيسى عليه السلام لقلة محتوياته، ثم نبين إن شاء الله تعالى المسائل الأخرى. فإن لكل مقال مقاماً ولكل مقام مقالاً.

يشهد القرآن العظيم على أن المسيح عليه السلام من أولي العزم من الرسل، كان له حواريون وأصحاب صادقون يؤمنون به ويبلغون دينه ويلازمونه في الحضر والسفر وينصرونه في دين الله كما نطق به القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.(١) وقال تعالى في مقام آخر: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.(٢) وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾.(٣)

هكذا يفصح القرآن حال مخلصي عيسى عليه السلام وخاصته الذين اختارهم ليكونوا ناصريه. وقد ذكرنا أسماءهم من قبل.

والحواريون مَنْ هُم، ولِمَ سموا حواريين؟ فيه أقوال شتى جمعها المفسرون. وأقدم لك في ذلك ما ذكره العلامة الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» فقال: أصله من التحوير أي التبييض. وقال بعد ذلك بسطور: واختلف في سبب تسمية أولئك

---

(١) آل عمران، الآية: ٥٢ .

(٢) المائدة، الآية: ١١١ .

(٣) الصف، الآية: ١٤ .

القوم بذلك، فقيل: سموا بذالك لبياض ثيابهم، وهو المروي عن سعيد بن جبير. وقيل: لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب للناس، وهو المروي عن مقاتل وجماعة. وقيل: لنقاء قلوبهم وطهارة أخلاقهم، وإليه يشير كلام قتادة.

وفي تعين أنهم مِنْ أي الطوائف مِنَ الناس خلافٌ أيضاً، فقيل: قوم كانوا يصطادون السمك، فيهم يعقوب وشمعون ويوحنا، فمر بهم عيسى عليه السلام فقال لهم: أنتم تصيدون السمك، فإن اتبعتموني صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية، فقالوا له: من أنت؟ قال: عيسى بن مريم عبد الله ورسوله. فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئاً، فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرة أخرى ففعل فاصطاد ما ملأ سفينتين.

وقيل: هم اثنا عشر رجلاً، أو تسعة وعشرون من سائر الناس، اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا جاءوا قالوا: يا روح الله جعنا. فيضرب بيده على الأرض فيخرج لكل واحد رغيفان. وإذا عطشوا قالوا: عطشنا، فيضرب بيده على الأرض فيخرج الماء فيشربون. فقالوا: من أفضل منا! إذا شئنا أطعمتنا، وإذا عطشنا أسقيتنا، وقد آمنا بك. فقال: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه. فصاروا يغسلون الثياب بالكراء ويأكلون.

وقيل: إن واحداً من الملوك صنع طعاماً وجمع الناس عليه، وكان عيسى على قصعة فكانت القصعة لا تنقص، فذكر ذلك للملك فذهب إليه الملك مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون.

وقيل: إن أمه دفعته إلى صباغ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئا وجده أعلم فيه، فغاب الصباغ يوماً لِهَمٍّ وقال له: هاهنا ثياب مختلفة، وقد جعلت على كل واحد منها علامة، فاصبغها بتلك الألوان. فطبخ عيسى عليه السلام جبّاً واحداً وجعل الجميع فيه وقال: كوني بإذن الله كما أريد، فرجع الصباغ فأخبره بما فعل، فقال: أفسدت علي الثياب. قال: قم فانظر، فكان يخرج ثوباً أحمر وثوباً أخضر وثوباً أصفر كما كان يريد، فتعجب الحاضرون منه، وآمنوا به، وكانوا الحواريين.

ونقل جمع عن القفال أنه يجوز أن يكون بعضهم من الملوك، وبعضهم من الصيادين، وبعضهم من القصارين، وبعضهم من الصباغين، وبعضهم من سائر الناس، وسموا جميعاً الحواريين؛ لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، والمخلصين في طاعته ومحبته .انتهى.

والمسيحيون يزعمون في زعمائهم وأصحاب نبيهم ما لا ينبغي أن يُتَفَوَّهَ به، فنسبوا اليهوذا الإسخريوطي إلى أنه قبض على المسيح وأخذ ثلاثين درهماً، فاختار النار على الإيمان كما نطق به إنجيلهم: «وقال اليسوع: ولكن ويل له إنه الرجل الذي به يسَلَّم ابن الإنسان، كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد». وما قال متىَّ أنه ندم وردَّ الثلاثين من الفضة يخالف الويل القائل في حقه، ويخالف قول بطرس في حقه في أعمال الرسل «فإن هذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط، فانسكبت أحشاءه كلها، وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان أورشليم حتى دعي هذا الحقل في لغتهم حقل دما أي حقل دم».[(١)]

قال صاحب تحفة الحيل: أن يهوذا هذا بداية توبته، وهذه كانت محمودة إلا أنه خامرها رجاء المغفرة والاهتمام بالمصالحة مع الإله المهان، إلى أن قال: فشنق نفسه وأضحى معذَّبا في جهنم، سوف يلبث في العذابات القادمة مدى الأبدية.[(٢)]

وحكى في حق بولس الرسول الذي كان مؤسسا لِمذهبهم وعِماداً من عُمُد دينهم ما يتهمه بالكذب ويضربه إلى القبح وهو قوله: «فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لِمَجده فلماذا أدّان أنا بعد كخاطئ».[(٣)]

وفي مقام آخر «غير أنه على كل وجه سواء كان بعلة أم بحق ينادي بالمسيح.

(١) أعمال الرسل، ص١، الآية: ١٨-١٩.

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق، ص٢٤٦.

(٣) رسالته إلى أهل رومة، ص٣، الآية: ٧ .

وبهذا أنا أفرح بل سأفرح أيضاً».(١)

وجاء في حق بطرس: «وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلا: اذهب عني يا شيطان! لأنك لا تَهتمّ بِما لله، لكن بما للناس».(٢)

«وأنكر المسيح عند قتله، فقالت امرأة للذين هناك: وهذا ـ أي بطرس المذكور سابقاًـ كان مع يسوع الناصري، فأنكر أيضاً بقسم: أني لست أعرف الرجل، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس: حقا أنت أيضاً منهم، فإن لغتك تُظهِرك، فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إني لا أعرف الرجل، وللوقت صاح الديك».(٣)

هذه كلماتهم سقتها إليك في أصحاب أنبيائهم، ونحن نعتقد أن الحواريين كانوا خُلّصُ أمته عليه السلام، فنحن معشر المسلمين من الذين يصدقون المسيح في الحقيقة فنعطيه حقه، ونعطي حواريَّه حقهم، ولا نرفع المسيح عليه السلام إلى رتبة الألوهية وأوج المعبودية، ولا ننـــزله إلى حضيض الطعن. فما أحسنَ دينَنا وشريعتنا الشريعة الإسلامية، اللّهم ثبِّت أقدامنا عليها واحشرنا في زمرة الصالحين وأدخِلنا الجنة. آمين ثم آمين.

(١) رسالته إلى أهل فيلبس، ص١، الآية: ١٩.

(٢) مرقس، ص٨، الآية: ٣٣.

(٣) متى، ص٢٦، الآية: ٧٢.

محمد صلى اللّه عليه وسلم اسمه ونسبه وأحواله وما إلى ذلك من المهمات

قد سردنا من قبلُ أحوال عيسى عليه السلام، والآن نقدم إليك أحوال محمد صلى الله عليه وسلم ليَرسُب في قلبك أن محمداً صلى الله عليه وسلم له منـــزلة رفيعة عند الله تعالى، وتندفع بما نذكر مطاعن المسيحيين ومثالبهم عن ذاته المقدسة فنقول: اسمه محمد وأحمد، وهذان الاسمان مشهوران من أسمائه صلى الله عليه وسلم. قال الملا علي القاري في «شرح الشفا»: قال وهب بن منبه: في الزبور: يا داود! سيأتي من بعدك نبيّ يسمى أحمد ومحمداً، صادقاً سيداً، لا أغضب عليه أبداً ولا يعصيني أبداً، وقد غفرتُ له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة، وأعطيته من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل حتى يأتوا يوم القيامة نورهم مثل نور الأنبياء.(١)

نسبه صلى اللّه عليه وسلم

أما نسبه من أبيه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر الملقب بقريش بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأما من جهة أمه، فهو صلى الله عليه وسلم ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. ففي كلاب يجتمع نسبه من الجانبين، فهذا ملتقى البحرين. وكان نسله من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام من هاجرة أم المسلمين، فهو كريم الْمَحْتِدِ طيب الأَرُوْمَة(٢).

---

(١) شرح الشفا للعلامة القاري ٧٣٩/١ .

(٢) أي طيب الأصل.

تولّد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول / ٢٣ إبريل سنة ٥٧١م، وتلك سنة الفيل. كان والده توفي قبل مولده بسبعة أشهر، فبعثته أمه إلى بادية بني سعد، وكانت من عادة العرب أن يعهدوا بأطفالهم للمراضع، فكان من نصيب حليمة رضي الله عنها وحسن حظها أن أخذته.

ولما كان في السادسة من عمره توفيت أمه، فبقي في تربية جده عبد المطلب، وبعد وفاته وفنائه من دار الغرور تربىّ في رعاية عمه أبي طالب، وعزم أبو طالب على السفر إلى الشام وأخذ معه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابن اثنتي عشرة سنة، وهناك رآه راهب نِصراني اسمه بُحيرَى، فأومأ إلى أبي طالب أن يعيده إلى مسكنه، فإن الخطب كبير والخطر خطير، وقال له: إن ابن أخيك هذا سيكون له شأن عظيم، وسيكون نبياً.

ولما بلغ خمساً وعشرين من عمره سافر مرة أخرى إلى الشام في تجارة خديجة بنت خويلد، وكانت ذات شرف ومال وكرامة، فلما علمت حال النبي صلى الله عليه وسلم من صدقه وأمانته وأخلاقه وفطنته عرضت عليه أن يخرج بمال تجارتها، فقبله النبي صلى الله عليه وسلم، وربح ربحا كثيراً فوق المعتاد، وبعد وُروده المسعود وقدومه الميمون إلى مكة المكرمة خطبتْه لنفسها وكان عمرها آنئذٍ أربعين سنة، وكانت كريمة النسب من قريش.

وفي الخامسة والثلاثين من سنه جاء سيل، فخَرَّبَ وشقّقَ جدران الكعبة، فأجمعوا على هدمها، لكن اختلفوا في وضع الحجر الأسود، فرضوا أن يحكّموا أول من دخل، فكان صلى الله عليه وسلم أول داخل، فأخذ الثوب وجعل الحجر الأسود فيه وقال: لتأخذ كل قبيلة بجانب الثوب فرفعوا ووضعه النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا وصلت هذه السعادة إلى أهلها. ثم تَحَبَّبَ إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء ويتحنث فيه ويتعبد، وكانت عبادته التفكر في خلق السموات والأرض.

ولما بلغ أربعين سنة جاء إليه جبريل عليه السلام وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فضمه جبريل إليه ثم أرسله وقال: اقرأ، فرد عليه النبي ما رد أولاً. ثم ضمَّه

جبريل عليه السلام، وفى المرة الثالثة سأله النبي صلي الله عليه وسلم: ماذا أقرأ؟ قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.(١) فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بيته، وأخبر سيدتنا وأمّنا خديجة رضي الله عنها بما حدث، وقال: زملوني زملوني، ونام صلى الله عليه وسلم، وبعد ما استيقظ صَحِبَتْه خديجة إلى قريب لها اسمه ورقة بن نوفل، فلما سمع ورقة بما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم قال: إنك نبي. وآمنت به خديجة، وكانت أول من آمن به. ثم أخذ صلى الله عليه وسلم يدعو أهله وأقاربه وأحبائه وأصدقائه إلى الإسلام سراً، وكان المسلمون إذ ذاك يخفون إسلامهم خوفاً من الكفار حتى نزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.(٢) فدعى جهراً. ثم انتشر الإسلام، وزاد غيظ قريش وغضبهم ومقتهم؛ لأنه عليه السلام كان يدعو إلى عبادة الله وحده، ويخالف آلهتهم، ويطعن في دينهم، ويسفّه أحلامهم، فأخذوا يعذبونهم عذاباً شديداً، واشتد أذاهم، وآذوه باللسان واليد، وآذوا أصحابه، فلما اشتد أذاهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً، ولما وصلوا هناك أحسن إليهم النجاشي وآواهم وأحسن مأواهم ونجّاهم من شر الكفار، ثم ذاع الخبر واشتهر أن قد أسلم كفار مكة، فقصد المهاجرون مكةَ، ولما وصلوا إلى حدود مكة انكشف لهم أن الخبر كان مكذوباً مختلقاً، فدخل البعض في حماية بعض الرؤساء ورعايتهم، ثم هاجروا مرة ثانية من اضطهاد الكفرة واعتدائهم.

ولما أراد الله أن يظهر الإسلام، ويعليه، ويرفع رايته، ويرسُب لوائه، ويُحكّمُ بنائه أمال قلوب أهل المدينة إلى الإيمان، وأدخل الإيمان في أعماق قلوبهم، واستأثرهم الله لهذه النعمة العظمى، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج في موسِم

(١) العلق، الآية: ١-٥.

(٢) الحجر، الآية: ٩٤.

الحج يدعو العرب إلى كلمة التوحيد، فدعا نفراً من أهل المدينة، فأجابوا الدعوة ولبُّوا النداء، وكانوا ستة نفر من الخزرج، ثم حضر في السنة الثانية اثنا عشر رجلاً وبايعوه، وهذه بيعة العقبة الثانية، ثم تفضل في الثالثة سبعون رجلا وبايعوه، وهذه بيعة العقبة الثالثة. ثم أمر الله نبيَّه وصفيه بالهجرة إلى المدينة مع طلب أهل المدينة طلب إخلاص ومودّة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فلما وصلوا إلى المدينة استقبلهم أهل المدينة ورَحَّبوا بهم وفرحوا بقدومهم الميمون، وكانت الهجرة بعد بعثته بثلاث عشرة سنة.

ولما لم يُرْوِ ذلك الظلم والاعتداء غَلَّة عداوة قريش، بل كانوا يستحثون القبائل والفئام على إيذاء المسلمين وإبادهم، أذن الله للرسول والمسلمين في الجهاد، فغزاهم وجاهدهم.

والغزوات المشهورة الْمحفوظة في بطون أوراق التاريخ والحديث عشر غزواتٍ: (١) غزوة بدر. (٢) غزوة أحد. (٣) غزوة بني قينقاع. (٤) غزوة الخندق. (٥) غزوة بني المصطلق. (٦) صلح الحديبية الذي جعله الله فتحاً مبيناً. (٧)غزوة خيبر. (٨) فتح مكة. (٩) غزوة حنين. (١٠) غزوة تبوك. ثم حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من هجرته وعلَّمَهم مسائل الحج وأحكامه، وألقى خطبة بليغة جامعة سَرَدَ فيها أكثر تعاليم الإسلام، ثم غربت هذه الشمس المشرقة، وأظلمت الأرجاء بغروبها، وأبكى العيون، وأيتم الأمة يوم الاثنين ١٢ أو ٨ أو ٩ من ربيع الأول وكان عمره ٦٣ سنة، ودفن في المكان الذي توفي فيه.[١]

مولاي صَلِّ وسلِّم دائما أبداً   على حبيبك خير الخلق كلهم

(١) ملخص من كتب الحديث والسير .

إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

اعلم أن المسيحيين ينكرون نبوة سيدنا ونبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ويزعمون أنه لم يكن نبياً، ولو كان نبياً فنحن أحق بأن نصدقه، كأنهم ميزان الصدق ومحك الحق، فمن صدَّقوه فهو نبي ومن كذّبوه فهو ليس بنبي. ويل لأمثال هذه العقول يدعون الجَوَلان في ميدان التحقيق. ولقد أحسن من قال، بل أحرى أن يكتب بمداد الذهب. شعر:

گر از بسیط زمین عقل منعدم گردد بخود گماں نبرد ہیچ کس کہ نادانم

فحضراتكم تعتقدون ألوهية المسيح عليه السلام، فهل يكون إلها؟ وتتهمون لوطاً عليه السلام بالزنا، فهل يكون كذلك؟ لا توجد فيهم رائحة الفهم، بل مسخ الله عقولهم وطبع على قلوبهم، فلا تنطبع عليها كلمة الحق، وختم الله على أفئدتهم، وأعمى بصائرهم وأبصارهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً، وانظر نظر إنصاف واجتنب عن الاعتساف إلى كلام عبد المسيح حيث قال بعد خرافاته وإطالته التي لا طائل تحتها: إن كان نبياً فنحن أحق بأن نصدق، وإن لم يكن نبيا فلا ينبغي أن نقيم على غير الحق.(١)

إذا تيقنت أن عقولهم ليست ميزانا لمعرفة صحة الشيء، فاستمع أن نبوته ثابتة بدلائل هي أرفع وأرسخ من الجبال الشم الراسيات.

الأول: أنه ولد بين أظهر قوم لا كتاب عندهم، ولا حكمة فيهم، فشا فيهم الزنا، وكثرت فيهم الفواحش، فادَّعى النبي صلى الله عليه وسلم الرسالة في أمثال هذه الظروف والأحوال، وقام بدعواه مع قلة الأعوان والأنصار، و لم يقدر الأعداء مع كثرة عددهم وشدة شكيمتهم أن يُطفِؤوا نور دينه، ومع ذلك كسر النبي صلى الله عليه وسلم أصنامهم وضَلَّلَ آراءهم وسفَّه أحلامهم، ولا يكون هذا إلا بعون الله

---

(١) الجواب الفسيح لردّ ما لَفَّقَه عبد المسيح للعلامة الآلوسي، ص٦٨ .

المعين وتأييد رب العالمين، ولو كان كاذباً لهلك كما في الزبور: «والغاشي يرذله الرب».[١] وفي موضع آخر فيه: «لأن سواعد الخطاة تنكر، والرب يعضد الصديقين، ويهلك المتكلمين بالكذب، رجل الدماء والغش يكرهه الرب؛ لأن سواعد الأشرار تنكسر، وعاضد الصديقين الرب».[٢] فلما لم يهلك و لم تنقطع دعوته، بل غلب أمره، وظهر دينه، وسطع نوره، وأشرقت ذكاؤه، وارتفع ذكره في البسيطة شرقاً وغرباً، شِمالاً وجَنوباً، وصدق قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، علم أنه نبي ورسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أن الناس عموماً والعرب خصوصاً كانوا إذ ذاك ضالين تائهين متحيرين في أودية الكفر والضلال، فكانت العرب قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم في جهالة وسفاهة وعادات قبيحة ورسوم شنيعة لا أصل لها. كانوا منهمكين في عبادة أصنام، فمنهم عُبّادُ الشمس، ومنهم عباد القمر، ومنهم الدهرية، والصائبة، والزنادقة، وعُبَّاد الملائكة، وعباد الجن، وعباد النار، وعباد الكواكب. وتفصيله في الجزء الثاني من «بلوغ الأَرَب في معرفة أحوال العرب» للسيد محمود شكري الآلوسي رحمه الله.

قال ابن هشام بياناً لضلالتهم: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها عندهم هبل، وكان فيما بلغني من عقيقٍ أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدا من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة، وكان قدامه سبعة قِداح مكتوب في أحدهما صريح، وفي الآخر ملصق، فإذا شكُّوا في مولود أهدَوا له هدية، ثم ضربوا بالقِداح، فإن خرج صريح

---

(١) زبور مزمور، ص ٥، الآية: ٦.

(٢) زبور مزمور، ص ٣٧، الآية: ١٧.

ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه، وقِدح على الميت وقدح على النكاح، وكان لهم إساف ونائلة».[١]

وكانوا يئدون البنات. هكذا كان أمر العرب قبل طلوع الإسلام، وكانت الفُرْس على اعتقاد إلهين، ووَطْئ الأمهات والبنات، والتُّرك على تخريب العباد، والهند على عبادة البقر والسجود للشجر والحجر، واليهود على الجحود ودين التشبيه وترويج الأكاذيب والمفتريات، والنصارى على القول بالتثليث وعبادة الصليب وصور القديسين والقدسيات، وهكذا سائر الفرق.

فكان الناس أحوجَ ما يكون إلى نبي مُصلِح يصلح حالهم ويسدد بالهم، فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم. ولم يتعلم مِنْ أحد من العلماء وما تخرج من كلية ولا مدرسة، وصدع بالتوحيد في الذات والصفات الذي لا امتزاج فيه للشرك ولا اختلاط للكفر، وشرح أصول الأخلاق والعادات الفاضلة، وفصل القوانين الْمُحَيِّرة للعقول، وأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر، وأخبر عن المغيبات مطابقاً لما وقعت حَذْوَ القذة بالقذة، واجتمع فيه من الأوصاف الحميدة، والكمالات العلمية والعملية مالا يمكن عدها وإحصاءها، فهل يقتني ذلك في غير النبي؟ لا والله لا يجتمع ولن يجتمع. فمحمد صلى الله عليه وسلم نبي ورسول أرسله الله بالحق بشيراً ونذيراً.

وقد شهد بكونه مجمع الكمالات، وينبوع الأوصاف الحسنة، والبحر النمير للأخلاق الجميلة أعداؤه، ومخالفوه. قال مولانا رحمة الله الكيرانوي رحمه الله تعالى: نقل سيل عن «أسبان هميس المسيحي» من الذين هم أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والطاعنين في حقه أنه (النبي) كان زكيّاً، وكانت طريقته مرضيةً، وكان الإحسان إلى المساكين شيمته، وكان يعامل الكل بالخلق الحسن، وكان شجاعاً على الأعداء، وكان يعظم اسم الله تعظيماً عظيماً، وكان يشدد على المفترين، والذين

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/٢١٥.

يرمون البراء، والزانين، والقاتلين، وأهل الفضول، والطامعين، وشهدوا الزور تشديداً بليغاً. وكانت كثرة وعظه في الصبر، والجود، والرحم، والبر، والإحسان، وتعظيم الأبوين والكبار، وتوقيرهم، وتكريمهم، وكان عابداً مرتاضاً في الغاية .(١)

والثالث: أن الشريعة التي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والأمانة التي أداها إلى أمته، والجوهرة النيرة التي علقها في أعناقها متكفلةٌ بضروريات الناس وحوائجهم، دافعة للشر، محتوية على التوحيد وشكر المنعم والاعتقادات الصحيحة الموافقة للعقل والنقل، والنهي عن الكفر والشرك والفسوق والعصيان والعجب والتكبر والرياء والسمعة والشماتة والظلم والبخل وما إلى ذلك من الأعمال الشنيعة والاعتقادات القبيحة، وهي مشتملة على العبادات التي فيها تعظيم رب الأرباب، فانظر إلى الصلاة وما فيها من الكلمات، والصوم وما فيه من المشقات، والزكاة وما فيها من التزكية والتطهير، منطوية على المعاملات العادلة من البيع والشراء والإجارة والشركة والمداينة وقسمة التركات على وجه أتم وترتيب أكمل، متضمنة للحدود والقصاص والعقوبات التي توجب حفظ النفس والمال والعِرض، وجميع ذلك يطابق العقل والحكمة، مكملة لحسن الأخلاق والآداب والعدل والإحسان والإيثار وحسن السلوك وغير ذلك. والضرورة حاكمة بأن مثل هذه الشريعة الغراء التي لا نقص فيها ولا خلل، ولا فساد فيها ولا ملل، لا تختص بزمان ولا مكان، ولا تتعلق بقوم دون قوم، بل حاو لجميع الأدوار والأطوار من لدن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما تَغَرَّد الحمام، وهو يوم القيام.

والرابع: معجزة القرآن الذي أعجز عن الإتيان بمثله مصاقع(٢) الفصحاء، وغيَّض ببلاغته شقاشق البلغاء، فلا يستطيع أن يأتي بمثله أحد، ولا يمكن أن ينسج على منواله بشر، فالقرآن في فصاحته، وبلاغته، ونصاعة تعبيره، وبراعة تحبيره،

---

(١) إظهار الحق ٣٢٣/٢.

(٢) جهوريٌّ الصوت.

وكمال ترصيفه، وإخباره عن المغيبات، واشتماله على الحكم واللطائف والمواعظ والأمثال، ورد الشرك والكفر، وحسن الاستدلال، وإثبات التوحيد والرسالة والمعاد والتنذير والبشارة، منفرد لا يمكن مكامعته ومعارضته. قال الله تعالى مُقْرِعاً لهم ومُوَبِّخاً: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.[١] ثم قال صارخا بهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[٢] ثم أقرعهم وطلب منهم سورة فقط فقال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.[٣] فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَدِّيهم، ويدعوهم إلى ميدان المبارزة، ولم يأتوا بأقصر سورة من مثله، وكانوا فصحاء أرضِعوا من لبان الفصاحة، بلغاء سُقوا من نمير البلاغة، فرسان الكلام، خطباء يذلّلون صعاب الكلام، وينشؤون القصائد والخطبات بأدنى إشارة إلى أقلامهم. ويفتخرون بهذا، ومع ذلك لم يأتوا به، ومازال النبي صلى الله عليه وسلم يحديهم ثلاثا وعشرين سنة، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله، ولن يأتوا به إلى يوم التناد.

وقد أقروا بإعجازه وكونه كلام الله مع كفرهم كما في حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه حين قال لأخيه أنيس: ما صنعت؟ بعد ما رجع عن مكة. قال: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْراءِ الشِّعر فما يلتئم على لسان أحد، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.[٤]

---

(١) الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) هود، الآية: ١٣.

(٣) البقرة، الآية: ٢٣.

(٤) رواه مسلم في حديث طويل ٢/٢٩٦.

وعن عكرمة رضي الله عنه في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم اقرء عليّ، فقرء عليه ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[١] قال: أعدنا، فأعاد صلى الله عليه فقال: والله إن له حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِرٌ، وإن أسفله لَمُغدِق، وما يقول هذا بشر، ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لَمُثمِرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفلُه، وأنه يعلو وما يُعلى.[٢]

ووجوه إعجاز القرآن كثيرة. **الأول**: ما فيه من الإيجاز والبلاغة بحيث وصل كل منهما إلى الرتبة العليا والدرجة القصوى، و لم يمكن لأحد أن يعارضه .

والثاني: أنه مع كونه من جنس كلام العرب قد جاء في نظمه وأسلوبه مخالفاً لسائر فنونه من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، ومن تحدَّى لمعارضته اعترتْه روعة كنهه عن ذلك، كما حكي عن يحي بن حكيم النـــزال، وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته منه خشية حملته على التوبة والإنابة. وحكى أيضا أن ابن المقنع وكان أفصح أهل زمانه طلب ذلك ورامه ونظم كلاماً، وجعله مفصلا وسماه سورا، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[٣] فرجع ومحى ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارَض أبداً وما هو من كلام البشر.[٤]

(١) النحل، الآية: ٩٠ .

(٢) منحة القريب المجيب ص١٧٦.

(٣) هود، الآية: ٤٤ .

(٤) منحة القريب المجيب، ص١٧٩.

والثالث: إخباره عن المغيبات، ودلالته على الوقائع الآتية، وإخباره عما وقع على الوجه الصحيح، ولنذكر بعض ما أخبر به من المغيبات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.(١) فقد وعد الله تعالى في هذه الآية حفظ القرآن عن التحريف والتغيير، وهذا الوعد صادق على مر الدهور لا يستطيع أحد أن يتصرف فيه، وخلق الله تعالى لحفظه أسباباً، فأهل العربية يحفظون لفظه من حيث الإعراب والمادة والصورة، وأهل اللغة والأدب يحفظون معانيه، والقراء يحفظون لهجته ومنهاج تلاوته. فسبحانه أنجز وعده. بخلاف التوراة، فإنها ضاعت؛ لأن موسى عليه السلام وضعها في تابوت، ولما أخرجت في عهد سليمان عليه السلام لم يبق فيها غير اللوحين كما في التوراة: «وكتب موسى هذه التوراة وسلّمها لكهنة بني لاوي، حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظال».(٢)

يعلم من هذا أن موسى عليه السلام وضع التوراة في صندوق وتابوت محفوظاً وأمرهم بإخراجه بعد سبع سنين. ثم قيل في باب الملوك الأول: «لما اجتمع الناس لإخراج التابوت لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللّذان رفعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر».(٣)

وهذه العبارة صريحة في ضياع الألواح إلا لوحين، فهذه حال التوراة. وانظر إلى الإنجيل، قد اتفق المسيحيون على أن الإنجيل المنـــزل على عيسى عليه السلام واحد، فمن أين جاءت هذه الأناجيل الأربعة مع اختلاف بينها وتناقض، وقد ثبت أن الإنجيل كان واحداً، ففي إنجيل مرقص: «وابتدأ بطرس يقول له: ها نحن قد تركنا كل شيء تبعناك. فأجاب يسوع وقال: الحق أقول لكم: ليس أحد ترك بيتا، أو

(١) الحجر، الآية: ٩.

(٢) التثنية، ص ٣١، الآية: ٩-١١.

(٣) الملوك الأول، ص٨، الآية: ٩.

إخوة، أو أخوات، أو أبا، أو أما، أو أخا، أو امرأة، أو أولادا، أو حقولا لأجلي، ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان».[١] وإنجيل متى صنف بالعبرانية مع أن الأصل عنقاء، ولوقا لم يلاق عيسى عليه السلام، بل شيخه ومعلمه بولس كان عدوا لعيسى عليه السلام في حياته، ومرقص تلميذ شمعون. وبطرس كتب الإنجيل في إنطاكية باليونانية. وبين لوقا ومتى اختلاف شديد، ويوحنا آخر من الجميع، يقال: إنه تلميذ المسيح، لكن في كتابه دخل عظيم لعقائد اليونانيين.[٢] على أن إنجيل متى لم يكتبه متى بنفسه، وهذا يترشح من إنجيله حيث قال: «وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه متى، فقال له، اتبعني، فقام وتبعه».[٣] هذا يدل على أن الإنجيل كتبه غير متى، و إلا فينبغى أن تكون العبارت هكذا «رآني وقال لي: قم معي». وهكذا حال الزبور، فإن أحوال مصنفيه عند الله عز وجل، لا يعلم قائله، فبعض المزامير تنسب إلى داود عليه السلام، والبعض لسليمان، وموسى، ومير مغني، وبني قورح، فهذا حال الكتب الموجودة في أيدي أهل الكتاب.

الرابع: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها، فوازن بين قوله عليه السلام: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقوله تعالى في هذا المعنى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾.[٤] وقوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.[٥] فهذا أعدل لفظاً، وأحسن تركيباً، وأعذب كلمةً، وأجود سبكاً، وأقل حروفاً. وتأمل في قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) إنجيل مرقس، ص١٠ آية ٢٨-٢٩ وبعض من ٣٠.

(٢) رحمة للعالمين للقاضي سليمان منصور فوري، ص ٢/٣١٦.

(٣) متى ص٩، الآية ٩.

(٤) الزخرف، الآية: ٧١.

(٥) السجدة، الآية: ١٧.

«كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الرجل راع في بيته ومسئول عن رعيته» الحديث. وقوله تعالى في هذا المعنى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.(١) وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.(٢)

الخامس: التشريع الكامل الذي يضطر إليه الكفار في العبادات، والمعاملات، والآداب، والعادات، فانظر اضطرار الكفرة المسيحيين إلى هذا النظام، فمن زمن قريب حرَّمت أمريكا الخمر، ولكنها فشلت و لم تنجح؛ لأنها لم توفَّق إلى الطريقة الحكيمة التي أتبعها الإسلام من تحريم الخمر، فعادت إلى إباحتها مع اعتقادها بضررها القادح، وهكذا أباحت بعض الدول الغربية وخاصة أمريكا الطلاق بعد أن كان ممنوعا لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة، ولا تزال تأخذ بتشريح الطلاق، إلى غير ذلك من الأمور الشرعية الإسلامية.(٣)

السادس: إخباره عن المغيبات، منها: إخباره عن الحرب التي وقعت بين الروم والفُرْس، وتكون الغلبة للروم بعد أن انكسروا، وذلك في قوله تعالى: ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.(٤) روي أن فارساً غزا الرومَ، فوافَوهم بأَذْرِعاتٍ وبُصرَى من أرض الشام، فغلبوا عليهم، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة، فشق ذلك عليهم، وفرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم. فأنزل الله تعالى هؤلاء الآيات، فأوفى الله هذا الوعد، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة.(٥)

---

(١) الحجر، الآية: ٩٢، ٩٣.

(٢) الأعراف، الآية: ٩.

(٣) التبيان في علوم القرآن من بحث الإعجاز للشيخ محمد علي الصابوني، ٨٩-١٢١.

(٤) الروم، الآية: ١-٥.

(٥) تفسير المراغي بحذف ٢١/٧٢-٢٨.

ومنها: إعلامه بظهور الإسلام على جميع الأديان، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.(١)

وقال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.(٢) وقال في موضع آخر: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.(٣) ولقد أوفى الله وعده بأن أظهر دينه على سائر الأديان.

كانت دولة المسيحيين في حبشة وروما وبحرين في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومذهب اليهود في خيبر والمدينة، وكانت المجوسية في الفرس، وقد أدخل الله الإسلام في ديار الجميع، وصاروا بعد ما كانوا أعداء الإسلام والمسلمين أحباءهم، وتمكّن الإسلام في قلوبهم، ونزل في جذر أذهانهم، وانتشر مع قلة الأسباب، ففي عهد مُقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة والمدينة وصلت نكهة الإسلام إلى البحرين وعمان ودومة الجندل، وفي عهد الخفاء الراشدين الْمَهديين رضي الله عنهم انتشر إلى عراق ومصر وإيران وإلى تونس، وبعد ذلك إلى جبل الطارق والهند والصين وأفريقيا وغيرها. وقد أخبر الله تعالى نبيه بغلبته على هذه الدولات والأقطار إجمالاً.

ومنها: الإخبار بهلاك أبي لهب وامرأته في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.(٤) ولقد صدق هذا الإخبار بهلاك أبي لهب، كما روي عن ابن عباس

---

(١) التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) إبراهيم، الآية: ٢٤، ٢٥.

(٣) النور، الآية: ٥٥.

(٤) لهب، الآية: ١-٤.

رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.[١] ورهطك منهم المخلصين. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصَّفا، فهتف يا صباحاه! فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. فقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ فنـــزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.[٢] وَقَدْ تَبَّ، هكذا قرأها الأعمش يومئذٍ .[٣] فهلك أبو لهب وفقاً لإعلام القرآن.

قال السيد الآلوسي: وهلك أبو لهب نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال، فاجتنبه الولد مخافة العدوى، وكانت قريش تَتَّقِيْها كالطاعون، فبقي ثلاثا حتى أَنْتَنَ، فلما خافوا العار استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه. وفي رواية: حفروا له حفرة ودفنوه بعدوٍ حتى وقع فيها، فقذفوه بالحجارة حتى واروه. وفي أخرى: أنهم لم يحفروا له وإنما أسندوه للحائط وقذفو عليه الحجارة من خلفه حتى توارى، فكان الأمر كما أخبر به القرآن.[٤]

وامرأته كانت تأتي بأغصان الشوك في طريق رسول الله صلي الله عليه وسلم وتطرحها بالليل، وقيل: كانت تحمل حزمة الشوك والحسك والسعدان، فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فهلكت وكانت حزمة الحطب على رأسها وتعلق الحبل بِجيدها كما أخبر الله تعالى.

ومنها: إخباره بالغزوات، فقال الله في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُوْنُ لَكُمْ وَيُرِيْدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ

(١) الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) لهب، الآية: ١.

(٣) رواه البخاري ٧٤٣/٢.

(٤) روح المعاني ٢٦٢/٣٠.

الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ﴾.(١) فكان كما أخبر إذ وقع الذل، والهوان، والقتل، والسبي عليهم. وصدق قوله عز وجل: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.(٢)

وقال في غزوة خيبر: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.(٣) نزلت في الحديبية وصدق هذا في فتح خيبر.

وقال تعالى في غزوة الأحزاب: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.(٤) فكان كما قال. هذا بعض من المغيبات التي أخبر بها القرآن، والإحاطة بالكل من شأن العليم الخبير.

ومنها: إخباره عن المغيبات الماضية الصادقة كإخباره عن الأنبياء السابقين على وجه صحيح كقصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له، وعصيان الشيطان، وواقعة خلافة داود وسليمان، ومصيبة أيوب ويونس، وقبول دعاء زكريا، وإرهاصات عيسى عليه السلام وقت طفوليته، ومناظرة إبراهيم لنمرود لعنه الله، وقصة ولادة موسى عليهم الصلاة والسلام، وإلقائه في البحر، وتربيته في بيت فرعون، ورَكْزه القبطيَّ، وقصة ذبح بقرة بني إسرائيل، وقصة طالوت وجالوت، وقصة أصحاب الأخدود، وغيرها. و لم أجد هذه القصص الصادقة في الكتاب المقدس مع أني تتبعت وتَفَصَّحْتُ بقدر مقدرتي ووسعي، والعلم عند الله، ويحق لنا أن نقول للملة المسيحية: شعر:

اندکے باتو بگفتیم و بدل ترسیدیم   کہ دل آزردہ شوی ورنہ سخن بسیار است

---

(١) الأنفال، الآية: ٧.

(٢) القمر، الآية: ٤٥.

(٣) الفتح، الآية: ١٨.

(٤) القمر، الآية: ٤٤- ٤٥.

معجزاته صلى الله عليه وسلم في ضوء القرآن الكريم

ومما يشهد شهادة قوية على نبوته: معجزاتُه صلى الله عليه وسلم، وهي كثيرة، وها أنا اذكر بعض معجزاته مما ورد في القرآن الكريم.

المعجزة الأولى: المعراج

واقعة المعراج التي وردت في القرآن والأحاديث، وأنكرها المسيحيون، فعموا وصمّوا ـ خذلهم الله ـ. والقصة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عُرِجَ به إلى السموات وما فوقها إلى ماشاء الله في اليَقَظَة بجسده المبارك. قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.(١)

دلت هذه الآية على إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (في يروشلم) في جزء من الليل، وثبت عروجه إلى السموات بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾.(٢)

وسَرْدُ هذه القصة على وجه التفصيل في كتب الأحاديث والسيرة، ونذكرها على وجه لا يفضي إلى التطويل. قال ابن هشام: فكان ابن مسعود فيما بلغني يقول: أُتِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق، وهي الدابة التي كان تُحمَل عليها الأنبياء قبله، تضع حافِرَها في منتهى طرفها، فحمِل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلى بهم، ثم أتي بثلاثة

---

(١) الإسراء، الآية: ١.

(٢) النجم، الآية: ١٣-١٥.

آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سمعت قائلاً يقول حين عُرِضَتْ علي: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغَوَت أمته، وإن أخذ اللبن هُدِيَ وهُدِيَتْ أمته. قال: فأخذت إناء اللبن فشربت منه». فقال لي جبريل: هُدِيَتْ وهُدِيَتْ أمتُك يا محمد.[١] ثم عرج به إلى السماء الدنيا والسموات الأخرى وإلى ماشاء الله، ورأى ما رأى كما هو مسطور في أوراق الحديث والتاريخ، وتفصيل الروايات في تفسير ابن كثير في ذيل الآية الماضية فليراجع، فإنه نفيس ثمين ينبغي أن يعلق على أجياد الأذهان وأردان القلوب.

وهذه معجزة عظيمة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، فإن إسراءه صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس، ثم إلى ما شاء الله من السموات كرامة عظيمة، و دليل بين، وحجة نيِّرة على نبوته.

المعراج كان بالجسد والروح معاً

والمعراج بالجسد والروح عند الجمهور، فإن صعود الجسم إلى السموات وإسرائه معجزة، وإليه ذهب الجمهور.

قال العلامة ابن قيم رحمه الله تعالى: أسريَ برسول الله بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكباً.[٢]

وقال العلامة ابن كثير: ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسريَ ببدنه وروحه يقظة، لا مناماً. ولا ينكرون أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٩٧.

(٢) زاد المعاد ٣/٢٨.

قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه كان عليه السلام لا يري رؤياً إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح.(١)

فمسلك جمهور أهل السنة أنه بالجسد في اليقظة، وهو المروي عن عمر، وأبي هريرة، وجابر، وابن عباس، وأنس، ومالك بن صعصعة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، والزهري، والحسن، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، وأحمد بن حنبل.(٢) وأقاموا عليه دلائلَ:

الأول: قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الآية.(٣) كلمة سبحان للتعجب، والتعجب يكون عند الأمور العظام، والصعود بالجسد هو الأمر العظيم والخَطْبُ الجليل.

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ والعبد يطلق على الروح والجسد معاً، فالإسراء كان بهما. والإسراء مذكور في القرآن في مواقع متعددة، وأريد به الإسراء بالجسد والروح معاً كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.(٤) وإسراءهم كان بالأجساد. وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾.(٥) والمراد به الإسراء بالأجساد كما لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد.

الثالث: الأحاديث الكثيرة شاهدات صدق على أنه كان بالجسد، فإنه جاء فيها شرب اللبن، وركوبه على البراق، وغيره، وكل ذلك لا يكون إلا بالجسد.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٥.

(٢) مرام الكلام، ص٤٣ لعبد العزيز الفرهاروي. وترجمان السنة ٣/٤٦١.

(٣) الإسراء، الآية: ١.

(٤) الشعراء، الآية: ٥٢.

(٥) هود، الآية: ٨١ .

الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.[١] وقال عز وجل قبل ذلك: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.[٢]و يدل هذا على أنه واقع بالبصر والفؤاد، ويشير إلى أن البصر لم يمل عن مشاهدة الحق ولم ينقبض.

وقال البعض: كان المعراج بالروح فقط (هذا مذهب المعتزلة) ويعزى هذا القول إلى عائشة رضي الله عنها، ومعاوية رضي الله عنه. واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها الذي رواه ابن إسحاق قال: وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أسريَ بروحه. قال ابن إسحاق: وحدثنا يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة.[٣]

ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ الآية.[٤] حيث أطلق عليه الرؤيا وهي تكون في المنام.

ويستدلون بالمعقول حيث يقولون: لا يمكن الخرق والالتئام في السماء، ولو أمكن بالفرض، فبيننا وبين السماء طبقة نارية لا يمكن النفوذ فيها إذ يحترق فيه الإنسان. والجسم مع ثقله كيف عرج به إلى السماء!

والجواب عن الأول: أن هذه الرواية منقطعة، فإن بعض آل أبي بكر مجهول في الرواية من هو وأين هو؟ على أنه قال بعض العلماء: إنه موضوع. قال ابن دحية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها. وقال في معراجه الصغير: قال إمام الشافعية أبو

(١) النجم، الآية: ١٧.

(٢) النجم، الآية: ١١.

(٣) سيره ابن هشام، ص ٣٩٩-٤٠٠.

(٤) الإسراء، الآية: ٦٠.

العباس بن سريج: هذا حديث لا يصح، وإنما وضع رداً للحديث الصحيح.(١) وعلى فرض صحته نقول: لم تكن عائشة حينئذ مع رسول الله، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دخل بها في المدينة بعد الهجرة، وواقعة المعراج كانت قبل الهجرة.

والجواب عن الثاني أن رواية معاوية رضي الله عنه ضعيفة منقطعة؛ فإن يعقوب لم يلق معاوية، فصارت الرواية منقطعة.(٢) على أنه رضي الله عنه لم يكن مسلماً عند وقوع المعراج.

وعن الثالث: أن المراد من الرؤيا رؤيا العين، كما فسره ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد جاء إطلاق الرؤيا على رؤية العين، ففي«لسان العرب» قال ابن بري: وقد جاءت الرؤيا في اليقظة. قال المراعي (وهو من شعراء الجاهلية):

فكبّر للرؤيا وهَشَّ فؤاده   وبشّر نفسا كان قَبلُ يلومها

وقال المتنبي: ورؤياك أحلى في العيون من الغمض. وعليه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.(٣) وقيل في تفسير الآية: أن المراد بالرؤيا رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه عليه السلام دخل مكة، فصَدَّه المشركون وافتتن بذلك ناس، وهذا هو المراد بقوله: ﴿فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ كما هو المذكور في كتب التفاسير.(٤)

والجواب عن قولهم: «لا يمكن الخرق والالتئام» أنه ليس عندهم دليل قوي على امتناع الخرق، فالله الذي خلق السماء وما عليها والعرشَ والكرسيَّ أليس بقادر على خرقها؟ بل النصارى الذين ينكرون معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم

(١) التعليق الصبيح ١٣٧/٧.

(٢) كذا في قصص القرآن لمولانا حفظ الرحمن السيوهاروي ٣٤١/٤-٣٤٢.

(٣) لسان العرب ٢٩٧/١٤. الإسراء، الآية: ٦٠.

(٤) التعليق الصبيح ١٣٧/٧.

قائلون بصعود بعض الأفراد إلى السماء، ففي إنجيل مرقس: «ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله».(١) وفي الملوك الثاني: «وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء أن إيليا واليشع ذَهَبَا من الجلجال».(٢) قال آدم كلارك في شرح هذا المقام: «لا شك أن إيليا رفع إلى السماء حياً ».(٣)

والجواب عن قولهم: «إن الجسد العنصري مع ثقله كيف رفع إلى السماء وعرج به»، إن هذا ممكن، بل هذا أقرب إلى الفهم في الزمان الذي كثرت فيه الآلات الْمحيرة للعقول، وترقّى فيه العلم الطبيعي، ووصل إلى منتهاه، فنرى الطائرات جوَّالةً في قلب الفضاء.

والجواب عن قولهم: «إن تحت السماء عناصر مختلفة كعنصر النار والطبقة الزمهريرية التي هي في غاية البرودة»، أن الله قادر على حفظ الجسم في هاتين الطبقتين، والله خلق في هاتين الطبقتين الحرارة والبرودة، وهو قادر على سلبهما، كما حفظ إبراهيم عليه السلام في النار، وجعل النار عليه برداً وسلاماً. والحرارة ليست من لوازم ذاتها، على أنه هنا رأي اليونانيين فقط، وإثباته أصعب من خَرْط القَتاد، ولن يأتوا عليه ببرهان إلى يوم التناد.

وذكر مولانا رحمة الله الكيرانوي واقعة عجيبة لا تخلو عن استطراف وفائدة، قال: قال جواد بن ساباط في البرهان السادس عشر من المقالة الثانية من كتابه: أن القسيس كياروس سألني في حضور المترجمين: ماذا يعتقد المسلمون في معراج محمد صلى الله عليه وسلم؟ قلت: إنهم يعتقدون أنه من مكة إلى يروشلم، ومنه إلى السماء. قال: لايمكن صعود الجسم إلى السماء. قلت: سألت بعض المسلمين عنه،

(١) مرقص، ص١٦،آية ١٩.
(٢) ملوك ثاني، ص٢، آية ١.
(٣) إظهار الحق ٢/٢٨٥.

فأجاب أنه يمكن كما أمكن لجسم عيسى عليه السلام قال القسّيس: لِمَ لَمْ تسئل بامتناع الخرق والإلتئام على الأفلاك؟ قلت: استدللت به، لكنه أجاب أنهما ممكنان لمحمد صلى الله عليه وسلم كما كانا ممكنين لعيسى عليه السلام. قال القسيس: لِمَ لَمْ تقل: إن عيسى عليه السلام إله، له أن يتصرف ما يشاء في مخلوقاته؟ قلت: قد قلت ذلك، لكنه قال: إن ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ باطلة؛ لأنه يستحيل أنه يطرأ على الله علامات العجز كالمضروبية والمصلوبية والموت والدفن .انتهى.(١)

وإذ كان بالجسد، فالظاهر أنه باليقظة، وعليه يدل ظاهر الأحاديث، وماجاء في الحديث: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»٢ معناه صحوت من غمرات مشاهدة اللاهوت والملكوت ورجعت إلى البشرية، أو المراد اليقظة من نوم بعد الوصول إلى البيت، أو الواقعة متعددة. والله أعلم وعلمه أحكم.

المعجزة الثانية: شق القمر

المعجزة الثانية من معجزاته صلى الله عليه وسلم المتلوة في القرآن معجزة انشقاق القمر، فهذا دليل على نبوة النبي الأنور، المبعوث إلى الأسود والأحمر، أومي إليها في سورة القمر حيث قال عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.(٣) وظهرت هذه المعجزة الباهرة قبل الهجرة بخمس سنين. قال نابغة عصره وعلامة دهره الشيخ الآلوسي: فذلك على عهد رسول الله قبل الهجرة بنحو خمس سنين.(٤) حين طلب الكفار المعجزة من النبي صلى الله عليه وسلم في مجتمع، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بإصبعه إلى القمر، فانشق قطعتين، وهذا ثابت بالتواتر.

---

(١) إظهار الحق ٢/٢٨٧.

(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفي ١/١٨٨.

(٣) القمر، الآية: ١، ٢.

(٤) روح المعاني ٢٧/٧٤.

قال الحافظ ابن كثير: قد كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.[١]

وأخرج البخاري قال: انشق القمر على عهده فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشهدوا».[٢] وعن عبد الله رضي الله عنه قال: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، فصار فرقتين، فقال لنا: «اشهدوا اشهدوا».[٣] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر.[٤]

وتفصيله إنه انتهى أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد! قل لأهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية، فأخبرهم رسول الله بمقالة جبريل، فخرجوا ليلة أربع عشرة، فانشق القمر نصفين: نصفاً على الصفا، ونصفاً على المروة، فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها، ثم أعادوا النظر فنظروا، ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا: ما هذا إلا سحر. فأنزل الله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.[٥]

فشهدت الأحاديث المذكورة على أن القمر انشق على عهده المبارك اتماماً للحجة على الكفرة الجاحدين، ورآه الصحابة المشهود لهم بالخير، ولم يَرْوِ هذه الواقعة واحد منهم فقط، بل رواه عشرة من الصحابة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٨٠.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري ٢/٧٢١.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري ٢/٧٢١-٧٢٢.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري ٢/٧٢٢ .

(٥) القمر، الآية: ١. روح المعاني ٢/٧٥.

النقد على بعض الناس حيث يقولون: الانشقاق يكون فيما يأتي عند قيام الساعة

والانشقاق وقع فيما مضى ولا يتعلق بما يأتي، تدل عليه النصوص الآتية أولاً وثانياً: قوله تعالى: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.[١] فإنه صيغة ماضٍ، و«قد» ـ كما في قراءة حذيفة: قَدْ انْشَقَّ الْقَمَرُ ـ للتحقيق في الزمان السالف. وثالثاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾.[٢] فإطلاق السحر عليه يدل على وقوعه؛ لأن الكفار كانوا يسمون المعجزات بعد وقوعها سحراً عِناداً منهم وجحوداً. ورابعاً قوله: ﴿يُعْرِضُوا﴾ فإن الإعراض إنما يكون عما وقع وحدث، فعلم أن هذا وقع ثم أعرضوا عنه أي لم يؤمنوا كما وعدوا.

ويقول بعض أهل الباطل ومنهم المسيحيون: لم يتشرف جو السماء بهذه المعجزة المباركة. قال في «منحة القريب المجيب»: قال النصراني في «مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن»: ومن المحال يستفظعه العقل مثل ما حكي عن انشقاق القمر.[٣] لعل الاستفظاع لاستلزامه الخرق والالتئام في الأجرام السماوية، ولأنه لو وقع لأدرجه أهل السير في كتبهم، وأرصَدَه أهل الرصد، فإنهم كانوا يحفظون مثل هذه النوادر، ولأنه لو وقع لرآه من هو خارج عن مكة، وهذه الأمور لا تثبت عندهم حتى يلج الجمل في سم الخياط. ويقولون: معنى قوله عز وجل: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ سينشق أي عند ما يقرب قيام الساعة. وجميع هذه الدلائل أضعف من نسج العنكبوت.

أما قولهم: «لاستلزامه الخرق والالتئام»، فليس هذا أول نغمة تغنَّوها في الطنبور، فقد مر منا أن هذا قول اليونانيين، لا اعتداد بهم في مثل هذا العهد الذي

---

(١) القمر، الآية: ١.

(٢) القمر، الآية: ٢.

(٣) منحة القريب، ص١٧٠.

يرى فيه انشقاق الكواكب كل يوم. وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.[١] والعجب كل العجب من إنكار المسحيين واستحالتهم ذلك، مع أن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء بجسده، وكذا غيره، فهل كان صعودهم ونفوذهم بغير خرق في الأجرام السماوية، أم كان الخرق جائزا لهم ممنوعاً لغيرهم؟ قال القسيس وليم إسمت في كتابه المسمى «طريق الأولياء» في بيان حال أخنوخ الرسول الذي كان قبل ميلاد المسيح بثلاث آلاف سنة وثلثمائة واثنتين وثمانين سنة: «إن الله نقله حيًّا إلى السماء لئلا يرى الموت كما هو مرقوم أنه لم يوجد؛ لأن الله نقله، فترك الدنيا من غير أن يحمل المرض والوجع والألم والموت، ودخل بجسده في ملكوت السماء ». انتهى.[٢]

والجواب عن قولهم: «لو وقع لحكاه أهل السير في أسفارهم»، أن ذلك ليس بلازم، فإن كثيرا من الوقائع والنوازل مذكورة في التوراة والإنجيل، و لم يتعرض لها المؤرخون كطوفان نوح، قال في سفر التكوين: «ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان».[٣] قال ابن خلدون في تاريخه: اعلم أن الفُرْس والهند لايعرفون الطوفان، وبعض الفرس يقولون: كان ببابل فقط.[٤] فما كان جوابكم عن إنكار أهل الفارس والهند هذا الطوفان، فهو جوابنا.

وكذا واقعة وقوف الشمس ليوشع عليه السلام مذكورة في يشوع، قال: «حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل، وقال إمام

(١) الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) إظهار الحق ٢/٢٨٤-٢٨٥.

(٣) سفر تكوين، ص٧، آيت: ٦-٧.

(٤) إظهار الحق ٢/٢٩٠.

عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه». أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر: «فوقفت الشمس في كبد السماء، و لم تعجل للغروب نحو بوم كامل».[١]

وهذه الواقعة لم ترقم في كتب التاريخ، بل يستهزء به بعض المسحيين ويقولون: هذا يدل على أن الشمس متحركة، وهذا يخالف ما عليه المحققون الطبيعييون اليوم من سكون الشمس.

وكذا واقعة انشقاق الهيكل، وزلزلة الأرض، وتشقّق الصخور مذكورة في إنجيل متى .[٢] مع أن المؤرخين صامتون عنها.

وبالجملة عدم ذكرها لا يدل على عدم وقوعها، بل ربما لم يذكروها لغفلتهم، فإن الإنشقاق كان بالليل وهو وقت الدعة والنوم. أو لِعنادهم وكفرهم وجحودهم، فإن من يتصدى لتخريب أصول الإسلام كيف يضع مثل هذه الأمانة في خزائن أوراقه، فإن في هذه الواقعة تعظيماً واجلالاً لِمحمد صلى الله عليه وسلم. أو لعدم اهتمامهم بجمع هذه الحوادث الفلكية أشد إهتمام كما يهتم في هذا الزمان، على أنه لا يمكن أن يراه جميع أهل الأرض لاختلاف المطالع، فإنا لو فرضنا أن الانشقاق وقع وقت الساعة التاسعة يكون في فرنسا الساعة السادسة، وفي الصين الساعة الثالثة والدقيقة العشرون بعد الظهر، وفي الهند الساعة الثانية عشر ساعة والدقيقة الثلاثون من الليل.[٣] فلا يلزم من رؤية الانشقاق في بلد أن يرى في بلد آخر، ثم ينمق في تاريخ أهل الأرض.

ثم قولهم « لم يُحكها أهل السير في أسفارهم» غير صواب، فقد وجدنا له ذكراً

---

(١) يشوع، ص١٠، الآية: ١٢-١٤.

(٢) متى، ص٢٧، الآية: ٥١-٥٣.

(٣) رحمة للعالمين ٣/١١٥.

في كتب التاريخ القديمة. ذكروا أن مِلك مالبار في الهند رأى انشقاق القمر فأسلم، وأمر بكَتْبه وضبطه في يوميَّته (دفتر الْمَحفوظات).(١)

وذكر الشيخ العلامة عبد الحق الحقَّاني في تفسيره ما حاصله: اشتهر هنا خبر ملِك «بهوج» بين سُكّان دهلي، ويغلب على ظني أن له ذكراً في تاريخ من تواريخ الهنود الذي دُوِّن في عهد «بهوج» مشتمل على بيان أحوال مملكته. والقصة أن بهوج كان جالساً على سقف بيته فرأى انشقاق القمر فتحيّر منه، وسأل عنه علمائَه، فأخبروه ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبصدور هذه المعجزة على يديه، حسَب ما علموه من العلوم المتوارثة فيهم، فأسلم المِلك بالنبي صلى الله عليه وسلم.(٢)

وذُكِر في «تاريخ فرشته» أن انشقاق القمر صار سبباً لإسلام مِلك ماليبار «سامري». والقصة مبسوطة فيها، وإليك فذلكتها:

الرواية الأولى: بعد مرور قرنين من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام سار جماعة من المسلمين وفيهم العرب والعجم يؤمون سرانديب، فمروا بماليبار ونزلوا به، وملِكه يومئذ «سامري» رجل ذو خلق حسن، دعاهم وسألَهم عن الإسلام والنبيِّ الأُميِّ، فذكر له رجل من المسلمين صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر من جملة معجزاته شق القمر، فلما سمع بها قال لأصحابه: لقد جرى من عادة ملكنا كَتْب كل قضية وواقعة حدثت لولي من الأولياء، فإن كان شق القمر حقًّا وجدتموه في دفاترنا. فلما بحثوا في دفاترهم وجدوا فيه مكتوبا: «حدث في تاريخ كذا وكذا أن القمر انفلق قطعتين، ثم التئم» فلما سمع به لم يلبث أن أسلم.

الرواية الثانية: قال المؤلف: لكن الرواية الصحيحة أن سامري رأى انشقاق القمر بنفسه، فبثّ رجالاً في أنحاء العالم ليستفسروا الأمر، فلما أخبِر ببعثته صلى الله

---

(١) راجع: تفسير عثماني، ص١٠٧ للشيخ العلامة المحدث المفسر شبير أحمد العثماني.

(٢) ملخصاً من تفسر حقاني ٣٩٣/٤.

عليه وسلم وظهور هذه المعجزة منه، ركب إلى الحجاز فلقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسلم على يديه، ثم خرج عائداً إلى وطنه فلما وصل «ظفار» في جماعة من المسلمين، مرض مرض الموت وتوفي بها، ـرضي الله عنهـ وقبره هناك معروف يُزار.[١] والله أعلم.

وأما قولهم: «إن الانشقاق لو وقع لرآه الناس في حوالي مكة و لم ينقل ذلك عنهم ». فالجواب عنه **أولاً**: أن عدم رؤيتهم لا يدل على عدم الوقوع للاحتمالات السابقة من الغفلة وغيرها، لا سيما لو كان الزمان زمان الشتاء إذ الناس ملتفون في أَلْحِفَتهم ومضرباتهم قاطنين في بيوتهم.

وثانياً أن الانشقاق يحتمل أن يكون وقتاً يسيراً حتى لم يحصل العلم به لأكثر أهل البوادي.

وثالثاً يحتمل أن يكون السحاب، أو الجبال حائلة لا يرى دونها. على أنه روي رؤية الذين جاؤوا من طريق مكة كما رواه أبو داود الطيالسي بسنده قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا: انتظروا ما تأتيكم به السُّفّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السفار، فقالوا ذلك.[٢]

والجواب عن قولهم: «انشق، معناه: سينشق قريب الساعة». إن انشق صيغة ماضٍ وهي حقيقة في الزمان الماضي مجاز في المستقبل، ولا يجوز الحمل على المْجاز ما لم يتعذر الحقيقة، سيما في هذا المقام، فإنه يقتضي أن تحمل على معناه الأصلي للأحاديث الواردة في ذلك، ولقراءة حذيفة رضي الله عنه: قد انشق القمر. فدخول قَدْ لتحقيق الماضي، وعليه أجمع المفسرون.

(١) الموجود عندنا من تاريخ فرشته ترجمته الأردية، راجع: ٥٩٤/٢-٥٩٨، ط: نولكشور، لكنؤ.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي، ص٣٧.

وقد أخطأ بعض من يدعي التحقيق، فزعم أن الانشقاق لم يقع حقيقة، بل رأوه منشقًا كأنما سُكِّرَتْ أبصارهم، فرأوا شيئاً لم يكن في الواقع، يعني أراهم القمر كأنه منشق في أبصارهم، لا في الحقيقة. ويستدلون أولاً بقول أنس رضي الله عنه: فأراهم انشقاق القمر. وثانياً بأن المقصود ارائته إياهم فقط، ولو انشق في الواقع لعمت رؤيته، هكذا فيحمله الناس على أنه أمر اتفاقي طبيعي. وهذا القول بعيد عن الصواب بمراحل بوجوه:

الأول: أن الله تعالى نسب الانشقاق إلى القمر فقال: ﴿انْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فتيقن أن الانشقاق والانفعال وقع في القمر، لا في أبصارهم.

والثاني: ليس من شأن الأنبياء أن يظهروا شيئاً على خلاف ما عليه في الحقيقة، بل يكون هذا شَعْوَذَةً واعتقالاً ونوعاً من السحر. والأنبياء إنما بعثوا ليبينوا لا ليَخْلطوا، وإنما هذا فعل الْمُشَعْوِذ والساحر، والأنبياء منــزهون عنه، ونسبة هذا إلى الأنبياء لا يخلو عن سوء أدب. قال الله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾.[1] يعني ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم حقيقةً وواقعةً.

والثالث: لو اعتمدنا على احتمال الاعتقال، فلقائل أن يقول: إن بكاء الأسطوانة الحنانة لم يكن في الحقيقة، ونبوع الماء من أصابع النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مطابقاً للواقع. وهكذا تصير المعجزات بتمامها موهومة.

الرابع: لو كان هذا اعتقالاً لكان المناسب أن يسمى بإسمه الخاص وهو: الاعتقال وغلط البصر، وحينئذٍ لا يتحقق مطلوبهم. وقول أنس رضي الله عنه: «فأراهم انشقاق القمر»؛ لأن في صدر هذا الحديث سألوا أن يريهم، فهل يظن عاقل أنهم سألوا انشقاقه في نظرهم لا في الحقيقة، كلا! لم يكن مطلوبهم هذا الاعتقال، بل كان مسئولهم شيئين، أحدهما: أن ينشق في الواقع، ويدل عليه لفظ الانشقاق المنسوب إلى القمر، والثاني: أن يلقوا حبال أنظارهم عليه ويتبين عندهم تبين

(١) النجم، الآية: ١٢ .

الشمس في رابعة النهار، فإن لم ينكشف عليهم كان كالجنة والنار، فإنهما موجودان، لكنهم لم يؤمنوا بهما لعدم الرؤية، وإن أخبر بهما الصادق المصدوق عليه السلام، فالمطلوب الانشقاق والإراءة كلاهما؛ ليكون حجة، فلذا قال أنس رضي الله عنه: أراهم، وفي هذه الكلمة تلميح لطيف إلى أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم الإراءة، وأما الانشقاق فهو بخلق الله تعالى، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعي هذا الأمر ويقول: زمام الأمور كلها بيد الله. ويقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾.(١)

وقولهم: «لأن المقصود إراءته أياهم». قلنا: لو كان المقصود إراءتهم فقط لما رآه المسلمون المصدقرن.

وقولهم: «لو عم لوهم واهم أن هذا أمر اتفاقي». أقول: كيف يكون اتفاقياً وقد وقع في جواب سؤالهم، والأجوبة لا تكون اتفاقية. والله أعلم.(٢)

المعجزة الثالثة: رميه كفا من الحصى

والثالث من معجزاته صلى الله عليه وسلم المذكورة في القرآن: رميه بقبضة من التراب في وقعة بدر، ووصولها إلى أعين الكفار كلّهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.(٣)

روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما والأموي عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ يعني في مناشدته ربه ـ: «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً»، فقال له جبريل:

(١) الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) مستفاد من ترجمان السنة للشيخ بدر عالم بزيادة ٤/٧٩.

(٣) الأنفال، الآية: ١٧.

خذ قبضة من تراب. فرمى بها في وجوههم، فما بقي من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه، فولوا مدبرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «احملوا»، فلم يكن إلا الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر، وأنزل الله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾.(١) فرمي قبضةٍ من تراب ووصولها إلى ألف رجل من عسكر الكفار معجزة عظيمة صدرتْ على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن تدبر فيها وتفكر. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.(٢) ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيْلاً﴾.(٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.(٤) ولله العزة ولرسوله ولكن المنافقين والمسيحين لايفقهون. شعر

محمد عربی کا بروی ہر دوسرا است　　کسے کہ خاک درش نیست خاک بر سراوست

هذه نبذة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرت في القرآن، وما وَدَعْنا أكثرُ مما نمقنا، إن هو إلا غُرفة من بحر أو قطرة من بئر، وإلا فمعجزاته في القرآن كثيرة. منها ما ذكرناه في إعجاز القرآن، فإن وجوه إعجاز القرآن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لصدوره على يد من يدعي النبوة كوعد غلبة دينه على سائر الأديان، ووعد الاستخلاف في الأرض، ووعد غلبة الروم على فارس، ووعد دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة ـ زادها الله شرفاً وكرامة ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(٥) وما إلى ذلك مما لا يحصى كثرةً.

---

(١) تفسير المظهري ٤/٣٨-٣٩.

(٢) النور، الآية: ٤٠.

(٣) الإسراء، الآية: ٧٢.

(٤) طه، الآية:١٢٤.

(٥) القصص، الآية: ٨٥.

معجزاته صلى الله عليه وسلم في الأحاديث النبوية

كما تصدى القرآن الكريم لبعض معجزاته صلى الله عليه وسلم، كذا كشفت الأحاديث المباركة الغطاء عن حُجول عرائس معجزاته، وما ثبت بالأحاديث أكثر من أن يحصى، والأحاديث النبوية أقوى سنداً من التوراة والإنجيل الموجودين في أيديهم، فإنه ليس عندهم لهما سند متصل ينتهي منهم إلى أصحاب الكتب، وأما نحن، فيوجد عندنا أسانيد لجميع الأحاديث، لاسيما الأحاديث التي ثبتت في الصحاح الستة، وعندنا محك ومقياس نعرف به الصحيح الثابت من الموضوع المختلَق فنأخذ الصحيح وننبذ الموضوع وراء ظهورنا. وبالجملة فالْمحدثون يأخذون في هذا الباب بالحزم والاحتياط، فالآن نذكر بعض المعجزات المذكورة في الصحاح:

معجزة نبع الماء من تحت أصابعه صلى الله عليه وسلم

أخرجها البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر، فالتمس الناسُ الوَضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله بوضوء، فوضع رسول الله في ذلك الإناء يده، فأمر الناس أن يتوضؤا، فرأيت الماء ينبُع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم.[١] روى هذه الواقعة أحد عشر رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

معجزة نزول المطر

رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله، فبينا هو يخطب يوم جمعة إذ قام رجل، فقال: يا رسول الله! هلكت الكُراع وهلكت الشَّاءُ، فادع الله يَسقينا. فمدّ يديه ودعا. قال أنس: وإن السماء

(١) الجامع الصحيح للبخاري ١/٥٠٤.

لَمِثل الزُّجاجة، فهاجت ريح أنشأت سحاباً، ثم اجتمع، ثم أرسلت السماء عزالِيَها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نُمْطَر الجمعة إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله! تهدمت البيوت، فادع الله يحبسه فتبسم، ثم قال: «حوالينا ولا علينا». فنظرتُ إلى السحاب تصَدَّع حول المدينة كأنها إكليل.(١)

معجزة معافاة البصر

أخرجها الترمذي عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني. فقال: «إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك». قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسِن وُضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفِّعه فيّ».(٢)

معجزته صلى اللّه عليه وسلم في دعاء كثرة النسل والمال

ورد فيها ما أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت بي أمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزَّرتني بنصف خمارها ورَدَّتني بنصفه فقالت: يا رسول الله هذا أُنَيس ابني أتيتك به يَخْدُمك، فادع الله له، فقال: «اللهم أكثر مالَه وولده». قال أنس: فو الله إن مالي لكثير، وإن ولدِي وولدَ ولدِي ليتعادُّون على نحو المئة اليوم .(٣)

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ٥٠٦/١.

(٢) سنن الترمذي ١٩٨/٢.

(٣) الجامع الصحيح لمسلم، باب من فضائل أنس بن مالك، ٢٩٨/٢.

معجزته صلى الله عليه وسلم في سوخ فرس سراقة بن جعشم في الأرض

رواه البخاري في حديث طويل وفيه: فركبت فرسي، وعصيت الأزلام تقرِّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبوبكر يكثر الالتفات، ساخَتْ يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضتْ، فلم تكد تخرج يديها. إلى آخر ما ساق الحديث.[١] ذكر في هذا الحديث سوخ الفرس ثلاثَ مرات، فلم تَجْرِ حتى عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يأخذه ولا يخبر به أحداً.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم أنه عليه السلام أخبر عن الحسن رضي الله عنه أن ابني هذا سيد سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.[٢] فكان هكذا أصلح الله به بين فئة معاوية رضي الله عنه، وفئة أبيه علي رضي الله عنه بأن فوض الأمر إلى معاوية رضي الله عنه، وصار خليفة مجمَعاً عليه. وقال عليه السلام لسعد رضي الله عنه لعلك أن تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون.[٣] فكان كما أخبر. وأخبر عليه السلام بكتاب حاطب بن بلتعة إلى أهل مكة.[٤] وأخبر عن مصارع أهل بدر،[٥] وغير ذلك. فهذه المعجزات اللامعات البينات دلائل واضحة على صدق نبوته. وقد ثبتت هذه الآيات بروايات صحيحة نقلت إلينا من رجال ثقات موصوفين بالصدق والعدل والحفظ والإتقان والتقوى والإخلاص، وأدرِجت في كتب الأحاديث والآثار، ووُعِيت في خزائن الأخبار، ونظمت في قلائد الأزهار.

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ١/٥٥٤.
(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي... رقم:٢٥٠٥.
(٣) الجامع الصحيح للبخاري، باب رثاء النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة، رقم: ١٢١٣.
(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب فضل من شهد بدرا، رقم:٣٦٨٤.
(٥) الجامع الصحيح لمسلم، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه...، رقم:٥١٢٠.

قال بعض المسيحين اعتراضاً على الأحاديث: إن هذه روايات لسانية لا اعتداد بها ولا اعتماد، فإن اللسان يزلق ويخطأ. فنقول: يجب عليها الاعتماد إذا نقلت عن الثقات، على أن الروايات اللّسانية معتبرة عند أهل الكتابين كما قال آدم كلارك في شرح ديباجة كتاب عزرا في المجلد الثاني من تفسيره المطبوع سنة ١٧٥١م: «قانون اليهود كان منقسما على نوعين، مكتوبا ويسمّونه التوراة، وغير مكتوب ويسمّونه الروايات اللّسانية التي وصلت إليهم بواسطة المشايخ، ويدعون أن الله كان أعطى موسى كلا النوعين على جبل الطور فوصل إلينا أحدهما بواسطة الكتابة، وثانيهما بوساطة المشايخ بأن نَقَلوها جِيلاً بعد جيل، ولهذا يعتقدون أن كليهما مساويان في المرتبة، ومن جانب الله، وواجب التسليم، بل يرجحون الثاني ويقولون: إن القانون المكتوب ناقص مُغلَق في كثير من المواضع، ولا يمكن أن يكون أصل الإيمان على الوجه الكامل بدون اعتبار الروايات اللسانية».(١)

هذه هي عقيدة اليهود المسطورة في زبرهم، والنصارى أيضاً يعتقدون هذا ويعتبرون الروايات اللّسانية؛ قال يوسى بيس - الذي تاريخه معتبر عند علماء كاتلك وبروتسنت - في الباب التاسع من الكتاب الثاني من تاريخه المطبوع ١٨٤٨م في الصفحة ٨٧ في بيان حال يعقوب الحواري: «إن كليمنس نقل هذه الحكاية عن الروايات اللّسانية التي وصلت إليه من الآباء والأجداد».(٢)

قال وليم ميور في الباب الثالث من تاريخ كليسا المطبوع ١٨٤٨م: «القدماء المسيحية ما كان عندهم عقيدة مكتوبة من عقائد الإيمان التي اعتقدوها ضروريّاً للنجاة، وكانت تعلم للأطفال، والذين كانوا يدخلون في الملة المسيحية تعليماً لسانياً، وهذه العقائد كانت متحدة قرباً وبعداً، ثم لما ضبطوها بالكتابة وقابَلوها،

---

(١) إظهار الحق ١٦٨/٢.

(٢) إظهار الحق ١٧٥/٢.

وجدوها مطابقة، وما وجدوا فيها غير الاختلاف القليل اللفظي، وما كان فرق في أصل المطالب.[١]

فاستخلص أنهم يعتبرون رواياتهم الجارية على الألسنة مع أن رواياتهم منقطعة في البين لوقوع الآفات العظيمة بعد موسى عليه السلام على بني إسرائيل من بخت نصر، وانيتوكس، وطيطوس، وغيرهم.

(١) إظهار الحق ٢/١٩٤.

بشارات النبيين السابقين عليهم الصلاة والسلام بنبوة سيد المرسلين من الكتاب المقدس

من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بشائر النبيين السابقين في الكتب السابقة، وقد نبه القرآن الكريم والأحاديث النبوية على أن الأنبياء بشّروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.(١) وقال عز وجل: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.(٣) ولهذا بين الله تعالى في كتابه: أنهم يعرفون أنك رسول الله لوجود العلامات التي بُيِّنَت في كتبهم في ذاتك الشريفة، ولكن لا يؤمنون عناداً. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.(٤) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى اتباعه، وينكرون ذلك، ثم يحتج عليهم ويقول: انظروا في كتبكم وما فيها من الشهادات على نبوتي. فلو كان هذا الإعلام كذباً لكذّبوه بلا تأمل، وهم أشد تفحصاً له. وكثير من علماءهم أسلموا لهذه الشهادات كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما من اليهود والنصارى. وقد كانوا يستفتحون به قبل بعثته، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

---

(١) الصف، الآية: ٦.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) الشعراء، الآية: ١٩٧.

(٤) البقرة، الآية: ١٤٦.

ولنذكر بعض بشارات الأنبياء بظهور سيدنا خاتم النبيين والمرسلين من كتبهم المْحرفة، فإنهم وإن حرفوا كتبهم، ومَحَوا عنها اسم النبي صلى الله عليه وسلم، لكن بقي فيها ما يرمُز إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويشير إلى رسالته.

البشارة الأولى

البشارة الأولى من التوراة: عبارتها هكذا «قال لي الأب: قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون: إن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه، وأما النبي الذي يطغى، فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك: كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب و لم يَحْدُث و لم يَصِر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي، فلا تخف»[١].

قد ظهر من هذه البشارة أمور:

الأول: كون النبي المبشر به من إخوة بني اسرائيل.

الثاني: كونه مثل موسى عليه السلام.

الثالث: كون كلام الله في فمه.

الرابع: أن من لا يعمل بشريعته ينتصر منه وينتقم.

الخامس: أن النبي الذي لا يتكلم بالحق يقتل.

السادس: أنه يخبر عن المغيبات وتقع كما أخبر بها.

هذا ما يستنبط من هذه الآيات، فاحفظه.

ثم أهل المذاهب في هذه البشارة ثلاث فرق: اليهود يطبقونه على يشوع عليه السلام. والنصارى يطبقونه على عيسى عليه السلام. والمسلمون ـ كثّرهم الله تعالى

(١) سفر استثناء، ص١٨، الآية: ١٨-٢١.

وأبعَدَهم من الرفض والضلال ـ يطبِّقونها على أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحق الأليق بالقبول.

إذا علمت هذا فاعلم أنه لا ينطبق على يوشع عليه السلام لوجوه:

الأول: أنه جاء فيها «سوف أقيم» وهي للاستقبال، فعلم أن المبشَّربه يأتي في المستقبل، ويوشع عليه السلام كان موجوداً في زمن موسى عليه السلام وكان صاحباً له.

الثاني: جاء فيها «أقيم لهم من وسط إخوتهم». وهذا يدل على أن المبعوث لا يكون من بني إسرائيل، بل من إخوتهم، وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل. ويوشع عليه السلام كان من بني إسرائيل. ولا يقال: «فلان من إخوتهم» إذا كان من قبيلتهم بل يقال: «فيهم»، أو «منهم». قال الله تعالى في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.(١) والظاهر أن المضاف يغائر المضاف إليه، فالإخوة غير بني إسرائيل، وجاء استعمال الإخوة لغير القبيلة كما جاء في شأن بني عيسو وبني إسحاق: «وسكنوا (بنو إسماعيل) من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل».(٢) أطلق لفظ الإخوة على بني إسحاق وعيسو، لا على بني إسماعيل. وإذا كان فرد من جيل آخر فقد يقال: «هو من إخوتهم»، لكن لا يقال لشعب داخل قبيلة: «هو من إخوتهم». فلا يقال: «بنو هاشم من بني هاشم»، فكيف يقال لبني إسرائيل: «هم من إخوة بني إسرائيل».

الثالث: أنه وقع في هذه البشارة «أجعل كلامي في فمه» إشارة إلى إنـــزال

(١) آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) تكويه، ص٢٥، الآية: ١٨.

الكتاب والشريعة عليه، وذا لا يَصدُق على يوشع عليه السلام؛ لأنه لم يكن صاحب كتاب وشريعة.

الرابع: أنه قيل في هذه البشارة: «مثلك». ويوشع عليه السلام لم يكن مثل موسى؛ لأنه جاء في التوراة ما حاصله أنه لم يجيء في بني إسرائيل نبي واجَهَ الربَّ وعرفه مثل موسى.[1] على أن يوشع عليه السلام كان تلميذ موسى عليه السلام، لا مثله.

وهكذا لا ينطبق على عيسى عليه السلام كما يقول المسيحيون؛ لأن فيها «مثلك»، وعيسى عليه السلام لم يكن مثل موسى عليه السلام؛ لأنه بزعمهم إله. وموسى عليه السلام عبد ورسول، وموسى عليه السلام صاحب قتال وجهاد ووضوء وطهارة وختان وطلاق وحدود وتعزيرات، وعيسى عليه السلام لم يكن كذالك بزعمهم الباطل الزائل. ولأنه من بني إسرائيل، لا من إخوتهم كما مر، ولأنه وقع فيه «إن لم يطع كلامه يطالبه الأب»، والظاهر أن المراد مطالبة الدنيا؛ لأن مطالبة الآخرة لا تختص به؛ بل توجد في جميع الأمم. و لم توجد المطالبة والانتقام في شريعة عيسى عليه السلام: لا من الكفار لعدم الجهاد عندهم كما سيجيئ تفصيلاً، ولا من المصدقين الذين لا يطيعونه في الأحكام لعدم وجود الحدود والتعزيرات في دينه، فعلم أنه ليس بمراد. ولأن البشارة تنبِئُ أن الذي يكون متنبِّئاً يُقتل، ويفهم من طريق المفهوم المخالف أن النبي الحق لا يقتل، لكنه قُتِلَ ـ بزعمهم ـ، فلم يكن حقاً. وترتيب القياس الاستثنائي هكذا: كل من كان نبياً حقا من الله فهو لا يقتل، لكن من قُتِل، ينتج: فهو لا يكون نبياً حقاً، فإن استثناء رفع التالي ينتج رفع المقدم كما تقرر عند المناطقة.

ولا يراد بهذه البشارة شمويل عليه السلام، كما يقول بعض اليهود؛ لما مر من الوجوه في يوشع عليه السلام وعيسى عليه السلام، ولا على المنتظر الموعود الذي

---

(١) سفر استثناء، ص٣٤، الآية: ١٠.

ينتظره اليهود؛ لأن النبوة قد خُتِمَت على محمد صلى الله عليه وسلم، و لم يدَّع أحد النبوةَ بعده إلا عارضتْه الأمم ونابذوه وأشاعوا كفره وكِذبه، حتى المسيحيين بارزوا المرزا غلام أحمد القادياني المتنبئ، وصنّفوا في رده كتباً ورسائل.

وهذه الآيات كلها توجد في النبي صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه وأتم طريق، فمحمد صلى الله عليه وسلم من إخوة بني إسرائيل، إذ هو من بني إسماعيل، وهم إخوة بني يعقوب أي بني إسرائيل، وهذا أوضح من جهل النصارى، لا ينكره إلا متعصب أو متجاهل. وهو مثل موسى عليه السلام، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾.(١) فمحمد صلى الله عليه وسلم مثل موسى عليه السلام في الشريعة، والأحكام كالقصاص، والحدود، وقانون الجزاء، وتحريم الخمر، وإباحة الطلاق، والنكاح، والجهاد، واشتراط الطهارة للصلاة، والختان، وغيرها. فإن هذه الأمور كما هي موجودة في الشريعة الموسوية كذلك موجودة في الشريعة المصطفوية على صاحبها ألف ألف تحية. وألقى الله تعالى كلامه عليه بالوحي، وهو القرآن الْمجيد بواسطة جبريل عليه السلام بخلاف عيسى عليه السلام، فإنه أعطي كتاباً مكتوباً من عند الله لا بالوحي، فهذا أتم وأكمل تطبيقاً على رسولنا صلى الله عليه وسلم. ومن لا يطيعه ولا يتبعه إن كان على سبيل الإنكار والفساد يجاهَد ويقاتَل، وإن كان مقصراً في العمل مفرطاً فيه يُحَدُّ، أو يعزّر بحسب اختلاف المعاصي.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا بالحق كما جاء في البشارة، وإليه يشير الحديث، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في جواب رجل: «إن هذا الفم لا يخرج منه إلا الحق».(٢) وقد اعترف به الخصماء المخالفون حيث لقّبوه بالصادق الأمين. وأخبر عما مضى وعما يجيء، فكل ذلك وقع كما أخبر، انظر إلى

---

(١) المزمل، الآية: ١٥.

(٢) روى معناه أبوداود ، باب في كتابة العلم، رقم: ٣٦٤٨.

قوله عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى».[١] وقد صدق هذا الإخبار بعد ٦٥٤ سنة إذ خرجت نار من جبل في أول يوم من الجمادي الأخرى، ثم وقعت الزلزلة في اليوم الثاني، واشتدت في اليوم الثالث، وسُمِع في اليوم الرابع صوت الرعد، وفي اليوم الخامس انتشر الدخان فيما بين السماء والأرض، وارتفعت شعل النار في الفضاء وانتهت إلى جانب المدينة، وأهل المدينة باتوا في المسجد النبوي وتضرَّعوا ودعوا الله القادرَ العزيزَ الجبارَ، ثم انطفأت النار.

قال القرطبي في التذكرة: قد خرجت نار بالحجاز بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الأخرى سنة أربع وخمسين وست مئة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في ضوئه البلد العظيم، عليها سور محيط، عليه شراريف وأبراج ومآذن، ويرى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر: أحمر وأزرق، له دوي كدوي الرعد، يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد. وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر.[٢]

قال النووي: وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وست مئة، وكانت ناراً عظيمة جداً خرجت من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة. تواتر العلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.[٣]

(١) الجامع الصحيح للبخاري ١٠٥٤/٢.

(٢) فتح الباري ٧٩/١٣.

(٣) شرح النووي على الصحيح لمسلم ٢٣٥/٢-٢٣٦.

البشارة الثانية

قال في استثناء: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم».[(١)]

المراد بـــ «مجيء الرب» مجيء وحيه وشريعته، و«سينا» جبل نزل فيه الوحي على موسى عليه السلام. و«سعير» جبل بقرب ناصرة مولد عيسى عليه السلام، والمراد بـــ «فاران» هو مكة المكرمة ـ حفظها الله من الفتن والْمحن ـ؛ لأن إسماعيل عليه السلام وأولاده سكنوا بمكة، وهذا لا ينكره إلا مجنون. وقد جاء أن مسكنهم فاران، فهو مكة.

وقال في صموئيل: «ومات صموئيل، فاجتمع جميع بني إسرائيل ودفنوه في بيته في الرامة، وقام داود ونزل إلى برية فاران».[(٢)] وقال داود في موضع آخر: «إني ساكن في خيام قيدار».[(٣)]

فتحققت منه مقدمتان، إحداهما: أن داود نزل فاران، وثانيتها: أن فاران مسكن قيدار. وههنا مقدمة ثالثة معلومة وهي أن قيدار من أبناء إسماعيل الذين هم أهل مكة، فيكون القياس مفصول النتائج هكذا: داود نزل فاران، وفاران مسكن قيدار، ينتج داود نزل مسكن قيدار، ثم انضمّ إليها قيدار من بني إسماعيل الذين هم أهل مكة، ينتج: نزل داود إلى بني إسماعيل الذين هم أهل مكة، فصار نزول داود إلى فاران ونزوله إلى مكة واحداً؛ لأنهما شيء واحد.

---

(١) استثناء، ص٣٣، الآية ٢.

(٢) حموئيل اول، ص٢٥، الآية: ١.

(٣) زبور مرموز، ١٢٠.

وفي سفر التكوين: «وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر».(١)

هذا، قيل: يدل على أن مسكن إسماعيل في فاران، ومعلوم أن مسكنهم مكة، ففاران هو مكة. فالجملة الأولى أي «جاء الرب من سيناء» إشارة إلى شريعة موسى عليه السلام، ووحيه، والجملة الثانية أي «أشرق من سعير» إلى وحي عيسى عليه السلام وشريعته. والثالثة أي «تلألأ من فاران» إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ارتياب. وقوله: «وعن يمينه نار شريعةٍ» إشارة إلى شريعته، ودينه يشتمل على الجهاد، والحدود، وقانون الجزاء.

وفي بعض نسخ الأردية كلمة زائدة، وهي «دس ہزار قدسیوں کے ساتھ آیا». يعني جاء مع عشرة آلاف القدسيين. وعبارته الكاملة هكذا: «اور اس نے کہا کہ خداوند سینا کی طرف سے آیا، اور سعیر سے ان پر طلوع ہوا فاران ہی کے پہاڑ سے وہ جلوہ گر ہوا، دس ہزار قدسیوں کے ساتھ آیا اور اس کے داہنے ہاتھ میں ایک آتشی شریعت ان کے لئے تھی».(٢)

ورواية عشرة آلاف لا توجد في النسخة الأردية الموجودة عندي، بل فيها «اور لاکھوں قدسیوں میں سے آیا» يعني جاء مع مليون قدسيا. ولفظة عشرة آلاف حكاه الشيخ إدريس الكاندهلوي، فلعل يد التحريف امتدت بعد برهة من الدهر إلى لفظة «عشرة آلاف» ليُبهِموا صدق البشارة على النبي صلى الله عليه وسلم. أرادوا ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره.

وبالجملة هذا الكلام يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان معه وقت دخوله عيله الصلاة والسلام مكة ١٠٠٠٠ رجلٍ، كلهم قدسيون يُقَدِّسون الله

---

(١) تكوين، ص٢١، الآية: ٢٠، ٢١.

(٢) بشائر النبيين لمولانا محمد ادريس الكاندهلوي، ص ٢٣.

ويطيعون الله ورسوله النبي الأمي في جميع الأمور، وقد أومض القرآن إلى هذه البشارات الثلاث في هذه الآية ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾.[1] فالتين والزيتون إشارة إلى مولد عيسى عليه السلام؛ لأنهما ينبتان كثيراً في الأرض المقدسة وهي مولد عيسى عليه السلام، وطور سينين هو طور سيناء محل وحي موسى على نبينا وعليه السلام، وهذا البلد الأمين هو مكة، وإنما سمي أمينا؛ لأنه المأمون من القتال والجدال، يحرم فيه الصيد، ولا يقطع شجره، ولا يُختَلى خلاه، ولا يُعضد شوكه كما ورد في الحديث، ويوضحه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.[2]، أو سمي الأمين لحفظه محمداً صلى الله عليه وسلم، فلما اشتدت عليها الحال، واضطربت، وخشي ضياع هذه الأمانة القيمة سَلَّمَتْه إلى موضع آخر، وهي المدينة.

وقد ذكر في التوراة سينا أولاً، وسعير ثانياً، وفاران ثالثاً، وأشير في القرآن إلى سعير أولا، وسينا ثانياً، وفاران ثالثاً؛ لنكتة دقيقة، وهي أن المقصود في التوراة الإخبار عن الوحي؛ فإن الجمل الثلاثة خبرية، فأورد الجمل الثلاث على الترتيب الوقوعي، وقد وقع وحي طور سيناء أولاً، ووحي سعير ثانياً، ووحي فاران ثالثاً، والهدف الأصلي في القرآن إظهار شأن هذه البلاد وكرامتها، ويلوح ذالك من الإقسام. ووحي المسيح عيسى عليه السلام عال معظم، ثم وحي موسى عليه السلام أعظم منه وأعلى، ووحي محمد صلى الله عليه وسلم أعلى كعباً منهما وأجل وبالغ إلى الغاية القصوى.

نبّه على هذه النكتة الحافظ ابن القيم قال: ولما كان ما في التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزماني، فتقدم الأسبق ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيماً لشانها وإظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه

(١) التين، الآية: ١-٣.

(٢) آل عمران، الآية: ٩٧.

التدريج درجة بعد درجة، فبدأ بالعالي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم أعلى منهما، فإن أشرف الكتبِ القرآنُ، ثم التوراةُ، ثم الإنجيلُ، وكذلك الأنبياء.(١)

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى مرتبة الأديان وقدر انتشارها، فمجيء الرب من سيناء ظهور الوحي، وإشراقُه ظهورُه ظهوراً بيناً كطلوع الشمس، وتلألؤُه واستعلاؤُه غلبته على الكل وظهوره ظهوراً كاملاً، وصرح به العلامة ابن القيم رحمه الله، حيث قال: في الأول جاء وظهر، وفي الثاني أشرق، وفي الثالث استعلن. فكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، ونزول القرآن بمنــــزلة ظهور الشمس فى السماء.(٢) ولا شك أن دين محمد صلى الله عليه وسلم قد ظهر ظهور الشمس في نصف النهار، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.(٣)

البشارة الثالثة

في سفر التكوين: «حين دعى يعوب بنيه وقال لهم: «اسمعوا كلامي واصغوا إلى إسرائيل لا يزول قضيب من يهوذا ومشتَرع من بين رجليه، حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب رابطا بالكرمة جحشه، وبالجفنة ابن أتانه غسل بالخمر لباسه، وبدم العنب ثوبه، سود العينين من الخمر، ومبيضّ الأسنان من اللبن».(٤)

حل اللغات: القضيب: العصا، والمراد منه عصا السلطنة، وهي السلطنة القاهرة. ومشترع الحاكم: الحكومة التي لا تكون جابرة. وخضوع شعوب: اتباع القبائل والأقوام. والكرمة: شجرة العنب. والجحشة: الحمارة (الأتان). والجفنة: نوع

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص٦٨.
(٢) هداية الحيارى، بحث البشارات، ص ٦٧.
(٣) الأحزاب، الآية: ٤٥، ٤٦.
(٤) تكوين ص٤٩، الآية: ١٠-١٣.

نجيب من العنب. يعني: لا تزال السلطنة والغلبة والسلاطين في بني يهوذا حتى يأتي شيلون، ثم ينقطع ذلك منهم، وينتقل إلى شيلون. ثم أومى إلى أوصاف شيلون، وما أدراك ما شيلون؟ هو يربط أتانه بالكرمة، ويتبعه الأقوام، ويغسل بالخمر لباسه. ثم بيَّن حُلْيَتَه بسواد العين وبياض الأسنان من اللبن. وهذه الآيات والعلامات والصفات والمحامد توجد في محمد صلى الله عليه وسلم، لا في عيسى عليه السلام كما زعم المسيحيون، ولا في الموعود المنتظر كما تقول اليهود.

أما عدم وجوده في عيسى عليه السلام؛ فلأن البشارة تدل على أن السلطنة تنتقل من بني يهوذا إلى شيلون، فيظهر منه أن شيلون لا يكون من بني يهوذا، وكان عيسى عليه السلام منهم، ولأن المراد من القضيب: السلطنة القاهرة والشريعة الجابرة، وهي شريعة موسى عليه السلام. والْمُشْتَرَعُ: الشريعة التي فيها سهولة، وهي شريعة عيسى عليه السلام. فالمعنى: أن شيلون يتفضل بعد الشريعة القاهرة والراخصة، ولا شك أن بعد موسى وعيسى عليهما السلام جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يراد عيسى عليه السلام.

وليس المراد به الموعود؛ لأن البشارة تنبئ أن شيلون يكون حاكما، والسلطنة الدنيوية زالت من آل يهوذا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ست مئة سنة من عهد بخت نصر.[١] فالمراد من شيلون الْمُبَشَّر به: محمد صلى الله عليه وسلم. والأوصاف كلها توجد فيه صلى الله عليه وسلم.

فالعلامة الأولى: وهي انقطاع الحكومة إليه، موجودة فيه؛ لأن السلطنة أعْطِيَتْ في يده صلى الله عليه وسلم، وصارت خيبر والروم تحت يده، وظهرت دولته على الدولات، كما ظهر دينه على الأديان، ولله الحمد والمنة.

أما العلامة الثانية: وهي إطاعة الأقوام كلها، فأظهر من الذّكاء وقت الضحى؛ فإن الأقوام من العرب، والعجم، والروم، والفرس، والهند، والترك،

---

(١) إظهار الحق ٣٨٢/٢. انظر التفصيل فيه، وهذه غرفة من بحره الكبير.

والأسود، والأحمر، والأبيض، والأصفر، كلهم خاضعون لأحكامه، طائعون لدينه، اشتهر صيت جلاله من المشرق إلى المغرب، لا ينكره إلا الْمُتعامى المتجاهل، أو الضال المضل، فصار من الأراذل، الذي ختم الله على قلبه فلا يبصر نور النبوة، كالخفاش ينكر الشمس. ويدوم دين محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، لا ينسخه ناسخ، ولا يحرفه محرِّف، يستوي فيه من تقدَّم ومن تأخَّر، ومن سلف ومن خلف، فالناس كلهم في نظره سواء كالْحَلَقَة الْمُفْرَغَةِ كما قال الله تعالى شانه: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.(١) وقال عزَّ وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.(٢) وقال عزَّ مِن كل قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.(٣) بخلاف أنبياء بني إسرائيل؛ فإنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة، كما قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.(٤)

والعلامة الثالثة: أن يربط حماره بالكرمة، وقد وقع هذا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر رأى حماراً أسود فكلَّمه وسأل عن اسمه، فقال: اسمي يزيد بن شهاب، وقد خلق الله من نسل جدتي ستين حماراً كل واحد منهم مركوب نبي، وأنا أرجو أن تركب عليَّ، إذ لم يبق من نسل جدتي إلا أنا ومن نسل الأنبياء إلا أنت، فركب عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وسقط ذلك الحمار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في بئر ومات.(٥)

والعلامة الرابعة: أن يغسل لباسه بالخمر وماء العنب، فالباء إما بمعنى «مِن» يعني يغسل لباسه من الخمر ويجتنبها، أو المراد من الخمر الْمَحَبَّة الإلهية والفناء فيها

(١) الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) سبا، الآية: ٢٨.

(٣) الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) آل عمران، الآية: ٤٩.

(٥) الخصائص الكبرى، ذكر معجزاته في ضروب الحيوانات ٢/١٠٠.

على سبيل التشبيه، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مستغرقا في حب الله، فانيا فيه، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». هذا وإن كانت إرادة الْمَحبة الإلهية من الخمر تخيل الشعراء ليس له حظ من الحقيقة، كما فصله العلامة الآلوسي في موضع من تفسيره[١] إلا أن يكون تمثيلاً و تشبيهاً، وهذا التشبيه معروف بين الشعراء.

والآية الخامسة: سودُ العينين من الخمر، يعني في عينيه الحمرة مُشْرَبَةٌ بالبياض، وهذه الآية وجدت في ذاته الشريفة كما روى الترمذى بسنده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضليع الفم، أشكل العينين، منهوشَ العقب».[٢] فقوله: «أشكل العينين» معناه: أن في بَياضهما شيئاً من الحمرة.[٣] ورُوِي عن شعبة أن معنى «أشكل العينين» طويل شَق العين.[٤] ولا منافاة بينهما. ورُوِي أيضاً في وصف عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم «أدعج العينين» يعني في عينيه سواد. فعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتا أسود الأنسان مشوبٌ في بياضه الحمرة، وهذا أحب وأحسن. شعر:

حسنِ یوسف دمِ عیسی یدِبیضا داری   آنچہ خوباں ہمہ دارند تو تنہا داری

والعلامة السادسة: مُبْيَضُّ الأسنان، وهذه أيضاً وجدت في ذاته الشريفة، كما روى الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلج الثَّنِيَّتَيْن، إذا تكلم رُئِيَ كالنور يخرج مِن بين ثناياه».[٥]

---

(١) راجع: روح المعاني ٢١/٧٣.

(٢) الشمائل للترمذي، ص ٢.

(٣) حاشية الشمائل للترمذي، ص ٢.

(٤) راجع: الجامع الصحيح لمسلم، باب في صفة فم النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:٤٣١٤.

(٥) الشمائل للترمذي، ص٢.

البشارة الرابعة

من زبور سيدنا داود عليه الصلاة والسلام: «فاض قلبي بكلام صالح، متكلم أنا بإنشائي للمَلِك، لساني قلم كاتب ماهر: أنت أبرع جمالاً من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك لذلك، باركك الله إلى الأبد، تقلد سيفَك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك، وبجلالك اقتحم، اركب من أجل الحق والدَّعة والبر، فتريك يمينك مخاوف، نُبُلُك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون، كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب استقامة قضيب ملكك، أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك اللهُ إلَهُك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك، كل ثيابك مر وعود وسليخة من قصور العاج، سرَّتك الأوتار، بنات ملوك بين حظياتك، جعلت الملائكة عن يمينك بذهب أوفير، اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك، فيشتهي الملك حسنك لأنه هو سيدك فاسجدي له، وبنتُ صور أغني الشعوب تترضَّى وجهك بهدية، كلها مجد ابنة الملك في خدرها، منسوجة بذهب ملابسُها، بملابس مُطرزة تحضَر إلى الملك، في إثرها عذارى صاحباتها مقدمات إليك، يحضرن بفرَح وابتهاج، يدخلن إلى قصر الملك، عوضا عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء في كل الأرض، أذكر اسمك في كل دَور فدَور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد».(١)

قد أجمع اليهود والنصارى والمسلمون على أن هذا المزمور إشارة إلى نبي يأتي بعد داود عليه الصلاة والسلام بعد اختلافهم في من يَصْدُقُ عليه هذه الصفات، فالمسيحيون يقولون: هذا رمز إلى المسيح عليه السلام، كما هو دَيْدَنُهم أنهم يطبقون كل بشارة على المسيح عليه السلام. وإننا لا ننكر ذلك لو كانت هذه الصفات موجودة في عيسى عليه السلام، فنحن نؤمن بنبوة عيسى عليه السلام كما نؤمن

(١) زبور المزمور، الخامس والأربعون كله.

بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقول: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رُسُله، ونسمع ونطيع الكل، لكن هذه الصفات ليست بموجودة في عيسى عليه السلام كما سيتضح لك كالشمس في رابعة النهار. واليهود يطبقون هذه البشارة على المنتظر الموعود الذي هو كالعنقاء ليس بموجود. والمسلمون يقولون: الموصوف بهذه الصفات الكاملة، والمنعوت بهذه النعوت الفاضلة، سيدُ الأولين والآخرين، أفضلُ المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

فقوله: «فاض قلبي بكلام صالح» يوجد في جيمع الأنبياء، فإن قلوب جيمع الأنبياء تفيض بكلام صالح نافع من جانب الله.

وقوله: «متكلم أنا بإنشائي للملك لساني قلم كاتب» صفات محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن المراد بـــ «لساني قلم كاتب» الفصاحة والبلاغة، وهما يوجدان في القرآن، اذ خضعت دون سُرادِقاته عقولُ الفحول، وأذعنت لحسن بيانه نفوسُ البلغاء، فلا يوجد مثله كتاب. فقد أقر بإعجازه الموافق والمخالف، وأثّرت بلاغته في نفس عمر رضي الله عنه، فأذعن وأسلم. شعر:

تو مى دانى كه سوز قراءت تو ‌‌ دگرگوں كرد تقدير عمر را

وقول داود عليه السلام مخاطِباً للنبي عليه الصلاة والسلام الآتي لفرط الْمحبة: «أنت أبرع جمالاً من بني البشر» يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم لحسنه وجماله الظاهري مع الجمال الباطني، فظاهره جميل كباطنه، وصورته جميلة كسيرته، ووجهه يشرق كالبدر نوراً، كما روى الترمذي عن البراء رضي الله عنه قال: «ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حُلّة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، له شعر يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، لم يكن بالقصير ولا بالطويل، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم»(١).

---

(١) السنن للإمام الترمذي ٢/٢٠٥.

فإن قيل: يجوز أن ينطبق على المسيح عليه السلام، ويوجد فيه الحسن الظاهري مع الحسن الباطني.

قلنا: ليس كذلك عندهم، فإن عيسى عليه السلام على زعمهم لم يكن جميلا، ووجه الكلام إليهم، ففي سفر أشعيا ناعتا له: «كَفَرْخٍ وكعِرْق من أرض يابسة لا صورة له ولا جمال، فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتَقَر ومخذول من الناس، رجلُ أوجاعٍ ومُختَبِر الحزن».[1] ولو سلمنا وجود هذا الجزء فيه، فلا توجد فيه الأجزاء الآتية، كما سيتضح.

فالحاصل أن هذه الصفة موجودة على أكمل طريق في محمد صلى الله عليه وسلم، فهو أحسن الناس وأجمل الخلق على الإطلاق صلى الله عليه وسلم. شعر:

وأحسنَ منك لم تر قط عيني   و أجملَ منك لم تلد النساء
خُلِقْتَ مبرَّءاً من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء[2]

وقوله عليه السلام: «انسكبت النعمة على شفتيك» مختص بالنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، فإنه نطق بكتاب انتفع به جميع العالم، يأخذ بمجامع القلب، ينطبع على قلب كل أحد، ويتدبر في آياته كل عاقل، وكان صلى الله عليه وسلم مصدر كل خير، أتى بكتاب فيه شرائع، وعبادات، ومعاملات، وغير ذلك.

وقوله: «تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار» الخ. هذه الصفة أيضاً مختصة به صلى الله عليه وسلم، ولعل الْمَسحيين يستنكفون عن انطباق هذه الصفة على المسيح عليه السلام؛ لأنهم يزعمون الحرب من أقبح الصفات، كما سيجيء مفصلاً. وأما رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فحياته المباركة متحلية بحلية الجهاد والْمُكافحة في سبيل الله، جاهد الكفار والمنافقين واليهود والمسيحيين الكافرين، وكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من غزوة تهيّأ للأخرى.

---

(١) أشعيا، ص٥٣.

(٢) البيتان لحسان بن ثابت. انظر: ديوانه من ص١١، ط: دار صادر، بيروت.

وقوله: «بجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر، فتريك يمينك مخاوفَ» أي اقتحم واركب لأجل الحق، لا للشهوة والملك والجاه والمال، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاهَدَ وبلّغ لإظهار الحق وإبلاغه، لا للمال والمنصب، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تنازلت عن هذا الأمر حتى يظهره الله».(١) قال ابن جرير الطبري في حديث طويل: حين دعاهم أن يتكلموا بكلمة تَدِيْن لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، قال: فقال أبو جهل من بين القوم: ماهي وأبيك لنُعْطِيَنَّكَهَا وعشْر أمثالها. قال: «تقولون لا إله إلا الله». قال: فنفروا وتفرقوا وقالوا: سلنا غير هذا. فقال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها».(٢)

قوله: «ونُبُلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون» ينطبق على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أظهره ونصَرَه على أعدائه، فاضمحلّوا وامتحوا عن البسيطة، وآمنوا به، واتبعوه، وانْمحت أوثانهم، واندرست معابدهم، وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا. وخضعت الشعوب والقبائل والرؤساء والسادات لِحُكمه، فأبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ صار من أنصاره بعد أن كان حربا عليه، وخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ قائدُ عسكر الكَفَرة في أُحد كان يفتدي بنفسه في سبيل الله تعالى عز وجل. وهذا عمر ـ رضي الله عنه ـ يخرج من بيته ويريد أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ساعة يستريح في ظل الإسلام وذيله. وهذا أبو بكر رضي الله عنه سيد القوم أولُ من أسلم. روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما حين سئل من أول الناس إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان رضي الله عنه، شعر:

إذا تذكرتَ شَجْواً من أخي ثقة   فاذكُرْ أخاك أبا بكر بما فعلا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٦/١.

(٢) تفسير الطبري ٥٥٣/١٠.

خيْرُ البرية أتقاها وأعـــدلها بعد النبي و أوفاها بما حملا
الثانيَ التاليَ الْمحمود مشهَـــدُه وأولَ الناس منهم صدَّق الرسلا[(١)]

كان رضي الله عنه يلقي نفسه في المخاوف والمهالك، ويصاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الأسفار، ويبيت معه في المفاوز والصحارى، ويصدقه حق تصديق. وهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ينافح عنه، وينادي في الظلمات. شعر:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء[(٢)]

وهذا حمزة والعباس عمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاركان معه في الغزوات. وانهزام كسرى وفارس ينادي بأعلى نداء أن الشعوب تحته يسقطون.

مولاي صل وسلم دائما أبداً على حبيك خير الخلق كلهم

ثم بعد ذلك انظر إلى قوله: «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» ينادي من في قلبه مثقال ذرة من العقل، أن دينه يبقى إلى أبد الآبدين ومر الدهور، لا ينسَخه ناسخ، ولا يمحوه ماح، ولا يأتي بعده شريعة ولا دين، فهو كوثر. أنهاره تجري في جميع الأنحاء، وريحانة تبقى نَكهتها ونفحتها إلى قيام الساعة، ولا يختص بدينه أحد دون أحد، بل هو لجميع الشعوب والفئام. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.[(٣)] شعر:

یک چراغ است دریں خانہ کہ از پرتو آں ہر کجا می نگری انجمنے ساختہ اند

وقد استدل البادري فندر في ميزان الحق ص٣١١ بهذا القول يعنى «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» على أن المراد منه المسيح عليه السلام لأنه المخاطب بـــ «يا الله» و«الإله» إنما هو المسيح لا غيره من الأنبياء.[(٤)] وهذا من سخافة عقله، وفساد

---

(١) تفسير القرطبي ٢٣٦/٨، وتاريخ الطبري ٥٣٩/١.

(٢) الجامع الصحيح لسلم، فضائل حسان بن ثابت، رقم:٤٥٤٥.

(٣) سبأ، الآية: ٢٨.

(٤) أدلة اليقين.

فهمه؛ لأن المراد بـــ «الكرسي» دين الله وشريعته، يعني شريعتك يا الله باقية، وليس المراد أن كرسيك باق يا الله خِطابا للمسيح عليه السلام لعدم بقاء دينه إلى الأبد، وإن أريد الملك والسلطنة من الكرسي، فلا يوجد هذا الكرسي للمسيح عليه السلام إلا في كرسي ذهن فندر.

وقوله: «قضيب استقامة قضيب ملكك» وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني شريعتك مستقيمة تنطبق على جميع الأزمنة، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام المذكورة في الإنجيل، فإنه ليس فيها إلا الأحكام المخصوصة.

وقوله: «أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله بدهن الإبتهاج أكثر من رفقائك» موجود في محمد صلى الله عليه وسلم على أوفر طريق وأكمله؛ إذ أحبَ البر وأبغض الإثم، واحتمل في سبيلهما البلايا والرّزايا والْمِحَن الشديدة التي تشهد بها أوراق التاريخ، وإن شئت فتذكر إلقاء سَلا جَزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة، وطرح الأشواك في سبيله صلى الله عليه وسلم. روى ابن جرير الطبريُّ بسنده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حدثّني بأشد شيء رأيتَ المشركين صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: أقبل عقبة بن أبي مُعيط، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند الكعبة، فلَوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً، فقام أبو بكر من خلفه فوضع يده على منكبيه، فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال أبوبكر رضي الله عنه: يا قوم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.(١)

ولهذا أظهره الله على جميع الأديان، حتى أن أعداء دينه صاروا خصماً له، ومسحه الله بدين الابتهاج، وأكمل دينه، وأتم أمره وفضله على سائر الأنبياء.

قوله: «كل ثيابك مُر وعُودٌ وسليخة» إشارة إلى حب النبي كلَّ رائحـــة طيبة

---

(١) غافر الآية: ٢٨ . تفسير القرطبي ١٥/٣٠٨.

ذكية، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ملابساً للطيب، فعن أنس رضي الله عنه: «كان لرسول الله مسكة يتطيب منها». وعن عبد الله قال: كان أنس بن مالك لا يرد الطيب.(١) بل تنبعث الرائحة الطيبة الذكية من جسد النبي صلى الله عليه وسلم، بل قال الشيخ الولي الكامل الشبلي رحمة الله عليه: أجد الرائحة الطيبة منبعثة من تربة المدينة، كما نقله الشيخ عبد الحق الدهلوي رحمه الله تعالى: «شبلی کہ یکے از علماء وجد است می گوید کہ: تربت مدینہ را نفحہ خاص است کہ در ہیچ مشک و عنبر نیست، وگفتہ کہ ایں معنی آں عجیب عجائب است، و در حقیقت ہیچ عجب نیست ـ شعر:

دراں زمین کہ نسیمے وزد زطرہ دوست   چہ جائے دم زدن نافہائے تاتاریست (٢)

وقال السمهودي: قال ابن بطان: من سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة. وقال الإشبيلي: لِتربة المدينة نفحة ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو عجب من الأعاجيب. وقال ياقوت: من خصائصها طيب ريحها، وللمطر فيها رائحة لا توجد في غيرها، وما أحسن قول أبي عبد الله العطار:

بِطيبِ رسـولِ الله طـاب نسيمُـها   فما الْمِسْكُ ما الكافورُ ما الْمَندَلُ الرَّطْبُ(٣)

وقوله: «من قصور العاج سرتك الأوتار» يعني تحت يدك قصور عظيمة، لكن لا تسُرّ بها؛ فإنه كان لا يحب المال، بل يوزعه بين الناس. وهذا ظاهر من حياته الطيبة، فإنه صلى الله عليه وسلم ما شبع من خبز قط ولحم إلا على ضفف. قال مالك: سألت رجلاً من أهل البادية: ما الضَّفَف؟ قال: أن يتناول مع الناس.(٤) هذا كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم، مع أنه كانت في يده قصور أهل خيبر، وأموال بني النضير، وهو سيد الأولين والآخرين. وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا

---

(١) الشمائل للترمذي، ص ١٤.
(٢) مدارج النبوة، ص١٥.
(٣) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١٧/١.
(٤) الشمائل للترمذي، ص ٦.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بطنه عن حجرين.(١)

وقوله: «بنات ملوك بين حظياتك» يعني بنات الملوك تكون في زوجاتك، وهذا صادق على النبي صلى الله عليه وسلم بلا شك، فإن السيدة صفية بنت حي بن أخطب كانت زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت بنت ملك بني النضير، وجويرة رضي الله عنها كانت من أمهات المؤمنين، وكانت بنت ملك بني المصطلق.

وقوله: «جعلت الملائكة عن يمينك» إشارة إلى فتوحات عظيمة، ومغانم كثيرة يأخذوها، وفيها الذهب والفضة، وما إلى ذلك من الأموال. قال النبي صلى الله عليه وسلم لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى». ولما فتح الله إيران دعا عمر رضي الله عنه سراقة، وألبسه السواري.(٢)

وأما قوله: «اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك فيشتهي الْمَلِكُ حسنك؛ لأنه هو سيدك» إشارة إلى خضوع الشعوب للنبي صلى الله عليه وسلم واِتِّبَاعِها له، ونسيان الأزواج المطهرات أقوامهن وأدياهن وقبائلهن. فلما جاء الإسلام انمحى الكفر، وعفت آثاره، وانكشفت دياجيره من القلوب والأذهان، وهكذا كانت حال الأزواج المطهرات حتى إهن كن يتعيرن بأدياهن السابقة، كما روي أن حفصة رضي الله عنها قالت مرة لصفية رضي الله عنها: «يا بنت يهودي أو يا يهودية». فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٣)

وقوله: «بنت صور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية» إشارة إلى أن الملوك تترضى وجهك ويطلبون رضاك وينفقون الأموال لرضاك. وهكذا كانت حال النبي صلى الله عليه وسلم يهدي إليه الملوك الهدايا والتحائف ويُرضونه، فهذا ملك

---

(١) الشمائل للترمذي، ص ٢٥.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، ٣٥٧/٦. ورحمة للعالمين ١٩٦/٣.

(٣) سنن الترمذي، فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:٣٨٢٩.

الإسكندرية مُقَوقس أهدى إليه صلى الله عليه وسلم أربعَ جوار كما في تاريخ ابن جرير: «وبعث حاطبَ بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحبِ الإسكندرية، فأدى إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهدى المقوقسُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوارٍ، منهن مارية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم».(١) وهذا النجاشي مَلِك حبشة زَوَّجَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أمَّ حبيبةَ رضي الله عنها، وأعطى أربع مئة دينار في صداقها. قال العلامة الطبري في تاريخه: «ثم دعا النجاشي بأربعَ مئة دينار صَداقها، فدفعها إلى خالد بن سعيد، فلما جاءت أمَّ حبيبة تلك الدنانير، قال: جاءت بها أبرهةُ، فأعطتها خمسين مثقالاً، وقالت: كنت أعطيتك ذلك وليس بيدي شيء، وقد جاء الله عزَّ وجل بهذا. فقالت أبرهة: قد أمرني الملك أن لا آخذ منك شيئاً».(٢)

وقوله: «كلها مجد ابنة الملك في خدرها، منسوجة بذهب ملابسها، بملابس مطرزة تحضر إلى الملك، في إثرها عذارى صاحباتها مقدَّمات إليك» كل ذلك إشارة إلى فتوح البلدان وإتيان القبيله لديه وإتيانهم بالأمتعة والغنائم. قال ابن الأثير: وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا كثيرة، فقسمها بين المسلمين، وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته عن نفسها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعانته في كتابتها، فقال لها: «هل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي كتابتك وأتزوجك». فقالت: نعم يا رسول الله! ففعل.(٣)

وقوله: «عوضا عن آبائك يكون بنوك تُقيمهم رؤساء في كل الأرض» إشارة إلى أن أبنائه يسودون الأمر ويملكون العرب. وقد تحقق ذلك، فإن حسناً رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٦٤٥.
(٢) تاريخ الطبري ٢/٦٥٤.
(٣) تاريخ الكامل لابن اثير الجزري ٢/١٩٢.

عنه ادّعى الخلافة ثم تركها، وبعد ذلك أبناؤه في الحجاز واليمن ومصر والشام وغير ذلك، والمهديُّ المنتظَر يكون من أولاد النبي صلى الله عليه وسلم. وأما ولاية الأبناء الروحانيين، فأظهر من الشمس في رابعة النهار.

وقوله: «اذكر اسمك في كل دور فدور» موجود في النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ريحانة كل مجلس، وطُمأنينة كل حفلة ونادٍ. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.(١) وكلما ذُكِر الله يذكر معه اسم محمد صلى الله عليه وسلم، حتى في الصلاة، والأذان، والخطبة، والإقامة، والجمع، والأعياد.

هذا تفصيل هذه البشارة بلا تطويل، والكلام يطلب الإطالة، لكن لا يتعلق بحث البشارات بموضوعنا، فلذا لا نخوض في أعماق بحارها، بل نَسْبَحُ على سطح أنهارها.

والآن نذكر أن هذه البشارة لايصدق على عيسى عليه السلام على وجه الإيجاز.

فأقول «فاض قلبي بكلام صالح، أنا بإنشائي للملك» يعني أنا أبين أموراً أنشاها في حق الملك وهذا صريح في أن المبشَّربه يكون مَلِكا، وأنتم تعلمون أن عيسى عليه السلام لم يكن ملكا، بل كان مغلوباً مقهوراً كما هو المتيقن عندهم . ومحمد صلى الله عليه وسلم كان مِلِكا ينفِّذ الأحكام ويجاهد الكفار ويدافع عن المسلمين، وكان نبيا يبلغ ويدعو إلى الله تعالى ويبين أحكام الله.

ثم قيل: «أنت أبرع جمالا». وقد علمت أنهم لا يصفون عيسى عليه السلام بالجمال.

وقيل في هذا المزمور: «تقلَّدْ سيفك على فخذك». تلميح إلى الجهاد والقتال. وعيسى عليه السلام لم يغز، بل المنصِّرون يزعمونه سبَّة في الإسلام، ويقولون: كان عيسى عليه السلام أهدى إلينا باقة الصلح والأمان.

---

(١) انشراح، الآية: ٤.

وقوله: «نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك شعوب، تحتك يسقطون» لا ينطبق على عيسى عليه السلام؛ لأن نبله لم تكن مسلولة على الأعداء، و لم تسقط الشعوب تحت حكمه، بل غلبوا عليه وقتلوه وصلبوه كما زعموا. يقول المنصِّرون تطبيقاً لهذه العبارة على عيسى عليه السلام: أن المراد بالنبل المسلولة سَلُّ النبل على العدو وهو الشيطان. وهذا باطل؛ لأن النبل المَسلولة لما وقعت على الشيطان وجب أن يهلك أو ينتقص أثره، و لم يهلك و لم ينتقص أثره، بل وساوسه ودسائسه باقية، ولا يزال يضل الناس، وألقى اليهود والنصارى في جُبِّ الهلاك.

وقوله: «وكرسيك يا الله إلى دهر الدهور» لا يصدق على عيسى عليه السلام؛ لأن دينه لم يبق إلى يوم القيامة، بل نسخ، فلا يكون عملهم بشريعة عيسى عليه السلام حجة، وما يعتقدونه ويعملون به ليس دين عيسى عليه السلام؛ فإن عيسى عليه السلام لم يقل: إني إله أو ثالث ثلاثة، و لم يأمر بالاصطباغ والكفارة وغيرهما.

وقوله: «بنات الملوك بين حظيّاتك» لا ينطبق على عيسى عليه السلام؛ لأنه لم يتزوج طول عمره، و لم تأت بنات الملوك في حظيرته.

وقوله: «أذكر اسمك في كل دَور فدَور، من أجل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والأبد» لا يصدق على عيسى عليه السلام؛ لأن ذكره خامد، وهو محتقر عندهم والعياذ بالله، ففي صحيفة يشعيا عليه السلام في حق عيسى عليه السلام: «مضروباً من الله ومذلولاً، وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه، وبِحُبُرِه شُفِينا».[1] وهذا باتفاقهم بشارة عيسى عليه الصلاة والسلام، فعلم أنه مخذول محتقر لا يلقون له بالاً. ولما كان مخذولا كيف يحمدونه حمداً من صميم القلب. وأنت تراهم يذكرونه بالألوهية، وهو عبد الله ورسوله، ثم يصفونه بأنه مقتول مخذول ومصلوب، فيا للعجب من هذه العقول!!!

(١) أشعيا، ص ٥٣.

البشارة الخامسة

البشارة الخامسة من إنجيل متى، وعبارته هكذا: «قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناؤون، هو قد صار رأس الزاوية، من قِبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينــزَع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يَسْحَقُه».[١]

وهذه البشارة تنطبق على النبي صلى الله عليه وسلم بلا ارتياب، فإن المراد بالبنائين بنو إسرائيل، ورفضهم الحجر: تركهم النبي صلى الله عليه وسلم، وإعراضهم عن تعاليمه، فقال المسيح عليه السلام: هو يكون كحجر رأس الزاوية يتم به البناء، أي الموضع الذي كان خالياً في رأس الزاوية. وهذا شأن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المعنى في حديث رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون ويعجَبون له ويقولون: هلا وُضعِت هذه اللبنة، فأنا اللبِنة، وأنا خاتم النبيين».[٢] فهذه عبارة الإنجيل تطابق الحديث تطابُقَ النعل بالنعل. فعبارة إنجيل تنبئ عن نبيٍّ يأتي ويختم به النبيون. وهذا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم خاصةً، دون سائر الأنبياء من إخوانه، فإن عيسى عليه السلام لم يدَّعِ ختم النبوة، ولا المسيحيون يعتقدون في حقه أنه خاتم النبيين، إنما هو خصوصية محمد صلى الله عليه وسلم، فهو سيد المرسلين وخاتم النبيين.

---

(١) متّى ، الآية : ٤٢-٤٤.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، رقم: ٣٢٧١.

وقوله: «أقول لكم: إن ملكوت الله ينـــزَع منكم ويعطى لأمة» إشارة إلى أن الخلافة والنبوة تُنـــزعان من بني إسرائيل، وقد وقع ذلك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا يصدق قوله: «الحجر الذي رفضه البناؤون» على عيسى عليه السلام؛ لأن بني إسرائيل لم يرفضوه كما يقولون، بل يذكرونه كل حين ويدَّعون أنه إلهنا ويحمدونه في الظاهر، بل ينطبق علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن اليهود والنصارى كانوا يُبغِضونه، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، والقرآن الحكيم مملوء من مكرهم وحيلهم وفتنهم، والأحاديث أصدق شاهد على هذا. وهذه البشارة تنبئ أن من سقط عليه (أي المبشَّر به) يترفَّضُ ويهلك، ومن سقط هو عليه يسحقه، وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم، فإن من خرج لِمُكافحته هلك هلاكا فيه عبرة لأولي الأبصار، كما في الخندق وغيره من الغزوات، ومن سَحَقَ هو عليه سحقه، كما في وقعة بدر وفتح مكة، ولا يوجد هذا الوصف في عيسى عليه السلام؛ فإنه هلك بأيدي الفريسيين اليهود كما يقولون. فنحن لانقول به، وإنه عندنا رفع إلى السماء. وقالوا: صاح: إيلي ايلي لما شبقتني. يعني يا الله لما تركتني. وبالجملة أن هذه البشارة صريحة في محمد صلى الله عليه وسلم.

البشارة السادسة

قال: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؛ لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم».[1]

وفي الآية السادس والعشرين من ذلك الأصحاح: «وأما الْمُعَزِّيُ الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلّمكم كلَّ شيءٍ ويُذَكِّرُكم بكل ما قلته لكم».

(١) يوحنا، ص١٤، الآية: ١٥-١٧.

وفي آية ٢٩: «وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان: تؤمنون». وفي الأصحاح السادس عشر: «لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الْمُعَزِّي، ولكني إن ذهبت أُرسِلُه إليكم، ومتى جاء ذلك يُبَكِّتُ العالَم على خطيئة وعلى برّ وعلى دَيْنُونَة. أما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على برٍّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين، إن لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملو الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم مِن نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية».(١)

لا بد ههنا من ذكر أمور قبل بيان المقصود:

الأمر الأول: أن المترجمين يترجمون الأسماء حسب ما يفهمونها، فالمترجمون لَمّا ترجموا الإنجيل إلى اليونانية استعملوا لفظ باراكلي طوس أوبيركلوطوس للمبشَّر به، ثم عَرَّبوه إلى فارقليط، ثم لَمّا ترجموه بالعربية استعملوا مكانه الْمُعَزِّي، كما في النسخة التي عندنا المطبوعة ١٨٦٩م. وقال البعض: معناه، الوكيل، أو المعين، أو الحماد. قال بعض القسِّيسين في رسالة لتحقيق لفظ الفارقليط: إن هذا اللفظ اليوناني الأصل بيركلوطس، فيكون بمعنى المعزى، والمعين، والوكيل. وإن قلنا: إن هذا اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد وأحمد، فمن استدلّ من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل: بيركلوطوس، ومعناه قريب من محمد وأحمد، فأدعى أن عيسى عليه السلام أخبَر بِمُحمّد أو أحمد، لكن الصحيح أنه باراكلي طوس. انتهى.(٢)

ونحن سنذكر إن شاء الله تعـالى أن هذا اللفظ: بيركلي طوس كان، أو باراكلي طوس إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) يوحنا، ص١٦، الآية: ٧-١٤.

(٢) إظهار الحق ٢/٤٢٠-٤٢١.

والأمر الثاني: أن النصارى ينتظرون نبيا من الأنبياء، يشهد به التاريخ والأحاديث، قال هرقل ـ وكان على ديانة النصارى ـ لأبي سفيان: «وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».[(١)]

وقد قال مُقَوْقِس عظيم القبط مجيباً لكتاب النبي صلى الله عليه وسلم: «لِمُحمّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها».[(٢)]

وذكر وليم ميور في حق منتنس المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد، وادعى أنه الفارقليط الموعود به. وقال: «إن البعض قالوا: إنه ادعى أني فارقليط، يعني الْمُعَزِّي روح القدس، وهو كان أتقى ومرتاضا، ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً زائداً.[(٣)] فظهر من هذا أن بني إسرائيل كانوا ينتظرون نبيا آتيا ليتم الوعد المسيحي.

الأمر الثالث: أن المسيحين يطبقون هذه البشارة على روح القدس، ويقولون: إن الفارقليط هو روح القدس، نزل بعد قتل عيسى عليه السلام ورفعه على الحواريين، كما هو مذكور في الأصحاح الثاني من أعمال الرسل: «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوتٌ كما من هبوب ريح عاصفة، وملأ كلَّ البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم أَلْسِنَة

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ١/٤١.

(٢) عيون الأثر ١/٨٤٦.

(٣) إظهار الحق ٢/٤٢١-٤٢٢.

منقسمة كأنها من نار، واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا».[١]

ثم ذكر في هذه البشارة علامات للمبشَّر به: ١- يأتي من بعدي. يدل عليه قوله: «إن لم أنطلق لا يأتكم الْمُعَزِّي». ٢- يكون معزِّياً أو وكيلاً أو حماداً، على اختلاف المعاني. ٣- يكون إلى الأبد. ٤- يبكت العالَم ويوبِّخه على الخطيئة. ٥-يبلِّغ العالَم وينصَحهم. ٦- يخبر عن الأخبار الآتية. ٧-لا يتكلم عن نفسه.

وهاتيكم الأمور موجودة في محمد صلى عليه وسلم، فإن أردنا من الفارقليط الحماد أو أحمد، فهو ظاهر؛ لأن اسم النبي صلى الله عليه وسلم أحمد، وحينئذ يطابق لفظاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.[٢] وكان اسمه أحمد في التوراة كما ذكرنا. وأحمد إن كان مَبْنيًّا للفاعل، فمعناه الذي يحمد؛ ورسولنا صلى الله عليه وسلم كان يحمد الله ربَّه ويعبده، ويذكر الله في كل حال، وإن كان مبنيا للمفعول، فلا شك أنه محمود يحمَده الكلُّ إلى يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.[٣] وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه: شعر:

أغرُّ عليـــه للنبوة خاتَم ... من الله مشهود يلوح و يُشهد
وضم الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه لِيُجِــلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد[٤]

وإن أريد به الْمُعين أو الوكيل أو الشفيع، فهذه الأوصاف موجودة في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان معينا للفقراء

---

(١) أعمال الرسل، ص٢، أية:١-٤.

(٢) الصف، الآية: ٦.

(٣) انشراح، الآية: ٤.

(٤) ديوان حسان بن ثابت، ص٤٢.

والمساكين، وكان معينا على التقوى والخير. قالت خديجة رضي الله عنها حينما نزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق.[١] وهو الوكيل، وهو من يُفوَّض إليه أمر وعمل، ولهذا يقال لِمَن تصرف نيابة عن الشخص في البيعِ أو الشراءِ: الوكيلُ. وهو صلى الله عليه وسلم وكيل منِ جانب أمته؛ لأنه يدافع عن أمته أمام الله تعالى، فمحمد صلى الله عليه وسلم يشفَع عند الله في أمر أمته، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني على الحوض حتى أنظر من يَرِد عليّ منكم، وسيؤخذ أناس دوني، فأقول: يا رب! مني ومن أمتي. فيقال: أما شَعَرتَ ما عمِلوا بعدك، والله ما برِحوا بعدك يرجعون على أعقابهم».[٢] ومحمد صلى الله عليه وسلم يشهد على عدالتهم، ويزكّيهم في الْمحشر: إذا ادعى الرسلُ التبليغَ وأنكرت الأمم، ثم جيء بالشهداء لأنبيائهم، وهم أتباع محمد صلى الله، فإذا طعنوا أنهم لم يكونوا حاضرين فكيف يشهدون؟ يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويزكيهم، ويقول: أخبرهم بذلك.

ويستدل المنصِّرون في نفي الوكالة عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.[٣] وهذا لا يصح؛ لأن المراد في الآية نفي الوكالة الخاصة، وهي الوكالة على إيمانهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس وكيلاً عليهم في الإيمان وعدمه بأن يُسأل عنه لِمَ لم تؤمن أمتك. وتشهد عليه بقية الآية، وتمامها: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيْلاً﴾.[٤] يعني ما فَوَّضْتُ إليكَ أمر إيْمانِهم وكفرهم، حتى تُسألَ عنه ولا ينافي ذلك أن يفوَّض إليه نيابةً عنهم بعض أمورهم في الآخرة، فيكون جوابه جوابهم،

(١) الجامع الصحيح للبخاري ٣/١.

(٢) الجامع الصحيح لمسلم ٢٤٩/٢.

(٣) الإسراء، الآية: ٥٤.

(٤) الإسراء، الآية: ٥٤.

وكلامه كلامهم؛ فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم شفيع الأمم يوم القيامة وأمته خاصةً، لا يشك فيه من قرأ كتب الأحاديث، وإليك نص الحديثين:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي ولا يشرك بالله شيئا».(١)

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد وُلْدِ آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر، ولِواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر».(٢)

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الْمُعَزِّى يعني (تسلى دهنده Comforter) وكان صلى الله عليه وسلم يعزّي مصاباً ويسلّي، ويقول: من عزّى مُصاباً فله أجر مثله.(٣)

وقوله: «إن لم أنطلق لا يأتكم الْمُعَزِّي» يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بعد عيسى عليه السلام، ولم يمكن أن يجتمعَ بعيسى عليه السلام؛ لأنهما صاحبا شريعة مستقلة، ولا يجتمع صاحبا شريعة مستقلة في زمان واحد، نعم يجوز أن يجتمع بِنَبِيّ صاحبِ شريعةٍ نبيٌّ لا يكون كذلك كهارون مع موسى عليهما السلام.

وقوله: «ويكون ليمكث إلى الأبد» وهذا أيضاً صحيح في حق النبي صلى الله عليه وسلم، فإن شريعته ودينه باقٍ ونافذ إلى أبد الآباد، وهو مبعوث إلى الناس كافة من عهده المبارك إلى يوم القيامة.

---

(١) الجامع الصحيح لمسلم ١١٣/١.

(٢) ابن ماجة، ص٣١٩.

(٣) سنن الترمذي، باب ما جاء في أجر من عزى مصاباً، رقم:١٠٩٤.

قوله: «يبكّت العالَم على خطيئة وعلى بِرّ...» هذا هو منصب محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه جاء داعياً إلى الخير، مانعاً من الشر، ما من عمل صالح إلا دعا إليه، وما من عمل طالح إلا نهى عنه، فأمر بالصلاة والزكاة والحياء والرفق والعدل والإحسان، ونهى عن الكبر والفخر والعداوة والزنا والحسد والنميمة وغيرها، وأمر بما هو الصحيح المعقول، فأمر أهل الكتاب بعبادة الله وحده قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾.(١) ونهى عن التثليث وعقيدة قتل المسيح عليه السلام، حيث قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.(٢)

وقوله: «يرشدكم إلى الحق لأنه لا يتكلم عن نفسه»، فهذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أرشدهم إلى عبادة الله عزَّ وجل، وصرَفَهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة ذي الإنعام، وعن التثليث إلى التوحيد، وعن استخفاف المسيح وأمه إلى تكريمهما وتنـزيههما. وكان صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن نفسه، بل يتكلم بما يوحى إليه، كما أخبر عنه الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾.(٣)

وأما قوله: «يخبركم عن الأمور الآتية»، فهذا متحقق في حقه، فإنه عليه السلام كان يخبر عن الغيب وينبئ عنه وإن لم يكن عالِمَ الغيب، فإن هذا الوصف مما يختص بالله تعالى، وقد ذكرنا بعض ذلك، فتذكر، فما في العهد من قدم.

فالحاصل أن هذه البشارة من أولها إلى آخرها تنطبق على النبي محمد صلى الله

(١) آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) النساء، الآية: ١٥٧-١٥٨.

(٣) النجم، الآية: ٣-٤.

عليه وسلم، ويُمثّل صورةَ حياته الطيبة، لا ينكره إلا متعصب. وما يقوله المنصِّرون: إن هذه البشارة بشارة روح القدس الْمُنَزَّل على الحواريين (الرسل بلسانهم)، فباطل لا ينطبق عليه، بل هو إعراض عن جادة الحقيقة، فاستمع ذلك والله يتولّ هداك.

يقولون: «إن المراد بالْمُعَزِّي روح القدس». وهو جوهر مجرد أو نقول أقنوم ثالث. وهذا لا يصح؛ لأن روح القدس لو كان مراداً منه، فلا يصح أن يقال في حقه: «أنه مرسل إلى اليهود». كما هو الظاهر من هذه الآيات؛ لأنه لما كان مجرداً كيف أرسِل إلى اليهود، وتكلم معهم وأمر ونهى، ولا يمكث روح القدس معهم أبداً كما هو المذكور في هذه الآيات، بل روح القدس نزل عليهم ساعة قليلة معيَّنة ثم ارتفع. فالمراد محمد صلى الله عليه وسلم، كما هو باق ببقاء شريعته. وأيضاً لو كان المراد روح القدس، فهو متَّحِد عندهم بالمسيح؛ لأن الإله والمسيح وروح القدس متحد عندهم، فلا معنى لإرساله ووكالته وشفاعته وتعليمه، بل هذه الأمور موجودة في محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله: «الْمُعَزِّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم» لا تنطبق على الروح المنــزَّل على الحواريين كما يقولون؛ لأن الروح المنــزل ما علم كل شيء. وهل أنتم تقولون: إن الحواريين نسوا تعاليم المسيح، فذكّرهم الروح المنــزَّل يوم الدار؟ لا، ليس كذلك!

وقوله: «قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون»، يدل دلالة صريحة على أن الروح المنــزل على الحواريين ليس بمراد؛ لأنّ الْمُبشَّر به يلقنهم ويوصيهم بالإيمان، والحواريون لم يكونوا كافرين حتى يؤمنوا، ولا شاكين حتى يتيقنوا.

وقال بعد ذلك: «لأنه إن لم أنطلق لا ياتيكم المعزّي» يعني عدم وجودي شرط لنــزوله، ولا شك أن روح القدس كان ينــزل في عهد المسيح عليه السلام، بل كان موجودا مع المسيح كلَّ حين ومتحداً معه.

وقال بعد ذلك: «ومتى جاء ذلك يبكّت العالَمَ على خطيئة وعلى بِرّ»، فهل يقول المسحيون المنصِّرون: إن روح القدس أمر الناس بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وبكّتهم على فعل القبيح؟ لعلهم يقولون: نعم، فإنهم في غاية الوقاحة والجهالة، فأقوالهم يتنفر عنها الْمَجانين، ويخالف عنها صبيان المكاتب، لا عقول لهم، بل مسخ الله عقولهم. نعم! هذا منصب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعد ذلك: «فهو يرشدكم إلى جميع الحق»، فهل بيَّن الروح القدس جميع الحق للحواريين، وهل كانوا محاويجَ إلى الرشد غيرَ ناسكين به فأرشدهم؟

ثم قوله بعد ذلك: «لأنه لا يتكلم عن نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» دليل على أنهم يكذبونه، فقال المسيح عليه السلام: إنه لا يتكلم عن نفسه، بل يتكلم بالوحي، ولم ينكروا روح القدس. فالحاصل أن هذه البشارة تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم.

شبهات المنصّرين في هذه البشارة

وللمنصِّرين شبهات في تطبيق هذه البشارة على محمد صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الأولى: إن في هذه البشارة «لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه» وقد كانوا يعرفون النبي صلى اله عليه وسلم ويرونه، فلا يصدق عليه.

والجواب عنها: أن المراد لا يستطيع العالَم أن يعرفه معرفة حقيقية، ولا يمكن معرفته صلى الله عليه وسلم حقيقة معرفة، فإنه لا يمكن الوصول إلى ذُروة مراتبه وكمالاته، وأيضاً لو كان المراد الروح القدس كما تقولون، فأنتم تعرفونه والعالم كله يعرفه نفس المعرفة، فكيف قيل: «العالم لا يراه ولا يعرفه»؟

وبالجملة لو أريدت المعرفة الظاهرية، فهي حاصلة لروح القدس ومحمد صلى الله عليه وسلم كليهما، ولو أريدت المعرفة الحقيقية، فهي لِكلَيهما مشكلة، وقد جاء

استعمال المعرفة في الحقيقة في كتابهم المقدس، كما قال يوحنا: «بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه»[١](أي الله).

وفي موضع آخر «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه، وقد رأيتموه. قال له فيلبس: يا سيد أرنا الأب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم زمانا هذه مدته، ولم تعرفني يا فيلبس! الذي رآني فقد رأى الأب، فكيف تقول أنت: أرنا الأب؟».[٢]

وفي موضع آخر قال: «أيها الأب البّار! إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني».[٣]

فالمعنى في الكل المعرفة الحقيقية والْمُثبتةُ المعرفةَ الظاهريةَ.

وفي إنجيل متى «فقد تمت فيهم نبوة أشعيا القائلة: تسمعون سمعا ولا تفهمون، ومُبْصِرين تبصرون ولا تنظرون».[٤] أي لا تبصرون حقيقة وإن كنتم تعرفون ظاهرا، فالمراد بالمعرفة في هذه الأقوال كلها المعرفة الحقيقية الكاملة، فتأمل في ذاك. والله يتولى هداك.

الشبهة الثانية: أن الْمُعَزِّي فُسِّرَ في الإنجيل بروح القدس، فكيف تطبقونه على محمد صلى الله عليه وسلم؟

والجواب أن لروح القدس مَعَانِيَ مختلفة:

١- قد يراد منه الأقنوم الثالث، كما في عبارة أعمال الرسل التي نقلناه من قبل.

---

(١) يوحنا، ص٧، الآية: ٢٩.

(٢) يوحنا، ص١٤، الآية: ٧-١١.

(٣) يوحنا، ص١٧، الآية: ٢٥.

(٤) متى، ص١٣، الآية: ١٤.

٢- وقد يكون معناه: النفس الناطقة الإنسانية، كما في كتاب حزقائيل، قال: «فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإحيائي إياكم من قبوركم يا شعبي، وأجعل روحي فيكم فتَحيُون، وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمتُ».[1] فالمراد منه ههنا: الروح الذي ينفتح في الأجساد بعد بعثها من القبور.

٣- وقد يكون بمعنى النبي الواعظ الناصح كما في الباب الرابع من أعمال الرسل: «أيها الأحباء لا تصدِّقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله؛ لأن أنبياءَ كَذَبَةً كثيرين قد خرجوا إلى العالم، بهذا تعرفون روحَ الله: كل روح يعترف بِيَسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله».[2]

ينكشف من هذه الآيات أن المراد بالروح: النبيُ الواعظُ، إذ لو أريد الأقنوم الثالث، فما معنى لا تصدِّقوا كلَّ روح؟ أي صَدِّقوا بعضَ الأقانيم ولا تصدقوا الجميع!

وقوله: «لأن أنبياء كذبة كثيرين». يدل على أن المراد بالروح: النبي، فيردَعُهم عن الْمُتَنبِّئِين الكاذبين، وهم الذين لا يعترفون بأن المسيح جاء في الجسد، ومن يعترف بذلك فهو الصادق، وقد اعترف به محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.[3] فاعترف وأقر أنه أرسل في الجسد، وما كان أقنوما ثالثاً كما يقولون. والمراد ههنا أيضاً من الروحِ القدسِ: النبيُ الواعظُ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان نبياً واعظاً.

---

(١) حزقائيل، ص٣٧، الآية ٣١-١٤.

(٢) رحاله يوحنا الرسول الأولى، ص١-٤.

(٣) المائدة، الآية: ٧٥.

فإن قلت: قد جاء في هذه الآيات لفظ الروح المنسوبُ إلى الله تعالى: روح الحق، كما جاء في رسالة يوحنا، فكيف تريد منه روح القدس؟ قلنا: قد صرح صاحب «ميزان الحق» في «حل الإشكال في جواب كشف الأستار»: من له شعور بالتوراة والإنجيل فهو يعرف أن ألفاظ روح القدس، وروح الحق، وروح فم الله، وغيرها بمعنى روح الله. فذلك ما رأيت، إثباته ضرورياً. انتهى. فعلى هذا روحي، وروح الحق الذي هو المراد من الروح المطلق في رسالة يوحنا.(١)

الشبهة الثالثة: إن المبشَّر به عُبِّرَ عنه بالْمُعَزِّي، أي الذي يعزي ويُسَلِّي ويَرْحَمُ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مُعَزِّياً، بل صاحبَ سيفٍ وسِلاح وقتالٍ وجهادٍ.(٢)

والجواب عنه أن كونه مُعَزِّياً لا ينافي كونه مجاهداً، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان رحيماً عادلاً، لكن إذا سعت الأنفس الشريرة والأناس الْمُخربون في فساد النظام وتفكيكه، وبَغَوا على دين الله، فقتالهم والجهاد خلافَهم يطابِق روح الإسلام. أليس أن الإصبع إذا فسد دمها، و لم يبق لعلاجها سبيل يُقطَع ليبقى سائر الجسد محفوظاً من آثارها، فهذا لا ينافي الرحم والرقة، بل غاية الرحمة على أهل الإسلام أن يدفع عنهم الأعداء الكفرة الفجرة، وسيجيء تفصيله في بحث الجهاد إن شاء الله تعالى، فانتظر ولا تَعجَلْ.

الشبهة الرابعة: وهي تنشأ من قوله: «ولكن إن ذهبتُ أُرسِلُه إليكم» فإن المسيح عليه السلام لم يرسِلْ محمداً صلى الله عليه وسلم.

والجواب عنها أولاً: وهذا إلزام عليهم، أنه لو كان المراد روح القدس كما تزعمون، فكيف أرسله المسيح وهو (الروح) إله كامل، فهل أرسل الإلهَ الكامل؟ فما هو جوابكم فهو جوابنا.

---

(١) إظهار الحق بزيادة وحذف.

(٢) أورده هذه الشبهة صاحب ميزان الحق المسيحي.

وثانيا: وهذا تحقيقي، أن هذا مجاز يعني: أطلب من الله أن يُرسِلَه إليكم، والمرسِل في الحقيقة هو الله، والقرينة عليه الآية قبل ذلك «أنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر» أي المعطي هو الله وإنما أنا طالب فقط، فهذا نسبة إلى السَّبَبِ الداعي (من الدعاء) في إرسال الله إياه، أو معنى «أرسله إليكم»: مجيئه من بعده يقيناً، كأنه أرسله بعد ما ذهب؛ إذ لو لم ينطلق لم يجيء محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا يجتمعان كما مر. هذا ما سنح لي في هذا المقام، والله أعلم بحقيقة المرام.

هذه شبهات تنشأ من عبارة الإنجيل بدون نظر غائر، وههنا شبهات أخرى لا تعلُّق لها بعبارته. من شاء الإطلاع على تفاصيلها فليرجع إلى الْمُطوَّلات، وليست ههنا فُسْحة لجولانها، فلعل القراء يعذروني. وقد ذُكِرت في العهدين البشارات الأخرى تركناها مخافةَ الإطالة، والعاقل تكفيه الإشارة، والجاهل لا تُغْنيه الأسفار المبسوطة الطويلة.

وقد صَرَّح كثير من علماء بني إسرائيل بأوصاف محمد صلى الله عليه وسلم ومحامده ونبوته، وعلينا أن ننقل بعضَها تفريحاً لطبع الناظرين وتوكيداً لما مضى منا من عبارة العَهْدَين، فأخرج الدارمي وابن عساكر عن كعب رضي الله عنه قال في السطر الأول من التوراة: «محمد رسول الله عَبدي المختار، لا فَظٌّ ولا غليظٌ ولا سخابٌ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطَيبة، وملكه بالشام».(١)

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فإني لأخطب يوما على الناس، وحبر من أحبار اليهود واقف في يده سفر ينظر فيه، فناداني فقال: صف لنا أبا القاسم صلى الله عليه وسلم. فقال علي رضي الله عنه: ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، وليس بالجَعْدِ

(١) سنن الدارمي ١٧/١. والفضائل الْمحمدية، ص١٢١ ليوسف إسماعيل النبهاني.

القَطَطِ، ولا بالسَّبْطِ، هو رَجِلُ الشعر أسود، ضخم الرأس، مُشْرَبٌ لونه بحمرة، عَظْمُ الكراديس، شَثْنُ الكفين والقدمين، طويل الْمَسْرُبَة، أهْدَبُ الأشفار، مقرون الحاجبين، صَلْتُ الجبين، بعيد ما بين المنكبين، إذا مشى يتكفأ كأنما ينـزل من صبب، لم أر قبله مثله و لم أر بعده مثله. قال علي: ثم سكتُّ. فقال لي الحبر: وماذا؟ قال علي: هذا ما يحضرني. قال الحبر: في عينيه حمرة، حَسَنُ اللحية، حَسَن الفم، تام الأذنين، يقبل جميعا، ويدبر جميعا. فقال علي: هذه والله صفته. قال الحبر: وشيء آخر؟ فقال عليّ: وما هو؟ قال الحبر: فيه جنأ.[١] قال علي: هو الذي قلتُ لك. قال الحبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي، ونجده يبعَث من حرم الله، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قوماً من ولد عمرو بن عامر أهل نخل، أهل الأرض قبلهم يهود. قال علي رضي الله عنه: هو هو. قال الحبر: فإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس، فعلى ذلك أحيى وأموت، وعليه أبعَث إن شاء الله تعالى.[٢]

فالنبي الذي شهدت بنبوته الأحجار والأشجار كيف لا يعرف نبوته بنو إسرائيل، بل يعرفونه حق معرفته، بيد أن حجاب التعصب والتعامي حال بينهم وبين الحق، فلا يؤمنون، فيا بني إسرائيل اتقوا الله، واعملوا بما أمركم نبيكم، وآمنوا بالنبي الأمي الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فإن آمنتم تهتدوا، وإن توليتم فإن عذاب الله شديد، وما علينا إلا البلاغ المبين.

---

(١) هو بمعنى انحناء قليل، كما ورد: يتكفأ.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤١١/١-٤١٢، وتاريخ دمشق ٢٤٩/٣-٢٥٠، والفضائل المحمدية، ص١١٠ ليوسف إسماعيل النبهاني.

فضلية النبي محمدﷺ على سائر الأنبياء فضيلة كلية

لا ريب أن الله فضَّل بعض الأشياء على بعض، ففضَّل الإنسانَ على الحيوان، والحيوان على الجماد، والعالم على الجاهل، والذكيَّ الفَطِنَ على الغبي، والنبيَّ على الولي. وهذا ظاهر لمن تدبّر وتفكّر. وهكذا فضل بعض الأنبياء على بعض. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.[١] المراد ببعضهم ههنا هو النبي صلى الله عليه وسلم.[٢]

فمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، فإن كان آدم تَعَلَّمَ جميع الأسماء، فمحمد صلى الله عليه وسلم تعلم وعلم الكتاب والحكمة، وجرت من شفتيه ينابيع العرفان. وإن كان آدم عليه السلام نسي العهد، كما نبَّه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.[٣] فمحمد صلى الله عليه وسلم لم ينس القرآن، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾.[٤] وإن خلق الله آدم عليه السلام بيده، فقد شرح صدر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه؛ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.[٥] وإن رفع إدريس وعيسى عليهما السلام إلى الرتبة العليا، فقد رفع نبيَّنا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج إلى السموات وما فوقها إلى ما شاء الله. وإن كان موسى عليه السلام شقّ الحجر الذي من شأنه أن يخرج منه الماء فنَبَعَ منه الماء، فقد نَبَعَ من أصابعه صلى الله عليه وسلم الماء وارتوىَ منه الناسُ.

فالحاصل أنه ما من كمال أعطي الأنبياء إلا أعطي محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ منه. قال الملا علي القاري: وإنه لم يُؤتَ نبيٌّ معجزةً إلا وعند نبينا مثلها أي

(١) البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) روح المعاني ٣/٢.

(٣) طه، الآية: ١١٥.

(٤) الأعلى، الآية: ٦.

(٥) انشراح، الآية: ١.

شبيهها، أو نظيرها، أو ما هو أبلغ منها، أي دلالة كانشقاق القمر، والإسراء، ونحوهما.

وقد تحققت الفضيلة لنبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء نقلاً وعقلاً:

أما نقلاً فتدل عليها الأحاديث النبوية، منها: حديث الشفاعة الكبرى في فصل القضاء، فإن الشفاعة العظمى أعطيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولم تعط من الأنبياء أحداً. وتفصيل ذلك في كتب الحديث، وجاء ذكره مختصراً في حديث روي عن آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تَتْبَعُ نَبِيَّها يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يومَ يبعثه الله المقام الْمحمود.(١)

ومنها: أحاديث الكوثر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.(٢) إن كان المراد منه الحوض كما هو المشهور، ففضل النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء بكثرة عدد الواردين، كما أخرج الترمذي عن سمرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي حوضاً، وإنّهم يتسابقون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرَهم واردة».(٣)

ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع».(٤)

ومنها: قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».(٥)

---

(١) شرح شفا ٤٥٨/١ للعلامة القاري. والحديث رواه البخاري في التفسير، رقم:٤٣٤٩.
(٢) الكوثر، الآية: ١.
(٣) سنن الترمذي، باب ما جاء في صفة الحوض ٦٧/٢.
(٤) الجامع الصحيح لمسلم، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ٢٤٥/٢.
(٥) سنن الترمذي، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ٦٧/٢.

وأما عقلاً: فلأن نبوته شاملة عامة سرمدية أبدية دون سائر الأنبياء، فنبوة سائر الأنبياء إلى زمن معين، ونبوته صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة. تدل عليه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. وقد ذُكِر بعض ذلك. وآثار نبوته من شيوع دينه و كثرة أتباعه ظاهرة تكاد لا توجد لأحد من الأنبياء، ومن ثمه يكون صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء تابعاً كما ينطق به الحديث النبوي. فإن قيل: المسيحيون كثيرون في هذا الزمان عدداً، فكيف توجد كثرة أتباعه؟ قلنا: إن دينه منسوخ، فلا اعتبار بكثرتهم، أو نقول: ليسوا في الحقيقة أتباع عيسى عليه السلام، فإن المسيح اليسوع عليه السلام لم يكن قائلا بالتثليث والكفارة ولا بغير ذلك من العقائد الباطلة، على أنا لا نسلم كثرتهم، فإن من يتَّسِم بسِمة الإسلام كثير ممن يتسم بسمة المسيحية كما هو المشهور.

فضيلته على سائر الأنبياء من حيث المعجزاة الباهرات

فضّل الله تعالى نبيَّنا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء بالمعجزات والآيات البينات، فبعض المعجزات مما خصه الله تعالى بها لا توجد في غيره من الأنبياء. منها: معجزة القرآن، فهذه معجزة باقية إلى يوم القيامة بخلاف معجزات سائر الأنبياء، فإنها كانت باقية إلى حياتهم، فعصا موسى عليه السلام لم تبق بعد وفاته، وناقة شعيب عليه السلام لا يوجد لها أثر، والقرآن البيّن برهانُه، الواضحة آياته، المعجزة نظمه الباهرُ معجزة باقية إلى أبد الآباد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم، رقم:٦٧٣٢.

فمعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تبلغ إليها معجزات سائر الأنبياء عدداً وكثرةً وقوةً وبقاءً وتأثيراً ونفعاً، والآن نذكر بعض معجزات موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام بإزاء بعض معجزاته صلى الله عليه وسلم لتظهر مزيَّته وفضيلته، وإنما أخُصُّهما لما نحن بصدد الرد على المسيحيين المقرين بجلالة شأنهما وقوة برهانهما، ولن أريد الطعن في شأن الأنبياء ـ معاذ الله ـ فإنه كفر بوّاح، بل هما من أولي العزم من الرسل، وإنما الطعن والوقاحة يكون من المسيحيين حيث لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، مع أن الدلائل التي تدل على نبوتهما موفورةٌ في النبي صلى الله عليه وسلم. فموسى عليه السلام آتاه الله العصا فانقلبت حيةً، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾.(١) وذلك حينما برز لِمُبارزة السحرة، فغلبهم وأعجزهم، وابتلعت عصاه جميع حيات السحرة. ومحمد صلى الله عليه وسلم آتاه الله تعالى معجزةَ حنين جذع النخلة، إذ بكت لفراق محمد صلى الله عليه وسلم، فانقلاب العصا حيةً وإن كان عجيباً، لكن حنين الجزع أعجب منه؛ لأن العصا صارت إلى شكلَ حيواني، والأكل من شكل حيواني ليس بمستبعد، بخلاف حنين الجذع؛ لأنه كانت على شكل شجرة يابسة، ثم تألَّمَتْ ألَم الإنسان وبكت بكاءه، ولم تكن فيه حياة ولا شعور، بل كانت يابسة، ثم الحنينُ في فراقه صلى الله عليه وسلم ومحبته قلما يُرزق أكثر أفراد الإنسان، فضلاً عن الشجرة اليابسة.

وهكذا انظر إلى معجزة عيسى عليه السلام، فإنه أحيى الموتى كما قال الله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.(٢) لكن إحياء الشجرة أعجب منه، فإن الموتى كانوا أحياء فيما مضىَ، وسيكونون أحياء يوم القيامة، والحياة البرزخية أيضاً ثابتة على قدر المراتب، بخلاف الشجرة التي ليست فيها حياة.

وموسى عليه السلام أعطيَ معجزة انفجار الماء من الحجر، قال الله عز وجل:

---

(١) طه، الآية: ٢٠.

(٢) آل عمران، الآية: ٤٩.

﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.(١) ومحمد صلى الله عليه وسلم انفجر الماء من أصابعه المباركة. وهذا أبلغ منها؛ لأن الماء يخرج من الأحجار والأرض، ونبع الماء من اللحم والجلد والعظم أعجب منه، وكان ذلك كمال ذات النبي صلى الله عليه وسلم.

وانظر إلى معجزة عيسى عليه السلام، فإنه كان يكثر له الطعام، ولكن لم تظهر هذه المعجزة من يده وأعضائه، بخلاف تكثير الطعام للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ظهر من يده بحيث وضع يده عليه، كما ثبت في الأحاديث. وإن كان عيسى عليه السلام يَشْفى المرضى، فالنبي صلى الله عليه وسلم مس الرِجل منكسرة فعادت كما كانت وصحت بعد ما انكسرت.(٢) كما روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع، فبعد قتله سقط وانكسر رجله، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم ابسط رجلك فبسط رجله، فمسحها، فكأنما لم يشتك قط.(٣)

وههنا شبهة، وهي: أنكم تقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والرسل. ورسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار وقال: تقول والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله».(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».(٥)

---

(١) البقرة، الآية: ٦٠.

(٢) ملتقط من «حجة الإسلام» للعلامة محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، ص ١٢٢-١٢٣. كتاب جيد باللغة الأردية.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري، باب قتل أبي رافع ٢/٥٧٧.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب قول الله تعالى: وإن يونس لمن المرسلين، رقم:٣١٦٢.

(٥) المصدر السابق.

والجواب عنه من وجوه، الأول: أن النهي كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم. الثاني: أنه قاله تواضعاً ونفيا للتكبر والعجب. والثالث: أنه لا يفَضَّل تفضيلاً يودي إلى تنقيص بعض الأنبياء. الرابع: منع التفضيل في نفس النبوة والرسالة، فإن النبوة على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والمعجزات والألطاف الربانية. هذا ما لخصته من شرح الشفا للقاري رحمه الله.(١)

وفَذْلَكَةُ الكلام أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي ورسول، ثبتت نبوته عقلاً ونقلاً. تدل البشارات على نبوته مع التحريف الكبير في كتبهم، وهو أفضل النبيين وشفيع المذنبين وسيد الأولين والآخرين. اللهم ابعثنا في أمته وتحت لوائه يوم يقوم الناس لرب العالمين. ولنعم ما قال الشيخ رحمة الله الكيرانوي في إزالة الشكوك. شعر:

وہ ہے مرکز عالم کن فکاں　　وہ ہے باعث صحت جسم و جاں
چلے حکم کے ساتھ جس کے درخت　　ہوئے نقش پا بر سرسنگ سخت
کیا جس نے ماہ دو ہفتہ کے دو　　بلائے نہ کیوں عمر رفتہ کو وہ

منگا ایک برتن میں پانی قلیل　　رکھا ہاتھ اس میں باذن جلیل
ہر اك انگلی سے چشمہ جاری ہوا　　جسے جتنا منظور تھا پی لیا
حجر اور شجر نے بھی کی یہ ندا　　سلام علیك اے رسولِ خدا
وہ لاریب محبوب معبود ہے　　وہی خلقِ آدم سے مقصود ہے
مراتب ہوں اسکے بیاں مجھ سے کیا　　کہ امتی اس کے ہیں کالانبیا

---

(١) شرح الشفا ٢/٦٠٨-٦١٠.

عقيدة الكَفّارة في دين المسيحيين

قالوا: لما خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الجنة، أوصاه أن لا تأكل من شجرة اسمها في التوراة شجرةُ معرفةِ الخير والشر؛ لأنك يومَ تأكل منها تموت موتاً. فأكل منها لأجل حواء امرأته، فقال الله عز وجل لآدم: لأنك أكلت منها جعلت الأرض بسببك ملعونة، وهذا الإثم كان كبيراً وشديداً كيفاً وكماً.

أما شدته كيفاً فلأن آدم عليه السلام كان في الجنة، وفيها من الأشجار والثمرات والمآكل والملابس ما لا تحصى، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فالأكل من الشجرة المعيَّنة إثم كبير لوجود هذه التوسعة الكاملة، والنعم الوافرة.

وأما شدته كماً فإنه يشتمل على آثام مختلفة، فيه: التكبر والتولي عن حكم الله، وقلة الاعتناء والاكتراث بشأن الرب عز وجل، وفقد الإخلاص بوسوسة الحية. وفيه: السرقة؛ لأنه أخذ مال الله وتصرف فيه بلا إجازة. ولما كان الإثم شديداً كبيراً كان جزاءه على قدره؛ إذ الجزاء يكون بقدر المعصية، وهو الموت الدائمي، وسلب القوة الخيرية التي أودعت في الإنسان، وصار هذا الاثم داخلاً في جبِلّته وفطرته، ثم انتقل هذا الإثم من صلبه إلى أولاده كالمرض المتعدي ينتقل من واحد إلى آخر، فجميع أولاده أثموا وحرموا، وصار هذا الإثم سبباً للآثام الكبيرة كالقتل والزنا والسرقة وغيرها؛ لأن هذا أصل يتشعب منه الفروع.

والله تعالى رحيم يرحم عباده، فلا يتصور في جنب رحمته الكاملة أن يَدَع جميع أولاد آدم في هذه الورطة الظلماء والليلة الليلاء، فرحِمَهم وفَدَاهم، وانتخب لفدائه واختار ابنَه الوحيد وحبيبه الفريد ونَجله الْمجيد، فقُتِل على الصليب، وكان كفارة لجميع الذنوب، وهكذا تحررت رقبة كل إنسان عن هذا الحمل الثقيل.[1]

(١) خلاصة ما كتبه الشيخ محمد تقي العثماني في كتابه «عيسائيت كيا ہے؟» ما هي العيسائية والمسيحية؟ و الفاضل رشيد رضا المصري في تفسير المنار.

وصار ملعونا لأجلنا، كما قال المفسر الحوري في الصحيفة ٣٥٥: قد افتدى المسيح الذين يؤمنون به من اللعنة حتى صار لعنةً من أجلهم بتعليقه على الصليب؛ لأن كل من علق على خشبة ملعون، فالمسيح بتعلقه بخشبة الصليب جلب على نفسه هذه اللعنة أي صار ملعونا، وذلك ليُنْجِيَ الذين يؤمنون به من اليهود من لعنة الناموس، فالواجب إذن ترك الناموس (أي الشريعة) واتباع المسيح والإقامة على إيمانه، ولكن المسيح لم يُنْجِ اليهود فقط، بل قد أنجى جميع الناس من لعنة الخطيئة كما يظهر من ما يلي.[1]

تأسيس بولس الرسول لهذه العقيدة

وما ذكر من التفصيل لا يوجد في أقوال رسولهم، إلا أن بولس محرِّف الدين المسيحي نفث في قلوبهم دردبيس محبة هذه العقيدة، وأسرى فيهم حميا مودتها، فذكر هذا التفصيل في رسالته إلى أهل رومية. قال: «ولكن الله بين محبته لنا؛ لأنه ونحن بعد خُطاة مات المسيح لأجلنا».[2]

وفصلها بعد ذلك فقال: «من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيّة إلى العالم وبالخطيّة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذا أخطأ الجميع؛ فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم على أن الخطيّة لا تحسَب إن لم يكن ناموس، لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى، وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم الذي هو مثال الآتي، ولكن ليس كالخطية.

هكذا أيضاً الهبة، لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين، وليس كما بواحد قد أخطأ، هكذا العطية، لأن الحكم من واحد للدينونة. وأما الهبة فمن جري خطايا كثيرة للتبرير؛ لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد

(١) الجواب الفسيح، ص١٨٥.

(٢) رسالة بولس إلى أهل رومة، ص٥، الآية: ٨.

فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح فإذا كما بخطية واحد صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببرٍّ واحدٍ صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة، لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعِل الكثيرون خُطاةً هكذا أيضاً بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبراراً». [١]

ومن أعجب العجاب أنهم لا يكتفون بموته على الصليب، بل يجعلونه جَهَنَّمِيّاً لأجل ذلك. نقل جواد ابن سابا هذه العقيدة من كتاب الصلاة المطبوع سنة ١٥٠٦م هكذا: «كما أن المسيح مات لأجلنا ودفن، هكذا لا بد أن نعتقد أنه دخل جهنم» وقال بعد سطور: فكتب الراهب المسطور في كتابه المذكور هكذا: «الذي تألم لِخَلاصنا وهبط إلى الجحيم، ثم في اليوم الثالث قام من بين الأموات». [٢]

دلائلهم على هذه العقيدة من الأناجيل

قد ذكرنا لك أن هذه العقيدة من مبتدَعاتهم، ليس عندهم دليل على ذلك من الأناجيل الصَّحيحة في زعمهم، وما يستدلون به من كلماتها ليست صريحة في هذه العقيدة السخيفة. ولنذكرها لك ليتبين الحال ويلوح المآل، فاستمع ما يلقى عليك من المقال، والله هو الكبير المتعال.

فمن مستدلاتهم على ذلك قول المسيح اليسوع: «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك». [٣] «لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت لِيُخْدَمَ، بل لِيَخْدِمِ وليبذُل نفسه فِدية عن كثيرين». [٤] «لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يُسْفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا». [٥]

---

(١) رسالة بولس إلى أهل رومة، ١٢-١٩.
(٢) إظهار الحق ٢/٣٢.
(٣) لوقا، ص١٩، الآية: ١٠.
(٤) مرقص، ص١٠، الآية: ٤٥.
(٥) متى، ص٢٦، الآية: ٢٨.

هذا جريهم وعدوهم في مضمار الكفارة، ولو تفكرت في هاتيك الأقوال بنظر غائر لم تفهم منها إلا أن المسيح اليسوع كان مُنْجياً للعَوالِمِ ومخرجاً لهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقوله : «دمي يسفك لأجل كثيرين». يعني لو احتيج إلى سفك الدماء يسفك لدين الله. فالمراد من النجاة إخراجهم من الظلمات الكفرية بوحي أتاه من الله تعالى، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.(١)

وأما ما فهموه من انتقال الإثم الأصلي من آدم إلى آخر ما فصَّلوه، فأين له ذكر على هذا الْمِنوال على أنها عقيدة عليها مدار النجاة عندهم، يجب أن يبيَّن بياناً كاشفاً، ويفصَّل تفصيلاً تاماً، كما أن العقائد الإسلامية من التوحيد والرسالة والقيامة وغيرها مما يتوقف عليه النجاةُ مُبَيَّنَةً في القرآن بالكشف التام الحسن الانسجام. ولعل بولس رئيسهم أخذ هذه العقيدة من الوَثَنِيِّيْن، أو اخترعها إرضاءً لهم، لأنها توجد في دين الوثنية. واستشهد عليه صاحب المنار وإليك بعضها: قال هوك في صحيفة ٣٢٦ من الْمجلد الأول من رحلته: «ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة، وتقديم نفسه ذبيحةً فداء للناس من الخطيئة».(٢) وقال دوّان في كتابه «خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى» ص١٨١-١٨٢ ما تلخيصه: أن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنين وغيرهم.(٣)

---

(١) المائدة، الآية: ٤٦.

(٢) تفسر المنار ٣٢/٦.

(٣) تفسر المنار ٣٢/٦.

هذه عقيدتهم. والمسلمون لا يعتقدون بها، بل يخالفونها أشد مخالفة، ولا يسلمون أن عيسى عليه السلام قتل، بل رفع إلى السماء. وما بيَّنوا من القصة الطويلةِ أفتى بها قلوبُهم وأفكارُهم، لا شريعتُهم.

والآن نبين قبائحها وفضائحها، فنقول **أوّلاً**: هذه العقيدة باطلة تضحك منها الصبيان والسفهاء، فإنه لما عصى آدم كما تقولون بأكل شجرة وتاب، إذ مِن البعيد أن لا يتوب، وحياة الأنبياء تكون منبعا للاستغفار والتوبة، فإن قُبِلَتْ لا حاجة إلى الفدية واللعنة والعذاب الدائم، وإن لم تُقْبَل فهذا بعيد عن شأنه وعن رحمة الله تعالى، إذ هو بعباده رحيم كريم. فقد قيل في حزقيال: «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي وفعل حقا وعدلاً، فحياة يحيي لايموت، كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه في بِره الذي عمل يحيى».[(١)]

وثانياً: فقد ذكر في التوراة جزاءُ هذهِ المعصيةِ (أكلِ الشجرةِ) الْمِحَنُ الشاقةُ لتحصيل الرزق والكفاف، كما في سفر التكوين: «تأكل منها كلَّ أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل، بعَرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذتَ منها».[(٢)]

وثالثاً: فإنا لوسلمنا أن القتل جزاء المعصية، فهل يصح أن يعصيَ واحد ويتحمل عقابه آخر؟ هذا يخالف ما في كتاب حزقيال عليه السلام: «النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».[(٣)] والمعقول أن من تولى عن حكم ربه يجب أن يعاقَبَ هو، لا أن يعصي واحد ويعذَّب آخر. وهذا الحكم موجود في القرآن أيضاً حيث قال الله عز وجل: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.[(٤)]

---

(١) حزقيال، ص١٨، الآية: ٢٠-٢١.
(٢) تكوين، ص٣، الآية: ١٧-١٨.
(٣) حزقيال، ص١٨، الآية: ٢٠.
(٤) الأنعام، الآية: ١٦٤.

ورابعاً: لو سلمنا أن جزاء رجل يلقى على آخر، فالأنسب أن يلقى على ابنه المولود المخلوق من صلبه وهو من جنسه، لا على اليسوع ابن الله الذي هو من جوهر أبيه أي الله. وإن قلت: إنه ابن الله وهو الصالح لهذا. قلنا: أليس عندكم في التوراة أن إسرائيل بكر الله فهو أولى في الجميع.

وخامساً: ما تقولون فيمن مات قبل المسيح؟ هل ماتوا بغير توبة، أم آمنوا وتابوا؟ فلو ماتوا بغير توبة يخالف الكتابَ المقدس، لما في كتاب حزقيال: «إذا رجع الشرير عن شرارته فيغفر». واجتماع الجميع على عدم الإنابة والتوبة مُحال، وإن ماتوا تائبين فقد اعترفتم بأنه لا حاجة إلى قتل المسيح عليه السلام وصلبه.

وسادساً: لو قلنا: إن في دم المسيح الخلاص. نسأل هل يكفّر دمُه بغير توبة أو معها ؟ فإن كفّر بدون توبة خلتْ عن الفائدة، بل يلزم أن ينجُوَ فرعون ونمرود، وإن كانت معها، إذاً لا يكون كافياً ما لم يُضَمُّ إليه التوبة، فينتقص عن مقابلة آدم عليه السلام إذ لم تذكر توبتُه في التوراة، وفيه العَجز عن خلاصه لو لا التوبة، ومن عجز عن خلاص عبد واحد، فإنه عن خلاص سائر العباد أعجز.[1]

وسابعاً: لو سلمنا أن المسيح كفارة للكل فما معنى الآية المذكورة في كتاب الأمثال: «الشرير فدية الصديق ومكان المستَقِيمين الغادر».[2] يعلم من هذه الآية أن الشرير يفدى بالمتقي، فهل يكون المسيح عندكم شريراً، بل فداء الشرير بالطاهر قريب إلى الفهم؛ لأن الشرير لشرارته يعقل أن يلقى عليه العذاب، لكن ما بال الطاهر المطهر أن يعذّب ويعاقب! والمسيح طاهر، بل هو عندكم إله لا يتصور أن يصدر منه الإثم.

---

(١) الجواب الفسيح ملخصاً، ص١٨٧.

(٢) أدلة اليقين، ص٢٣٥.

شعر:

الجھا ہے پاؤں یار کے زلف دراز میں　　لو آپ اپنے دام میں صیاد آ گیا

وثامناً: هذه الكفارة لمن آمنَ به أو لمن آمن وكَفَر جميعا؟ فإن كان لمن آمن فقط لم يحصل المقصود؛ إذ المقصود قلع الخطيئة الأصلية وكفارتها، و لم يقطع، بل وجدت في أكثر الأفراد؛ إذ من كَفَرَ به أكثر ممن آمن، وإن كان للجميع دخلت فيه اليهود التي صَلَبَتْه وقتلته، فما بالكم تذمونهم وهم لا يستحقون الْمَلامَ.

وتاسعاً: أن المصلوب إله، فقد قال البادري فندر في «ميزان الحق»: الذي مات على الصليب بناسوته كان إلها تاماً كما كان إنساناً تاماً.

وعاشراً: إن هذه العقيدة تَمَسْخُر وسبيل إلى الإباحة المطلقة، وسبيل إلى اتباع الشهوات ليرتكبوا المعاصي ويقولوا: صار المسيح كفارة عنا. فالله يكفينا عنهم، والذي أظن، بل أتيقن أن بولس اخترع هذه المسئلة ليُخلِص نفسه وإياهم عن العبادات، ويتبع الشهوات، وينغمس في القاذورات. فهاتيك المسئلة أظهرت خبثَهم الباطنَ وتركهم السنة السَّنية النبوية المسيحية. تلك عشرة كاملة. ولنعم ما قيل:

بر چاکہائے پیرہنم ناصحا مخند　　این چاک سینہ بود کہ تا پیرہن رسید

وأحسن الله جزاء من قال:

هذا لعمركم الهوان فبئسما　　نقل العداة بزعمهم في ربها
جَعلوه يفدي عبده بمماته　　يا عجبَ ذاتٍ نفعها في ضرها
لعن الإلهُ الزاعمين بأنهم　　قتلوه من فئة اليهود وحزبها
وكذاك من فئة الضلال وكلهم　　سفها تساوَوا في المقالة كلها
سوقا لهم ضلوا السبيل و زينت　　آرائهم مــا زيَّنت تعسا لها

عقيدة الصليب

يعتقدون كما ذُكِر في أناجيلهم أن المسيح صُلِب على أيدي اليهود، وتَوَّجُوه تاجَ الشوك وأهانوه. وبيَّنوا وجهَه أن آدم لما عصى بالأكل من الشجرة الْمَنهية صار هو وجميع أفراد ذريته خطّائين يستحقون العقاب، والله تعالى متصف بالعدل والرحمة، فإن عاقَب الجميعَ ينافي الرحمة، ولو نجىَّ الجميع ينافي العدل، ففكَّر الإله في حل هذه العُقدة بأن حَلّ في بطن مريم واتحد معها وتولّد منها، فيكون إلهاً كاملاً، وإنساناً كاملاً، معصوماً من جميع الخطيئات. والله تعالى متصف بالعدل والرحمة فأنصَفَ بأن عاقب ابنه وقَتَلَه وصلَبه، وصار فدية لذرية آدم، وترحَّم بأن جمع جميع عِقابات بني آدم في ذات واحدة.

هذا قولهم الباطل، ومذهبهم الزائل، وهذه عقيدة ضرورية من ضروريات دينهم لا يقبَلها العقل والنقل، ويرد عليها ردود:

الأوّل: إن الله تعالى عادل ورحيم، ولا يتوقف عدله ولا رحمه على صلب المسيح، بل يكتفي لذلك إخراج آدم من الجنة، كما هو المسلَّم عند الفريقين، فإن العدل يمكن بأن أخرج آدم من الجنة، والإخراج من الجنة لِنَبيٍّ ذي شأن عدل في حقه، ورَحِم بأن قبل توبته، كما حكى الله عنه في القرآن الكريم بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.(١) بل نقول: إن تعذيب عيسى عليه السلام ليس بعدل؛ لأن المعصية صدرتْ عن آدم، ويعاقب عيسى، كما أمر السيد غلاماً بأمر وعصى، فعاقب غلاماً آخر، هل يكون هذا عدلاً؟ لا، بل ينكَر عليه، وينسَب إلى الظلم والجهل، بل الحمق والسَّفَه، نعوذ بالله أن نعزو الجهل والحمق إلى عالم الغيب والشهادة، بل من تيفوَّه به جاهل أو متجاهل، بل عارٍ عن جوهر العقل. ولا عجب فيه، فإن الوقاحة مسلكهم، والسبَّ والشتم مذهبهم، وليس هذا الصنيع برحم، بل هو ظلم على طاهر لم يذنِبْ قط، على ما تقولون.

---

(١) البقرة، الآية: ٣٧.

والثاني: إن هذه العقيدة تشتمل على حلول الرب في بطن مريم، وهذا باطل يَمُجّه العقل السليم؛ فإن حلوله في بطن امرأة وكونه بشراً يأكل ويشرب، ثم يأخذه الأعداء ويهينونه ويُذِلّونه وَقاحة تتنفر منه الطباع السليمة.

الثالث: يلزم منه عَجز المولى؛ لأنه عَجَزَ عن مقاومة الأعداء وصاح: إيلي إيلي لما شبقتني، فهلا يهلكهم ويستأصلهم ويقلع عِرقهم.

الرابع: تفضي هذه العقيدة إلى الإباحة المطلقة، فإن الخلق لما نَجَوا من الآثام بهذه العقيدة تجاسروا على المعاصي، فيفعلون ما يشاءون بلا خوف ولا خطر، ويكون غير الصَّلِيْبِيِّ كالصَّلِيْبِيِّ، والزاني كغيره، فلا يبقى الفرق بين الطاهر وغيره، فاسئلوا أهل العلم إن كنتم لا تعلمون.

الاستدلال من الكتاب المقدس على أن المسيح لم يُقتَلْ

الآن نستدل من الكتاب المقدس على أن المسيح لم يُصلَب و لم يُقتَل على الصيب، ليكون حجةً عليهم. ومن يضلل الله فما له من هاد. قال متى: «كان يصلى قائلاً: يا أبتاه! إن أمكن فَلتَعبُرْ عني هذا الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت».(١)

وفي مرقس «ثم تقدم قليلاً وخر على الأرض، فكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن وقال: يا أبا الأب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذا الكأس».(٢)

يعلم من هاتينك الآيتين أن المسيح عليه السلام دعا ربه بتضرع وسجد في حضرته بأن يعصمه من المنية ويحفظه من البلية، وقد استجاب الله دعاءه وعَصَمَه عن

(١) متى، ص٢٦، الآية: ٣٩.

(٢) مرقس، ص١٤، الآية: ٣٦.

أيدي الأعداء ورَفَعه عنده إلى السماء. فقد قال بولس في رسالته إلى العبرانيين: «إذ قدم بصُراخ شديد ودموعٍ طِلْباتٍ وتضرُّعاتٍ للقادر أن يُخَلِّصَه من الموت، وسمع له لأجل تقواه».[(١)]

فبعد دعائه وإجابته لا يمكن لعاقل أن يشك في أنه نجا من القتل، ولطف الله به كما لطف بإبراهيم بأن قدم كبشا إليه بدل الولد، كما هو المذكور في سفر التكوين. ومما يدل على أنه نجا من الموت قول يوحنا: «فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانا يسيراً بعدُ، ثم أمضي إلى الذي أرسلني، ستطلبوني ولا تجدوني وحيث أكون لا تقدرون أنتم أن تأتوا».[(٢)]

سجّل المسيح عليه السلام بأنهم يطلبونه إلا أنهم لا يجدونه ولا يصلون إلى مرامهم. فيفهم من هذا القول من له أدنى حظ من العقل أن الله تعالى حفظه من مكرهم. وقال يوحنا في موضع آخر: «قال لهم يسوع أيضاً: أنا أمضي وستطلبونني وتموتون في خطيّتكم حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، فقال اليهود: لعله يقتل نفسه حتى يقول «حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال لهم: أنتم من أسفل أمّا أنا فَمِنْ فوق».[(٣)]

وهذه الكلمات نص في نجاته، وجواب شاف لشبهتهم، فإن قتل الإنسان يتصور إما من الغير ونفاه بقوله: «لا تقدرون». وإما بيده ورده بأني لا أقتل نفسي بل أذهب إلى السماء. وهذا ظاهر، يفهمه الصبيان والْمجانين فضلاً عن المسيحيين الذين يدعون التحقيق في كل الميادين.

---

(١) رسالة بولس إلى العبرانيين، ص٥، الآية: ٧.

(٢) يوحنا، ص٧، الآية: ٣٣.

(٣) يوحنا، ص٨، الآية: ٢١-٢٤.

إشارات الكتاب المقدس على أن المقتول هو الشبه لا المسيح

الإنجيل مشحون بإشارات تدل على أنه ليس بمصلوب، وهذه الإشارات تستنبط من أمور فاحفظها:

الأول: أنه لا شك أن الملك والسلطة كان للروميين على بني إسرائيل، وهم كانوا أجانب عن اليهود مستنكرين لهم، لا يعرفون أطوارهم وأشكالهم. قال متى: «فأوثقوه ومضَوا به ودفعوه وأتوا به إلى بيلاطس النبطي الوالى». ولهذا سألوا عن شخصه من حوارييه، وأخذوا يهوذا وأعطَوه ثلاثين درهما، وإلا فما الحاجة إلى هذه الحيلة وإعطاء الدراهم بلا فائدة وعائدة!

الثاني: الجنديون الذين دخلوا الدار كانوا لا يعرفونه، وكانوا أجانب.

الثالث: أن المسيح كانت له ملكة تبديل الهيئة، كما سيجيئ.

الرابع: المسيح السيوع لم يحمل صليبه، بل حملوا صليبَه على رجل آخر اسمه سمعان. قال متى: «وفيما هم خارجون وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان، فسخَّروه ليحمل صليبَه».(١)

فيحصل من هذه الأمور أن المسيح بدَّل هيئته وغيَّر صورته، كما هي معجزته، أو كان على هيئته، لكن لم يعرفه الأجانب ووقع عليهم الاشتباه، أو ظنوا أن حامل الصليب هو المسيح حسبَ القانون السابق ذكرُه، وفي الحقيقة كان رجلاً آخر غير المسيح، فأخذوا هذا الرجل وصلبوه وقتلوه. وحفظه الله من مكر الأعداء.

وههنا سؤال ظاهر، وهو أنه لما أصعِدَ وحمِلَ على الصليب، فالظاهر أنه صاح وقال: إني لست الْمَحكومَ عليه بالقتل وارتفع الصليب.

والجواب أولاً: أنهم لا يفهمون كلامه لتغاير الألسنة واللغات. وثانيا: اجتمع أناس كثيرون، وكثرت الصِّياح بحيث لا يسمع فيها كلام أحد، كان الأمر هكذا

(١) متى، ص ٢٧، الآية: ٣٢.

في الطريق، وأما في الدار فلم يكن إلا أشخاص قليلون، وإن قيل: هذا الآخر كان معصوماً، وقتل المعصوم ظلم. قلنا: لعله كان خاطئا عاصيا، فقتل موافقا لما في كتاب الأمثال «إن مكان التقي الغادر». أو أسلم نفسه فداءً عن المسيح طلباً للأجر الجزيل وجنة النعيم، أو كان منافقا فجوزي في الدنيا، أو كان طاهراً لكن فديته عن المسيح كفدية المسيح عن المخلوق عندهم، وكان طاهراً مطهِّراً إلهاً بزعمكم.[(١)]

شبهاتهم في مسئلة الصليب

الشبهة الأولى: لو قلنا: صُلِب الشِّبْهُ مكان المسيح لارتفع الأمان عن الحس، وهذا بعيد وشنيع؛ لأنه يمكن أن يرى الرجل زوجته ولا تكون زوجته أو ابنه ولايكون ابنه، بل هذا مقدمة لكثير من المفاسد والشرور.

والجواب عنه أن يعد هذا من معجزاته عليه الصلاة والسلام، وله معجزات كثيرة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لم تحصل لغيره، فهو من هذا القبيل. وقد مَنَحَه الله تعالى القدرة على تغير الهيئة. قال متى: «وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئتُه قُدّامهم، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور».[(٢)] وفي لوقا: «وفيما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه بيضاء لامعاً».[(٣)] وفي مُرقُص: «وتغيرت هيئتُه قدامهم، وصارت ثيابه تلمع بيضاء جداً كالثلج، لا يقدر قصار على الأرض أن يُبَيِّضَ مثل ذلك».[(٤)]

---

(١) أكثره مستفاد من التفسير الماجدي للشيخ عبد الماجد الدريا آباي ٨٢٥/١-٨٣٠.

(٢) متى، ص١٧، الآية: ١-٢.

(٣) لوقا، ص٩، الآية: ٢٩.

(٤) مرقس، ص ٩، الآية: ٣.

وقولهم: «هذا التغير بعيد» ليس بسديد؛ لأن انقلاب عصا موسى عليه السلام حيواناً أبعد من ذلك، فإن تغير هيئة إنسان وتشكُّله بشكل إنسان آخر أقرب، وليس بأغرب من تغير الخشبة اليابسة بلا روح إلى حيوان يضطرب. قال في الجواب الفسيح : وإذا صح عند النصارى انقلاب الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه في العَشاء السِّري لِمَ لا يمكن أن يوقَعَ شِبْهُه على أحد.(١)

الشبهة الثانية: أن واقعة القتل نقله عدد كثير لا يجوز العقل تواطئهم على الكذب، فهو متواتر وإنكار المتواتر مكابرة.

والجواب عنها أن الْمُتواتر له شروط لا توجد في هذا الموضع قط، وهي على ما بيّن في أصول الحديث أربعة: كثرة عدد الرواة بحيث تحيل العادة اجتماعهم على الكذب، واستواء الطرفين والوسط وانتهاءه إلى الحس. قال السيد السند في مختصر الجرجاني: الخبر المتواتر: ما بلغت رواته مبلغاً أحالت العادة تواطئهم على الكذب، ويدوم هذا فيكون أوله كآخره ووسطه كطرفيه. قال الشيخ اللكنوي في شرحه: اعتبروا في كون الخبر متواتراً شروطاً أربعة: أولها: كون عدد الرواة غير محصور أي لا يشترط فيه حصر العدد، لا أنه يشترط فيه عدم الحصر. وثانيها: كون عدد رواته بحيث تحيل العادة تواطئهم على الكذب. وثالثها: رواية مثل هذا العدد عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء. ورابعها: أن يكون الخبر مستنداً في الانتهاء إلى الحس من مشاهدة أو سماع.(٢) وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: فإذا جَمَعَ هذه الشروطَ الأربعةَ وهي: ١- عدد كثير أحالت العادة تواطئهم على الكذب. ٢- رووا ذلك عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء. ٣- وكان مستند انتهائهم الحس. ٤- وانضاف إلى ذلك أن يَصْحَبَ خبرهم إفادةَ العلم لسامعه، فهذا هو المتواتر.(٣)

---

(١) الجواب الفسيح، ص١٨٠.

(٢) ظفر الأماني بشرح مختصر الجرجاني للإمام المحدث الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص٣٤-٣٧، ملخصاً.

(٣) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ص٨ .

وهذه الشروط كلها لا توجد ههنا، لأنا لا نسلم أن العدد الداخل عليه في الدار كان غير محصور، فإن الذين دخلوا على عيسى عليه السلام وزعموا قتله كانوا سبعة أوستة.[(١)]

ولو سلمنا كثرة اليهود، فلا يوجد شرط ثان ـ وهو أنه لا يحيل العقل تواطئهم على الكذبـ، فإن اليهود كانوا يخالفون المسيح أشد مخالفة، ومع الاختلاف الشديد وإرادة القتل ووضع الشوك واللطم وحمل الصليب يحكم العقل بأنهم كذبوا وقالوا: إنا قتلنا المسيح. وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه. قال الآلوسي رحمه الله: فلا يبعد أن تكون هذه العِصابة من اليهود صلبوا شخصا من أصحاب يسوع وأوهموا الناس فيه المسيح لتتم لهم أغراضهم.[(٢)]

ولو سلمنا هذا، فلا يوجد الشرط الثالث ـ وهو أن يكون الطرفان والوسط سواء أي كما أن المخبرين في أول الوهلة كانوا كثيرين لا يمكن توافقهم على الكذب، كذلك توجد في الوسط كثرة لا يظن عليها الكذب، وهذا كالعنقاء ههناـ، فإن الوسط خال عن التواتر؛ لأن بخت نصر قَتَلَ اليهود واستأصلهم بحيث لم يبق لهم نسل كما يشهد به التاريخ. قال الشيخ عبد الحي: ثم أن بُخْتَ نَصر قتل اليهود، وكسر أصنامهم، وحرق كنائسهم فانقطع عِرق اليهود ولم يبق منهم إلا شرذمة لا يحصل العلم الضروري بخبرهم، فلا يكون خبر اليهود متواتراً.[(٣)]

وقال العلامة الآلوسي: على أن الأخباريين ذكروا أن بُخْتَ نَصر قتل علماء اليهود في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنهم حَرَّفوا التوراة وزادوا فيها ونقصوا، حتى لم يبق منهم إلا شِرذمة.[(٤)] ولا يوجد يهودي ولا نصراني على وجه الأرض يروي

(١) ظفر الأماني، ص ٢٨.
(٢) روح المعاني ٣/١٨١.
(٣) ظفر الأماني، ص ٣٨-٣٩.
(٤) روح المعاني ٣/١٨١.

التوراة والإنجيل عدلاً عن عدل إلى موسى أو عيسى عليهما السلام، وإذا تعذرت عليهم رواية العدل عن العدل فأولى أن يتعذر التواتر.

ولو سلمنا الشرط الثالث، فلا يوجد الشرط الرابع ـ وهو انتهاءه إلى الحس ـ بأنه عيسى عليه السلام، فإن الحسّ إنما يتعلق بأن شخصا مصلوب ولا ننكره، بل نقول به أيضاً، وأما أنه عيسى عليه السلام أو غيره، فلا يتعلق بالحس؛ لأن الله تعالى حفظه من كيدهم، وأخبَرَنا به في القرآن، وألقي شِبهه على رجل آخر، وهو اللائق بشأنه الكريم ولطفه العميم على أنبيائه وأصفيائه وخاصَّةِ عباده.

الشبهة الثالثة: استدلالاتهم بالقرآن الحكيم كقوله تعالى شانه: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.(١) قالوا: يعلم فيه أنه توفي على الصليب، ثم رفع إلى السماء. وقبل أن نرد على هذا ونجيب عن استدلالهم نمهِّد تمهيدا ونقدِّم مقدمة، ليشبع الكلام في هذا المرام؛ فإن كثيراً من العقلاء قد ضلوا وزلوا في هذا المقام، فلا تُمِلْ من التطويل، فإن المقام يطلب التفصيل، وهو: إن الناس كانوا في عيسى عليه السلام فرقتين: فاليهود وجمهور المسيحيين يقولون: إن المسيح اليسوع قتل على الصليب ثم دُفِن ورُفِع بعد ثلاثة أيام. وإنما قلنا: جمهور المسيحيين، لمخالفة بعض النصارى كما قال السيد رشيد رضا رحمه الله: فقد أنكر الصلب منهم فرقة السيرنثين، والتاتيانوسيّين أتباع تاتيانوس تلميذ يوستيونس الشهيد.(٢)

والمسلمون يعتقدون أنه لم يقتل و لم يصلب، ولكن رفعه الله تعالى وحفظه من الصلب والقتل، ثم ينـــزل قبل قيام الساعة، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم من السماء وإمامكم منكم».(٣) ويعيش أربعين

---

(١) آل عمران، الآية: ٥٥.

(٢) تفسير المنار ٦/٣٤.

(٣) الجامع الصحيح لمسلم، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا، رقم:٢٢٢.

سنة، أو خمسا وأربعين سنة، كما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينـــزل عيسى بن مريم إلى الأرض، فيتزوج ويولد له، ويمكث خمسا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى بن مريم في قبر واحد بين أبي بكر وعمر». رواه ابن الجوزي في كتاب الوفاء.[١] وينـــزل عند الْمَنارة الشرقية من دِمشق، كما روي عن نواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فيبعث الله المسيح بن مريم فينـــزل عند المنارة البيضاء الشرقيَّ دِمشقَ بين مَهرودتَين واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكين».[٢] كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليُهِلَّنَّ ابن مريم بِفَجِّ الرَوْحاء حاجّاً أو معتمراً أو لَيُثْنِيَنَّهُمَا».[٣] ويجاهد في سبيل الله، ويقتل الخنـــزير، ويكسر الصليب، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـــزل فيكم ابنُ مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنـــزير، ويضع الجزية، ويَفيضُ المالُ حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.[٤]

هذه عقيدة المسلمين. وقد ظهرت فرقة تسمى بالقاديانية، رئيسهم غلام أحمد القادياني يزعم أنه المسيح الموعود، ويعتقد أن المسيح لم يقتل على الصليب، بل نَجّاه الله من القتل، ثم توفي أي مات حتفَ أنفه، وقبره في كشمير. وإليك خلاصة بعض كتبه في هذا الباب:

(١) مشكاة المصابيح، ص٤٨٠.

(٢) الجامع الصحيح لمسلم ٢/٤٠١.

(٣) الجامع الصحيح لمسلم ٢/٤٠٨.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام، رقم: ٣١٩٢.

أصدر علماء اليهود فتوى قتل المسيح، وكانت معه جماعة قليلة تؤيده، وهم حواريُّه فكفروه ليبغِضه العوامُّ ولا يؤمنوا بمعجزاته، فقالوا: اصلبوه ليكون ملعونا، فأعطوا لأحد حوارييه اسمه يهوذا روبيات ليسلمه، فخاف المسيح من اليهود وغلب عليه ضعف البشرية وقال: إيلي إيلي لِما شَبَقْتَني، يعني يا الله لم تركتني، فاستجاب الله دعاءه ونَجّاه من القتل، فأصعدوه على الصليب مع السارقَين الآخرين. واتفق أنه جاءت ريح عاصفة شديدة وأظلم الفِضاء، فخافوا من أن يتَّهموا بالقتل، فأنزلوه مع السارقين من الصليب، ثم ضربوهما، وبعد ضربهما ضربوه ضرباً شديدا، فقال شرطي: لقد مات فلا تكسروا عظامه، فبقي حيا ولم يمت، ولما نَجَى من الصليب جاء إلى نصيبين وأفغانستان، ومنه إلى جبل نعمان، وبعد مدة جاء إلى فنجاب، وآخراً رَحَل إلى كشمير ومات فيه، ودفن في بلدة «سري نكر» حين كان عمره مئة وعشرين سنة. هذا التفصيل مذكور في كتبه، أكثره في «إزالة الأوهام».[1]

قال اللعين: ولما كان المذكور في التوراة: أن من صلب لا يُرفَع رفعاً روحانياً، كذَّبهم الله بأن صلب عيسى ورفعه إليه رفعاً روحانياً. فالمراد من الرفع عنده الرفع الروحاني، لا الجسماني، هذا قوله الباطل، وزعمه الزائل الْمُضْمَحِلُّ.

وإذا تمهد هذا فنقول رداً على الفريقين، وقدحاً على المسلكين: الجواب عن إستدلالهم بقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[2] الخ. إن الاستدلال لا يصح بلفظ التوفي، وإنما يقعون في الفتنة العمياء ويخبطون خَبْطَ عَشْواءَ[3] بلفظ «التوفي» فنقول: هذا من الوفاء، والوفاء معناه الحقيقي: أخذ الشيءِ وافياً كاملاً. وتراد المعاني الأُخر بالقرائن. قال السيد محمد

(١) توضيح الكلام في حيات عيسى عليه السلام.

(٢) آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) يَخبِط خَبْطَ عَشْواء: يضرب للذي يعرض عن الأمر كأنه لم يشعر به، ولمن يدخل في أمر بغير بصيرة. راجع: مجمع الأمثال ٢/٤١٤.

مرتضى الزَّبيدي: فاستوفاه وتوفاه: أي لم يدع منه شيئاً، فهما مطاوعان لأوفاه. ومن الْمجاز أدركته الوفاة، أي الْمَنِيَّةُ والموت.(١)

علم من هذا أمران، أحدهما: أن معنى التوفي أخذ الشي وافياً. والثاني: أن الموت معنى مجازي يراد عند القرينة، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾.(٢) فالمراد ههنا في الموضع الثاني أخذ الروح التميزي بالنوم. ويراد منه الموت في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ (٣)بقرينة ملك الموت. والمراد منه الأخذ وافياً في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾.(٤) إذ لو أريد الموت يكون المعنى: حتى يميتهن الموت، وهذا ليس من البلاغة في شيء.

والحاصل أن التوفي معناه: أخذ الشيء وافياً، ويستعمل للموت والنوم بقرائن وشواهد، والمراد منه الأخذ وافيا في الآية المذكورة بقرينة ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.(٥) فإن الرفع معناه «برداشتن»، ونسب إلى ضميرٍ وهو «ك» وهو الجسم والروح، فالمراد رفع الروح مع الجسم، وهو الأنسب للمقام، فإن النصارى كانوا يقولون برفع روحه، فرد الله عليهم بأنا رفعنا جسده مع روحه إعزازاً له، والرفع إذا أضيف إلى الأجسام يراد به إعلاؤه لا رفع الروح فقط، كما قال الراغب: الرفع تارة يقال في الأجسام الموضوعة إذا أعليتَها عن مَقَرِّها، نحو ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.(٦) وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.(٧) وتارة في البناء إذا طوَّلتَها، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.(٨) وتارة في الذكر إذا نَوَّهْتَه،

(١) تاج العروس ٤٠/٢٢٠، مادّة: وفي.
(٢) الزمر، الآية: ٤٢.
(٣) السجدة، الآية: ١١.
(٤) النساء، الآية: ١٥.
(٥) آل عمران، الآية: ٥٥.
(٦) البقرة، الآية: ٦٣.
(٧) الرعد، الآية: ٢.
(٨) البقرة، الآية: ١٢٧.

نحو قوله تعالى:﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَك﴾.(١) وتارة في المنـــزلة إذا شرَّفتَها، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.(٢) و﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾.(٣) و ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾.(٤)

وأراد من الرفع الرفعَ الجسمانيَّ مجدِّدهم(٥) (القاديانيون) الكبير العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى فقال في حديث طويل: فألقي عليه شِبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم.(٦) فإرادة الرفع الروحاني مخالفة للنصوص القطعية، والأحاديث المتواترة، والآثار المرفوعة.

وقد أجاب عن استدلالهم بهذه الآية العلامة الآلوسي بأجوبة مختلفة كلها حسنة، فاقرءها وضعها في خزينة ذهنك، فقال في ذيل قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾.(٧) قال:

أوّلها: هذا من المقدم والمؤخر، أي رافعك إليّ ومتوفيك.

وثانيها: إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك، لا أسلط عليك من يقتلك، فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء.

وثالثها: أن المراد: قابضك، ومستوفي شخصك من الأرض، مِن توفى المال بمعنى استوفاه.

---

(١) الشرح، الآية: ٤.
(٢) الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) الأنعام، الآية: ٨٣ .
(٤) غافر، الآية: ١٥. مفردات غريب القرآن للإمام الراغب الأصبهاني، ص٢٠٠.
(٥) عدّ القاديانيون الحافظ ابن كثير في المجددين.
(٦) تفسير ابن كثير ٥٨٨/١.
(٧) آل عمران، الآية: ٥٥.

ورابعها: أن المراد بالوفاة هنا: النوم؛ لأنهما أخوان، ويطلق كل منهما على الآخر. وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقاً به، وحكي هذا القول والذي قبله أيضاً عن الحسن.

وخامسها: أن المراد: أجعلك كالمتوفي، لأنه بالرفع يشبهه.

وسادسها: أن المراد: آخذك وافياً بروحك وبدنك، فيكون ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ كالمفسر لما قبله.

وسابعها: أن المراد بالوفاة: موت القُوى الشهوانية العائقة عن إيصاله بالْمَلكوت.

وثامنها: أن المراد: متقبل عملك.[١]

وهذه المعاني كلها يمكن أن توخذ، وإن كان في البعض بعد، وقد انقطع بها عرق شبهتهم، والراجح كما قال القرطبي: إن الله رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس.[٢]

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[٣] تطهيره ورفعه إلى السماء، ونجاته من أيديهم النجسة، كما قال العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون تطهيره على تبعيده منهم بالرفع، ويحتمل أن يكون بنجاته مما قصدوا فعله به من القتل.[٤] وإنما سماه تطهيراً؛ لأنهم نجس، أو فعلهم نجس، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.[٥] لا كما قال المرزا القادياني: إن التطهير من التهمة؛ فإن هذا حصل قبل ذلك في المهد، إذ كلم في المهد صبيا. والله أعلم.

---

(١) روح المعاني ١٧٩/٣.
(٢) روح المعاني ١٧٩/٣.
(٣) آل عمران، الآية: ٥٥.
(٤) روح المعاني ١٨٣/٣.
(٥) التوبة، الآية: ٢٨.

الاستشهاد من القرآن الكريم على أن المسيح لم يقتل

والآن نَقْرَعُ سمعك ونُسمِعك تفصيل هذه المسئلة، أي مسئلة حياة المسيح عليه السلام، ونوردها بدلائلها؛ لأن هذه المسئلة تنازع فيها المسلمون والقاديانيون وتجاذبوا وتباحثوا وتدافعوا، والحق إن الإسلام يعلو ولا يُعْلى، فنذكر بعض الآيات القرآنية التي تدل على رفعه وعدم صلبه ولا موته على الصليب. والموضوع ينقسم على قسمين:

الأول: الاستشهاد على أنه لم يصلب، وقد اعتقد القاديانيون ومتبوعوهم فيها المسيحيون أنه صلب.

والثاني: الاستشهاد على أنه لم يقتل على الصليب، وهذا مختلف فيه بين المسيحين والمسلمين فقط؛ فإن القاديانيين فيها مع المسلمين، ويعترفون أنه لم يقتل على الصليب، بل مات على السرير.

أما الموضوع الأول، فنستشهد فيه **أوّلاً** بقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.[1] قال الرازي: المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل، ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير.[2] فمعناه حينئذ: دبَّروا إيصال الشر إلى عيسى عليه السلام وسعَوا فيه، لكن خذلهم الله وجازى مكرهم بأن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وصُلب رجل آخر مكانَه، فغلب مكره على مكرهم، كما هو عادة الله تعالى يُدَمِّر من يمكر في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.[3] وفي مقام آخر ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.[4] وفي موضع آخر: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ

(١) آل عمران، الآية: ٥٤.
(٢) تفسير كبير ٤/٢٢٥.
(٣) فاطر، الآية: ١٠.
(٤) الأنبياء، الآية: ٧٠.

مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُوْنَ﴾.(١)

يقول هذا المردود القادياني: إن مكر الله بإزاء مكرهم هو رفع عيسى عليه السلام بالروح، وهذا باطل؛ لأن مكرهم وخديعتهم تصليب الجسد وقتله، فلو فازوا في ذلك، كيف يقال: إنه غلب مكره على مكرهم؟ ولأن المكر: التدبير الخفي، فلو رفع روحه مع بقاء الجسد على الصليب لم يكن تدبيرا خفياً، بل هو أن يُرفع بجسمه، ويُصلب شخص آخر مكانه. والله أعلم.

الاستشهاد الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.(٢) يعني لم يقتل ولم يصلب، فنفي الصلب مع نفي القتل، والصلب معناه: «بردار كردن».(٣) وفي الغياث: «صلب بمعنى بردار كرده شده، وجهش آنكه چون عيسى عليه السلام را برآسمان بروند طرطوس نام شخصے را كه همشكل عيسى عليه السلام بود بردار كشيدند، وبعد ازين واقعه ترسايان آنرا عيسى پنداشته شكل دار با عيسى از چوب تراشيده در گلو آويختند و تعظيمش كردند».(٤)

واليهود كانوا فرقتين: فرقة تزعم: أنا قتلناه ثم صلبناه تشهيرا، وفرقة تقول: أولاً صلبناه في أوتاد أربعة، ثم قتلناه. والمسيحيون جمهورهم قائلون بأن اليهود قتلوه ثم رفع بعد القتل، فرد الله ما زعم الفريقان من اليهود بأنه لم يقتل ولم يصلب، ورد جزءاً واحداً من دعوى النصارى: وهو القتل لا الرفع الجسماني، فلو كانت عقيدة الرفع الجسماني باطلة ردها الله كما رد العقائد الْمُزَخرَفة الأخرى، فعلم أنه رفع بجسمه بدون القتل، وهو المدعَّى.

---

(١) النحل، الآية: ٢٦.
(٢) النساء، الآية: ١٥٧ – ١٥٨.
(٣) صراح، ص٣٩.
(٤) غياث اللغات، ص ٣٠٩.

قال الشقي مرزا غلام أحمد القادياني: صلبوه، ولكن لم يمت على الصليب، بل كان مشبَّها بالميت، ومعنى صلبوه: ما مات على الصليب، بل مات بدون الصليب بعد ذلك في كشمير. وهذه الدعوى تُصادِم هذه الآية، فإن الآية كما نفى القتل هكذا نفى الصلب، والصلب ليس معناه: الموت على الصليب، كما يزعم هذا الغوِيُّ، بل معناه كما سمعتَ من اللغوي «بردار كردن»[١]، و لم نجد لما ذكره أثرا في أي كتاب من كتب اللغة، ولو كان معناه: الموت على الصليب، فأي لفظ للصلب الْمُجَرَّد.[٢] ولو علقوه على الصليب كما يزعمون وآذَوْه، لكان الواجب أن يذكره الله عزّ وجل كما ذكر الجرائمَ الأخرى بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ﴾.[٣] الخ. فمقتضى المقام أن يقال: «وصَلْبِهِم المسيحَ»، فعلم أنه لم يُقتَل و لم يُصلَب. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.[٤] «لكن» يجيئ للاستدراك، وهو دفع التوهم الناشئ مما قبل، والتوهم: أنهم لما رأوا المسيح اليسوع مقتولاً مصلوباً، فكيف يقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.[٥] فاستدرك بقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يعني: الذي رأوه على الصليب معلَّقاً مقتولاً لم يكن عيسى عليه السلام، بل كان شخصاً آخر يُشْبِه به، وضمير «شُبِّهَ» عائد إلى المقتول المذكور في ضمن «قتلنا» أو «لهم» ينوب مناب الفاعل، أي وقع لهم التشبيهِ بين عيسى عليه السلام ورجل آخر.

ذكر صاحب الكشاف هذين التاويلين، فقال: فإن قلت: «شُبِّهَ» مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسندا إلى المسيح، فالمسيح مشبَّه به وليس بمشبَّه، وإن أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يَجْرِ له ذكر، قلت: هو مسند إلى الجار والْمجرور، وهو «لَهُم»

---

(١) صلب: علّقه على الصليب، وليس معناه: مات على الصليب.
(٢) من شهادة القرآن لمحمد إبراهيم السيالكوتي ١/٧٠.
(٣) المائدة، الآية: ١٣.
(٤) النساء، الآية: ١٥٧.
(٥) النساء، الآية: ١٥٧.

كقولك: خُيِّل إليه، كأنه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول، لأن قوله: «إنا قتلنا» يدل عليه، كأنه قيل: ولكن شُبِّه لهم من قتلوه.[١] أو معنى «شُبِّهَ لهم» أي اشتبه الأمر عليهم، كما قال البيضاوي، أو «شُبِّه لهم في الأمر» على قول من قال: لم يقتل أحد، ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس. قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾.[٢] يعني كلهم في ضلال وشك وحَيْرَةٍ واختلاف، ولهذا قال عزَّ وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.[٣] أي متيقنين، وحيرتهم بأنهم قالوا: إن كان المسيح مقتولاً فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين المسيح؟ وقد نقل من يؤمن بالتاريخ من تاريخ رينان في ذكر المسيح: إن الْمجرم الذي كان أخِذ آنئذٍ اتفق أن اسمه أيضاً كان يسوع وباربان لقبه، فهذا أيضاً وجه اشتباه.[٤]

وإن قيل: إن المناسب «شُبِّه عليهم» فإن المعروف في «شُبِّه» على، دون اللام، فالجواب أن فيه نكتةً دقيقةً، وهي: أنه قدَّر ودبَّر وصنَع لهم لصيانة المسيح عليه السلام، لا أنه وقع اتفاقاً.[٥]

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾.[٦] قال هذا الزنديق: المراد رفع روحه على وجهِ التكريم لا الرفع الجسماني، فإن اليهود كانوا ينكرون الرفع الروحاني ويقولون: مَن صلب صار ملعونا لا يرفع رفعاً روحانياً، كما في التوراة، فقال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾. وهذا خداع منه، وباطل من وجوه:

---

(١) تفسير كشاف ١/٥٨٠.
(٢) النساء، الآية: ١٥٧.
(٣) النساء، الآية: ١٥٧.
(٤) عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام.
(٥) عقيدة الإسلام، ص١٢١.
(٦) النساء، الآية: ١٥٨.

أما أولاً: فإن التوراة ليس فيها: أن كل من قتل وصلب يكون ملعوناً. بل فيها أن من قتل وصلب بالمعصية يكون كذلك وإليك نصها: «وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت، فقُتِل وعلقتَه على خشبة، فلا تُبَيِّتْ جُثَّتَه على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم؛ لأن المعلق ملعون من الله».(١)

وأما ثانياً: فالغرض من الآية رد قولهم، ولا يتم هذا فيما إذا أريد الرفع الروحاني؛ فإنهم يدَّعون القتل والصلب، ولم يُرَدّا حينما أريد الرفع الروحاني، والضمائر كلها تعود في هذه الآية إلى جسد عيسى عليه السلام وجسمه، كما في ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.(٢) الخ. فالعائد في «رَفَعَهُ» أيضاً يعود إلى الجسم، وعوده إلى الروح فقط تشتيت الضمائر وتفكيكه، ولا يليق بالمقام، ولا بالكلام الفصيح والقرآن الرفيع.

وأما ثالثاً: فاعلم أن ما بعد «بَلْ» يخالف ما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.(٣) فإن بين الألوهية والعبودية تنافياً. ولو كان المراد كما قال، لم يتحقق التخالف، فإن الرفع الروحاني، والقتل والصَّلب بغير حق لا يتخالفان، بل القتل والصلب بغير حق معراج لرفع الدرجات، وهو الرفع الروحاني كما في الشهداء. والرفع الجسماني يخالف القتل والصلب. وهذا ظاهر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وأما رابعاً: فرفع الدرجات حاصل لعيسى عليه السلام قبل ذلك بالإيمان والنبوة والرسالة، وهذا لا يختص بهذا الوقت.

وأما خامساً: فقوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ﴾.(٤) يصادم قولهم، فإن مقتضاه ـ لو سلمنا

---

(١) كتاب الإستثناء، ص٢١، الآية ٢٢.

(٢) النساء، الآية: ١٥٧.

(٣) الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٤) النساء، الآية: ١٥٨.

قولهم ـ تحقق الرفع الروحاني بعد القتل والصلب بلا تعقيب، فإرادتهم القتل في وقت، ورفعه الروحاني بعد ثلاث وثمانين سنة باطل، لا معنى له، ولا قرينة عليه.

الاستشهاد الثالث بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.[١] تدل هذه الآية على أن الله تعالى كفهم عن إيذائه وحفظه من شرهم، لا كما قالت اليهود والنصارى، ومن حَذا حَذْوَهم وهو متنبي الفنجاب: إنهم ضربوه حتى كادوا أن يكسروا عظامه. الخ.

هذه الآية في موضع الامتنان من الله، فلو وصلوا إليه بمكروه كيف يصح هذا الامتنان، مع هذه الاستهانة والتخفيف، ويدل لفظ الكف على أنهم لم يصلوا إليه بمكروه، كما في حديث مسلم. قال الراوي: ثم جئتُ بهم أَسوقُهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وجاء عَمِّي عامرٌ برجل من العَبْلات يقال له: مِكْرَز، يقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفُجور وثِناه»، فعفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.[٢] الآية. فأطلق الكفَّ على احتفاظ كل من الآخر، وقس عليه هذا.

الاستشهاد الرابع بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.[٣] يعني ليس أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام في المستقبل قبل موت عيسى عليه السلام، فالعائد في «مَوْتِهِ» إما أن يكون عائداً إلى الله، أو إلى الرسول، أو القتل، أو إلى عيسى عليه السلام، ولا يمكن أن تراد الإحتمالات الثلاثة السابقة؛ لأن الله مذكور قبل ذلك بصيغة جمع

(١) المائدة، الآية: ١١٠.

(٢) الفتح، الآية: ٢٤. رواه مسلم ٢/١١٤.

(٣) النساء، الآية: ١٥٩.

المتكلم كعَفَوْنَا وقلنا، والرسول مذكور بصيغة الخطاب، والقتل محسوس لا معنى للإيمان به؛ فإن الإيمان يكون بالمغيبات غير الْمَحسرسات، فتعين وتيقن أن يكون عائدا إلى عيسى عليه السلام، وتدل عليه الأحاديث الكثيرة النبوية.

قال العلامة السيوطي في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾. أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والحاكم وصححه عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: خروج عيسى بن مريم ــ عليه السلام . وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم رحمهما الله من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى ــ عليه السلام.[١] وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: قبل موت عيسى ــ عليه السلام ــ والله إنه الآن حيٌّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.[٢]

يقول هذا المتنبي الكذاب: إن ضمير «مَوْتِهِ» يعود إلى أهل الكتاب، فالمعنى: إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام، أو محمد صلى الله عليه وسلم قبل موت أهل الكتاب، يعني يؤمنون به قبل الموت، فلا تعلق لها بموته وحياته عليه السلام، وهذا لا يصح بوجوه:

الأول: إن هذا يصادم تفاسير الجماهير المنقولة عن أكابر الصحابة. قال الشيخ الأنور رحمه الله عليه: إرجاع الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إلى عيسى عليه السلام هو الصحيح عن ترجمان القرآن حبر الأمة وبحرها ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره لم يصح عنه كما ذكره الحافظ في الفتح.[٣]

---

(١) الدر المنثور ١٠٦/٥.

(٢) الدر المنثور ١١٠/٥.

(٣) عقيدة الإسلام، ص١٣٩، ط: ديوبند. وص٢٥٤ من طبع إدارة القرآن، كراتشي، مطبوعة في ضمن رسائل العلامة الكشميري. وراجع: فتح الباري ٤٩٢/٦.

الثاني: الإيمان إما أن يكون عند الموت أي الغرغرة، وهذا الإيمان لا يقبل في الشريعة الغراء ولا يعرف هذا في القرآن؛ فإن الإيمان المذكور في القرآن يراد به ما يترتب عليه الجزاء من الجنة، والمناسب لو أريد: هذا حين موته، أو عند موته لا قبل موته. وإن كان المراد الإيمان في الصحة قبل النـــزع، فهذا خلاف الواقع؛ فإنهم لم يؤمنوا كلهم بنبيهم في حياتهم الفانية. فإن قيل: قد جاء عن أبي بن كعب رضي الله عنه «قبل موتهم»، وهذا يؤيدهم. قلنا: هذا شاذ يخالف المتواتر، وفي أسانيده ضعف. ولو سلمنا فنقول: يجب حمله على المتواتر. فالمعنى أن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موت كلّ واحد منهم، بعضهم يؤمنون عند موته قبل نزوله، والبعض عند نزوله قبل القيامة، وهذا الإيمان معتبر، والأول غير معتبر. قال الشيخ الأنور رحمه الله عليه نقلاً عن الدر المنثور: ففي الدر المنثور عن محمد بن الحنفية وأم سلمة: إن الذين هلكوا قبل نزوله عليه السلام يؤمنون به قبل موتهم، والأحياء عند نزوله عليه السلام يؤمنون به قبل موته عليه السلام، فصَدَقَت الكلية بلا تقيد، فلتكن قراءة أُبَيّ على هذا في الهالكين قبل نزوله عليه السلام، والقراءة المتواترة على الباقين عند نزوله، كما في الأحاديث المتواترة في نزوله عليه السلام وصيرورة الدين كله لله. انتهى.[1] وهذا وجه التوفيق بين الروايتين بحيث لا تخالف الأحاديث الكثيرة.

واعلم أن اللام والنون الْمُثقلة تخصان المضارع بالاستقبال، وهاتان داخلتان على «يُؤْمِنُ»، فيختص بالاستقبال. ولو أريد ماقاله القادياني لا يكون للاستقبال كما هو الظاهر، فإن موت أهل الكتاب لا يختص بالاستقبال، بل قد ماتوا ويموتون.

الاستشهاد الخامس بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.[2] يعني أن خروج عيسى عليه السلام ونزوله عند الساعة آية من آيات الساعة وأشراطها فلا تشكّوا في الساعة. يظهر من هذه الآية ظهورَ

---

(١) عقيدة المسلمين، ص٢٥٩، ط: إدارة القرآن.

(٢) الزخرف، الآية: ٦١.

الشمس في منتصف النهار أن عيسى عليه السلام ينـــزل قبيل الساعة وتويّده الآثار. قال جار الله الزمخشري: «وَإِنَّهُ» أن عيسى عليه السلام، «لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي شرط من أشراطها تعلم به، فسمى الشرط علماً لحصول العلم به.[١]

وقال الحافظ بن كثير: قال مجاهد: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي العالية، وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنـــزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.[٢]

يقول مفتري القاديان: الضمير في ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعود إلى القرآن، أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا ليس بسديد لمخالفته سياق الآيات؛ لأنه لم يجر للقرآن ذكر، ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وصَدْر الآية هكذا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ...﴾[٣]. ثم تأمل في ما بعد هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ﴾.[٤] الخ. فاتصال أول الآيات وآخرها بقصة المسيح والوسط بمحمد صلى الله عليه وسلم ينجر إلى سقوط القرآن عن رتبة البلاغة، ويفضي إلى ركاكة، والقرآن لا يتحملهما، وهذا التاويل مخالف للأحاديث المتواترة، فلا تلتفت إليه.

(١) تفسير كشاف ٣/٤٩٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٤٣.
(٣) الزخرف، الآية: ٥٧ – ٦١.
(٤) الزخرف، الآية: ٦٣.

الاستشهاد السادس بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.(١) ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وصفين لعيسى عليه السلام:

وجاهته في الدنيا والآخرة، وقربه عند رب الأرباب. والوجاهة في الدنيا إنما يمكن على مذهب أهل الإسلام، لا على مذهب بني إسرائيل والقاديانيين؛ لأنهم يقولون بصلبه، والصلب والضرب والشتم ليس وجاهة في الدنيا، بل تذليل واستخفاف. وإن قالوا: المراد الوجاهة بعد ذهابه إلى كشمير، فهذا أمر لا دليل عليه، فإن الأناجيل التي بأيدينا تبين أحواله عليه السلام ومكانته. وأما ذهابه إلى كشمير ووجاهته فيها، فليس له أثر ولا خبر فيها، وكيف يكون وهذا كِذب بَحْت، وقول سخط! وأما على مذهب أهل الإسلام، فوجاهته في الدنيا قبل رفعه بحفظه عن الصليب، وبعد نزوله بكونه حاكماً عادلاً، يكسر الصليب، ويفيض المال، ويقتل الدجال، وغير ذلك. وأما كونه من المقربين، فبرفعه إلى السماء، فإن المراد من القرب القرب رتبة وجسماً، وهو بالرفع إلى السماء. قال العلامة الزمخشري: وكونه من المقربين رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة.(٢)

الاستشهاد السابع بقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.(٣) يجب أن تلاحظ ههنا أمور:

الأول: إن معنى «توفيتني» رفعتني إلى السماء كما مر في قوله تعالى: ﴿رَافِعُكَ﴾ وغيره. قال الإمام الرازي رحمه الله: فلما توفيتني، والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.(٤)

---

(١) آل عمران، الآية: ٤٥.
(٢) تفسير كشاف ١/٤٣٠.
(٣) المائدة، الآية: ١١٧.
(٤) تفسير كبير ٦/١٤٤.

الثاني: إن هذا السؤال يكون يوم القيامة، قال ابن كثير رحمه الله عليه: هذا أيضاً مما يخاطب به عبده ورسوله عيسى عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.[1]

وقد روي في ذلك حديث مرفوع عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى عليه السلام فيذكره الله نعمته عليه، فيقر بها، فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ﴾.[2] الآية. ثم يقول: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.[3] فينكر أن يكون قال ذلك، فيوتى بالنصارى فيسئلون، فيقولون: نعم! هو أمرنا بذلك. قال: فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار.[4] وقد جاء قبل ذلك ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.[5] وبعده ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.[6] وكلاهما يدل على أن هذا التساؤل يكون يوم القيامة.

الثالث: أن عيسى عليه السلام يعلم فساد عقائدهم، وإلا فلا فائدة للسؤال؛ إذا السؤال بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ...﴾.[7] إنما يكون

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٢٤.
(٢) المائدة، الآية: ١١٠.
(٣) المائدة، الآية: ١١٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/١٢٤.
(٥) المائدة، الآية: ١٠٩.
(٦) المائدة، الآية: ١١٩.
(٧) المائدة، الآية: ١١٦.

عن شخص يعلم، ولو لم يعلم لكان المناسب في الجواب أن يقول: إني لا أعلم فساد عقائدهم واتخاذهم إياي وأمي إلهين من دون الله، فظهر أنه كان عالماً به. فقد لاح من هذه الأمور أن عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء يجيء قبل يوم القيامة، وفي ذلك الوقت يعلم شؤون أمته من العتى والفساد والإنكار والعناد، ثم يسأله الله يوم القيامة ويجيب بإظهار العجز وتفويض الأمر إلى الله. هذا هو الحق الصريح، والقول الصحيح.

ويقول القادياني المتنبي: المراد من «توفيتني» التوفي بالموت، ولا يخفى فساده لمخالفته التفاسير المعتبرة التي جرى ذكرها. ولو أريد التوفي بالموت كما قال هذا الشقي الغوي الذي سيلقى غياً، لكان اللائق أن يقول: ما دمتُ فيهم حياً، ليقابل التوفي بالموت، لكن قال عيسى عليه السلام: ما دمت فيهم أي حين وجودي فيهم، هذا، وفيه تفصيل لا يليق بهذا المقام.

هذه نبذة من الدلائل على حياة المسيح عليه السلام، والدلائل وإن كانت كثيرةً، لكن هذا ليس موضوعنا، والتفصيل مذكور في الكتب المصنفة في هذا الموضوع، وهذا قدر يسير منها لعله يكفي للمتبصر. وقد ذُكِرت عقيدة رفع المسيح عليه السلام وصلب شِبهه في إنجيل برناباس، ويطابق لما يعتقده أهل الإسلام تطابق النعل بالنعل، ولنقدم عبارة إنجيل برناباس بين يدي الناظرين، والموجود عندي منه الترجمة الأردية التي تُرْجِمت تحت إشراف محمد إنشاء الله مدير جريدة «الوطن»، وأنا أضع بين يديك عبارته بالأردية مع الترجمة العربية من العبد الضعيف، والعبارة هذه:

پس اس کو اٹھا لے گئے اور اسے تیسرے آسمان پر فرشتوں کی صحبت میں رکھدیا جو کہ ابد تک اللہ کی تسبیح کرتے رہیں گے، تب عجیب اللہ نے ایک عجیب کام کیا پس یہودا بولا اور چہرے میں بدل کر یسوع مسیح کے مشابہ ہوگیا، یہاں تک کہ ہم لوگوں نے اعتماد کیا بلکہ تمام شاگردوں نے بھی مع اس لکھنے والے کے یہی اعتماد کیا، بلکہ اس

سے بھی بڑھ کر یہ کہ یسوع کی بیچاری ماں کنواری نے اور اس کے قریبی رشتہ داروں نے اور دوستوں نے یہی اعتماد کیا اور انھوں نے اس کے ساتھ ہی دوچوروں پر صلیب لگائے جانے کا حکم دیا، پس سپاہیوں نے یہوذا کو پکڑ لیا اور اس کو اس سے مذاق کرتے ہوئے باندھ لیا اور یہوذا نے کچھ نہیں کیا سوا اس چیخ کے کہ اے اللہ تو نے مجھے کیوں چھوڑ دیا اس لئے کہ مجرم تو بچ گیا اور میں ظلم سے مر رہا ہوں ۔ (١)

فرُفع إلى السماء الثالثة ووُضع بجانب الملائكة الذين يسبحون الله وينَزِّهونه أبداً أبداً، وقد أبدل الله لغة المسيح وشكله بلغة يهوذا وشكله. وهذا صنع الله العجيب إلى أن اعتقدنا، بل جميع التلاميذ والراقم أنه المسيح، بل زعمت أمه وذوو قرابته وأصدقائه هذا الأمر، أي أنه اليسوع المسيح، وقضَوا على صَلبه مع اللصين. فأخذت العساكر يهوذا وشدُّوه بحبل، و لم يدفع يهودا عن نفسه شيئا، بيد أنه صاح: لماذا تركتني يا الله؛ لأن المجرم قد انفلَت، وأنا أموت ظلماً.

هذه عبارات إنجيل برناباس التي لا ينحط رتبته عن الأناجيل الأخر بحال، ولا وجه لعدم الاعتداد به بجنب الأناجيل الأربعة، إذ الكل سواء في عدم الاستناد وعدم الاعتماد. والله أعلم وعلمه أحكم.

---

(١) إنجيل برناباس، ص٢١٥، الآية: ٦.

التوحيد والتثليث

لا شك أن جميع الأنبياء من لَدُن عهد آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين دعوا أقوامهم إلى التوحيد، وقرعوا أسماعهم بذلك، كما أخبر الله تعالى عنهم في القرآن، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.(١) وكل نبي أعلن وأخبر بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.(٢) فالتوحيد مركز يدور عليه رحى جميع الأديان، وهذا هو الفرق بين المسلم والكافر. ومن يدعي أنه يتبع الرسل ويقتدي بهم يقول من أعماق القلب مخلصاً: لا إله إلا الله، لكن الأمة المسيحية ضلت وأضلت وادَّعت التثليث، أو التوحيد في التثليث، وهذا قول مُختَرَع مبتَدَع، ما عليه من سلطان ولا برهان، وقول باطل زائل.

كشف القناع عن سبب قولهم بالتثليث

نعتقد أن عيسى عليه السلام أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل يبلِّغ التوحيدَ والأحكام الشرعية الْمُنَزلة عليه حتى ظهر أمر الله، ثم لما راموا قتله حفظه الله منهم، وعصمه ورفعه إلى السماء. وبعد رفعه بمدة قام أتباعه بعد ما حَرَّفوا الدين بهذا الحمل يَدْعون إلى دينه الشعب المختلفة، وتلطفوا لإدخال الناس واحتالوا أنواع الحيل. ولما دعوا الفلاسفة خلطوا الفلسفة في دينهم تلطفاً بهم ليدخلوا فيه، ومَزَّجوا ديناً مخلوطاً من الفلسفلة والمسيحية، فقالوا باتحاد الأب والابن وروح القدس، كما يقولون باتحاد العقل والعاقل والمعقول. قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحلّ، و لم يبق بأيدي النصارى منه شيء،

---

(١) النحل، الآية: ٣٦.

(٢) الأعراف، الآية: ٥٩.

بل ركّبوا ديناً بين دين المسيح ودينِ الفلاسفةِ عُبَّادِ الأصنامِ، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام الْمُجسدة إلى عبادة الصورِ التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القولِ باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.(١)

نبذة من تفصيل هذه العقيدة

تفصيل هذه العقيدة وفق ما صرَّح به علماؤهم أن الإله مركب من أقانيم ثلاثة، كل أقنوم إله على حِدةٍ، متميز عن الآخر بأوصاف، فأحدها أقنوم الأب، وهذا أصل الأقانيم، ثم فكّر ودبَّر فصدر منه الأقنومُ الثاني، ثم صدر عنهما الأقنوم الثالث بفعل الإرادة والْمَحبّة، ويسمَّى الأول أباً لكونه مصدراً للثاني، والثاني ابناً لصدوره من الأول، والثالث روح القُدس لتعلقه بهما، فسُمِّيَ باسم عام، وكل واحد منهم إله كما أن الْمجموع إله. ثم يزعمون أن أقنوم الابن اتحد مع دم مريم فتجسَّد وصار إنساناً، فمن حيث كونه أقنوماً يسمى لاهوتاً، ومن حيث حلوله في دم مريم ناسوتاً، وتستوي أقدام هؤلاء الآلهة في حقيقة الألوهية، فالْمجموع إله كما أن الكل إله. والأقنوم معناه: الشخص. قيل: رومية، وقيل: سريانية. وذكر الآلوسي رحمه الله فيه تسعة أقوال: أحدها: أنها أشخاص. وثانيها: أنها خواص. وثالثها: بأنها صفات. ورابعها: بأنها صفات إيجابية. وخامسها: بأنها صفات إيجابية جوهرية. وسادسها: بأنها صفات لا بِمُفردها، بل يكون كل واحد منها مع الذات أقنوماً. وسابعها: بأنها أوصاف لا بمفردها، بل بكل واحد منها مع الذات يكون أقنوماً. وثامنها: أنها هي العقل والعاقل والمعقول. وتاسعها: أنها جهات ذهنية واعتبارات عقلية.(٢)

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/٢٧٠.

(٢) الجواب الفسيح في رد أعبد المسيح ١/٦٧.

ثم اختلفوا في حلول أقنوم الابن في دم مريم عليها السلام، كما ذكر الشيخ عبد العزيز نقلاً عن شيخ الإسلام، فقالت طائفة منهم: إن الكلمة حَلَّت في مريم حلولَ الممازجة كما يحل الماءُ في اللبن فيمازجه ويخالطه، وقالت طائفة منهم: إنما حلت في مريم من غير ممازجة كما أن شخص الإنسان يحل في المرآة وفي الأجسام العقلية من غير ممازجة، وزعمت طائفة: أن اللاهوت مع الناسوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثِّر فيه بالنقش.(١)

وهكذا اختلفوا في صفة الاتحاد بين أقنوم الابن وجسد المسيح، كما صرح به الفاضل الكيرانوي حيث قال: ثم اختلفوا في صفة الاتحاد، فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتيٍ وجوهر ناسوتي اتحاد، ولم يخرج الاتحادُ كلَّ واحدٍ منهما عن جوهريته وعُنصره. وزعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران: أحدهما لاهوتي، والآخر ناسوتي. وأن القتل والصَّلب وقعا به من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأن مريم حملت بالمسيح وولدتْه من جهة ناسوته، ثم يقولون: إن المسيح بكماله إله معبود وإنه ابن الله ـ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً. وزعم قوم أن الاتحاد وقع بين جوهرين لاهوتي وناسوتي، فالجوهر اللاهوتي بسيط غير منقسم ولا متجزئ. وزعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن في الجسد ومخالطته إياه. ومنهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور كظهور كتابة الخاتم والنَّقش إذا وقع على طين أو شَمع، أو كظهور صورة الإنسان في المرآة، إلى غير ذلك من الهفوات.(٢)

وقد حكى الله عن اختراعاتهم ثلاث كلمات. الأولى: أن المسيح ابن الله، قال عزَّ وجل: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾.(٣) الثانية: إن المسيح هو الله. قال عزَّ وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ

(١) منحة القريب، ١٢٦-١٢٧.

(٢) إظهار الحق ٥٧٦/١-٥٧٧.

(٣) التوبة، الآية: ٣٠.

النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.(١) الثالثة: إن الله ثالث ثلاثة، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.(٢) فقال البعض: إن هذه الآيات إشارة إلى فرقهم الثلاث وهم اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية. فذهب بعض الملكانية إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم، وكل واحد منهم إله، وإليه الإشارة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. وقالت النسطورية: إن الله واحد والأقانيم ليست عينَه ولا غيره، وزعموا أن الابن لم يزل يتولد من الأب، وإليهم التلميح بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾. وقال اليعقوبية: إن الكلمة انقلبت لحما ودماً فصار الإله هو المسيح، وإليه الإيماء بقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

والحق أن كل آية ليست إشارة إلى فرقة مخصوصة، إذ قال الله تعالى بعد قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.(٣) فعلم منه أن من قال بالتثليث يقول بالإبنية. وقال عزَّ وجل بعد: ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فخاطب جميع بني إسرائيل، فعلم أن هذا قول الجميع، فالأحسن أن يقال: إن الله لم يرد بكل آية فرقة مخصوصة، بل تعم كلٌّ آية كل فرقة وتشتملها، والله تعالى ذكر في كل آية كفرَهم المشتَرَك، وهو المسيح ابن الله، المسيح هو الله، المسيح ثالث ثلاثة.

وبالجملة أن النصارى قاطبةً اتفقوا على أن الله جوهر واحد قديم، لا يتصور عليه الحدوث، ولا يطرأ عليه العدم، مركب من الأقانيم الثلاثة، والأقانيم الثلاثة: الوجود ويسمونه الأب، والعِلم ويسمُّونه الكلمة، والحياة ويسمونه روح القدس.(٤)

---

(١) المائده، الآية: ٧٢.

(٢) المائده، الآية: ٧٣.

(٣) النساء، الآية: ١٧١.

(٤) أظن أن هذا التقرير مأخوذ من منحة القريب.

اتفاقهم على الأمانة

إن آريوس وغيره اعتقد أن عيسى عليه السلام ليس بإله، والله تعالى خالق كل شيء، واحدٌ، أزليٌّ ليس له شريك، فطلبه مَلِك ذلك الزمان قسطنطين بعد نشر مقالته وبَثِّ كلامه بين الناس، فشرح عقيدته، فتناظروا وقام على مُدَّعاه، فرد عليه الأكصيدرس بِطْريق الإسكندرية، وبعد طول كلامهم تعجب الملك من كثرة الاختلاف، فأقام الْمجلس، واتفق رأيهم على ذلك الأمانة، وهي: نؤمن بالله تعالى الواحد الأب صانع كل شيء، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الواحد المسيح ابن الله تعالى الواحد، بِكْرُ الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إلهٌ حقٌ من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشرَ الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومريم وصار إنسانا، وحبل به وولد من مريم البتول، وَأوجِع وصُلب أيام فيلاطس ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء. ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية قالطولثكية، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين.انتهى.[١] فهذا العقد مما أجمع عليه الملكانية والنسطورية واليعقوبية.[٢]

دلائلهم على التثليث

تَمسَّك المسيحيون على التثليث في التوحيد ببعض آيات الكتاب المقدس، مع أنه لم يجئ في الكتاب المقدس شيء يدل عليه إلا أنهم شَمَّروا أذيالهم لذلك، وعزموا

---

(١) الجواب الفسيح، ص١٦-١٧. وإغاثة اللهفان ٢/٢٧٣.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/٢٧٣.

على أن هذه المسئلة الْمُنَفِّرة للعقول ثابتة، والعجب أن المسيح اليسوع عليه السلام لم يبين هذه العقيدة: عقيدة الثالوث التي بها نجاة العبد، وكان الواجب عليه أن يبين هذه المسئلة ببيان واضح شاف، فمن آمن بها نجى، ومن كفر بها هلك. وأمثال هاتيك المسائل تبيَّن بكشف تام، ويكشَف عن وجوهها القناع. فإن تَقَوَّلُوا: لم يبنها خوفاً من اليهود، فقد تحقق أنه لم يُبَلِّغْ ما كان واجباً عليه، وهذا نقص وخيانة عظيمة بمكانة الرسالة، وإن قالوا: لم يعرفها، فهذا قول لا يكاد يتفق معه إنسان؛ لأنه لما لم يعرف هذه المسئلة الْمُهمَّة التي عليها مدار النجاة كيف يعرف المسائل الأخرَ، وكيف آمن بها الناسُ بعدَه.

والحق أن المسيح بريءٌ منها، بل هذا بهتانٌ وافتراء عليه وتخيلات فاسدة وعقائد كاسدة، لا تقبلها الْمجانين فضلا عن العقلاء، ومع ذلك يستدل المسيحيون الذين هم خلاصة الْمُضلين ببعض آيات الكتاب المقدسْ، ويقولون: إن التثليث يستنبط منها. وها إليك بعض نصوصها التي يتمسكون بها، ففي سفر التثنية: «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، فتُحِبُّ الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك».[(١)]

وفي إنجيل متى: «عَمِّدُوهم باسم الأب والابن وروح القدس»، فتدل الآية الأولى على التوحيد، والثانية على التثليث، فالتوفيق بينهما أن يراد التثليث في التوحيد، وهذا هو المرام. وبأن التوراة والقرآن يطلق صيغة الجمع على الله كما في التكوين: «وقال الله: نعمل الإنسانَ على صورتنا كَشَبَهِنا».[(٢)] «وقال الرب: الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارف الخير والشر».[(٣)] وفي القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ

(١) الاستثناء، ص٦، الآية: ٤.
(٢) التكوين، ص ١، الآية: بعض من ٢٦.
(٣) التكوين، ص ٣، الآية: ٢٢.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.[١] فصيغة جمع المتكلم تدل على أن الإله فيه معنى الجمعية، وأقلها التثليث، هذه عمدة دلائلهم على التثليث، وقد بذلوا جهدهم وبلغوا إلى أقصى ما يمكن في إثبات هذه المسئلة، بيد أنهم لم يأتوا بما يَشفي العليل ويُروي الغليل، وليس عندهم في هذا الموضوع كثير ولا قليل.

الجواب عن مستدلاتهم

أما الدليل الأول فلا يخطر بالبال أن يفهم منه أن هذا دليل الثالوث، بل آية التوراة يظهر فيها كالشمس في الظهيرة التوحيدُ لا التثليث، والعجب أنهم كيف يثبتون التثليث من قوله: «إلهنا رب واحد» وأما قول متى: «باسم الأب والابن وروح القدس». فالمراد من الأب هو الله، وذلك كثير في كتبهم، ومن الابن رسوله، فإن إطلاق الابن على العبد الصالح المقرَّب شائع ذائع في كتبهم، وعلينا أن ننقل بعض عبارات الكتاب المقدس، ففي كتاب أشعيا «فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل، أنت يا رب أبونا وَلِّينا منذ الأبد اسمك».[٢] فأطلق لفظ الأب على الله.

وقال متى: «طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون».[٣] فيه إطلاق الابن على صانعي السلام .

وقال يوحنا: «أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له: إننا لم نولد من زنا، لنا أب واحد وهو الله».[٤] فأطلق الأب على الله، وهذا الاستعمال لا يمكن أن يكون على سبيل الحقيقة إذ الأب حقيقة الوالد، والابن ما يتولد من نطفة الأب، وهذا

---

(١) الحجر، الآية: ٩.

(٢) أشعيا، ص٦٣، الآية: ١٦.

(٣) متى، ص٥، الآية: ٩.

(٤) يوحنا، ص٨، الآية: ٤٢.

المعنى يستحيل في حق الله تعالى، فالمراد القرب والمحبة، وهذا مراد قول متى: «باركوا لاعِنِيْكم أحسنوا إلى مبغضيكم...لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات».(١) يعني يحصل القرب والقبول عند الله تعالى.

فلاح عن ذا أن إطلاق الأب والابن ليس حقيقة، بل مجاز كما قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.(٢)

وقوله: «باسم الأب والابن وروح القدس». لو فرضنا دلالته على التثليث، تكون ثلاثة حقيقةً لا يكون فيها اشتراك ماهية كما يقولون، فإنك إذا قلت: جاءني زيد وحيوان، يشتركان في المجيء فقط لا في الحقيقة، فالأب والابن وروح القدس لاتشترك في الحقيقة ولا يكون بينهم اتحاد، فمن أين استنبطوا الاتحاد.

والجواب عن الثاني أن لفظ الجمع موضوع لغة للمعظَّم، كنحن، وقمنا، إذا كان المتكلم واحداً، فإن القرآن كلام الملك العزيز، والملك إذا ألقى علينا خطابا ملكيا يكون هكذا. أو نقول: هذا بحسب الصفات، فإن له صفات كثيرة يجوز بحسبها إطلاق الجمع عليه تعالى. أو نقول: له صفات الجلال والجمال وبحسبها يُطلق عليه الجمع. والله أعلم.

ولو سلمنا أن المراد التعدد، فيكون حقيقيا، لا الاتحاد كما تقولون، فقولكم يصادم العقل من كل الوجوه.

إثبات التوحيد من الكتاب المقدس

إذا علمت هذا فاعلم أن الكتب السابقة في الحالة الراهنة تدل على التوحيد، ولا يوجَد أي كتاب من الكتب السماوية يدل على التثليث، بل التوحيدُ نقطة يدور

---

(١) متى، ص٥، الآية: ٤٠.

(٢) المائدة، الآية: ١٨.

عليها رَحَى جميع الأديان، ويتضح لك أن عيسى عليه السلام نادى بالتوحيد، وكيف لا ينادي وبعثة النبي إنما تكون لِبَثِّ التوحيد. قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.(١) وفي سفر التثنية: «إنك قد أريتَ لتعلم أن الرب هو الإله، ليس آخر سواه».(٢) وفي الزبور المقدس: «لأنك عظيم أنت، وصانع عجائب، أنت الله وحدك».(٣) وفي إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك: أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».(٤) انظر إلى هذه الآيات البينات، فإنها تصرّح بوحدانية الله ورسالة المسيح، فكيف يكون إلها، بل هو رسول الله، وهذه عقيدة المسلمين. وفي إنجيل مُرقُس «فأجابه يسوع: أن أوّل كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد».(٥) وفي إنجيل متى: «فقال له: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا».(٦) وفي لوقا: «فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان! إنه مكتوب للرب، إلَهَك تسجد وإياه وحده تعبد».(٧)

فهذه نبذة من الكتاب المقدس تدل على التوحيد الْمَحْضِ الخالص الناصع من الشرك هل ترى فيه ـ زادني الله وإياك علماً ـ رائحة من التثليث؟ لا والله ليس فيه شمة منه، وقد ردَّ القرآن الحكيم ـ وهو الكتاب الحق من الله تعالى ـ دعواهم الباطلة

---

(١) الزمر، الآية: ٦٥.

(٢) تثنيه، ص٤، الآية: ٣٥.

(٣) مزمور، ص٨٦، الآية: ٩.

(٤) يوحنا، ص١٧، الآية: ٣.

(٥) مرقس، ص١٧، الآية: ٢٩.

(٦) مرقس، ص١٧، الآية: ٢٩.

(٧) لوقا، ص٤ الآية: ٩.

في غير ما موضع، فقال الله تعالى بعد ذكر تثليثهم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[1] يعني من تَوَلَّد من بطن امرأة وهي مريمُ، وأكل الطعام، ودعا إلى التوحيد، كيف يكون إلهاً ثالثَ ثلاثة! والقرآن الكريم مشحونٌ بردّ النصارى القائلين بقول تَمُجُّه العقول وتدفعه الفحول.

الأدلة العقلية على إبطال التثليث

يحكم العقل بأن كون الثلاثة واحداً باطلٌ، وبطلانه أظهر من الشمس، فويل للمسيحيين الذين لم يفهموا أسهل مسائل الحساب ـ فوا أسفاً عليهم ـ فجعلوا الواحد عينَ الثلاثة، وكيف يكونان شيئا واحداً؛ والتثليث مشتمل على الكثرة الحقيقية، والتوحيد توجد فيه الوحدة الحقيقية، وبينهما تناف. وأيضاً لما كانا واحداً يلزم أن يكون الجزء عينَ الكل والكل عين الجزء؛ لأن الواحد ثالث الكل وجزؤه، ولما كان عين الثلاث يلزم أن يكون الكل، وهذا مما يضحك منه الصبيان والْمَجانين ولا يلتفت إليه الجهلاء فضلاً عن الأساطين.

وإذا ثبت الامتياز بين الأقانيم الثلاثة لا بد مما به الامتياز، فهو إما أن يكون من صفات الكمال أو لا يكون، فعلى الأول يلزم أن لا يوجد جميع صفات الكمال في كل واحد، وهذا نقص في الواجب، وعلى الثاني يلزم أن لا يوصف بصفات الكمال، وعدم الاتصاف به اتصاف بصفات النقصان.

فإن قيل: نحن نقول: إن هذه الأقانيم صفات الواجب اتحدت به. قلنا: لو كان كذلك لا يكون وجودها مستقلا، بل تبعاً للغير، وما يكون تبعا للغير كيف يكون إلهاً خالقاً، مع أنهم يزعمون لكل واحد وجوداً مستقلا، فإنهم يقولون: قُتل عيسى

(١) المائدة، الآية: ٧٥ - ٧٦.

ورفع وجلس يمينَ الواجب تعالى، فكانا مستقلّين في الوجود. وقالت اليعقوبية: إن الكلمة انقلبت لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وقالوا: إن الله هو المسيح عيسى بن مريم. ونقلوا عن يوحنا أنه قال في صدر إنجيله: الكلمة صارت جسداً وحلت فينا. وهذا باطل؛ لأنه يستلزم انقلاب القديم بالحادث والْمُجرد بالماديّ، ولو جاز، لجاز انقلاب العَرَض جوهراً والجوهر عَرَضاً والواجب ممكناً. وما ورد في صدر إنجيله: «أن الكلمة صارت جسداً»، فالمراد من الكلمة يعني إن ذهبت كلمة (المسيح) فكلامه وأقواله وتعاليمه موجودة عندنا وحال فينا. هذا نهاية ما يقال في تأويل المقام.[1]

يقول بعض المسحيين: إن التثليث لا ينافي التوحيد إذ الأقانيم صفات، ونسبة أقنوم العلم والحياة إلى الله كنسبة الحرارة إلى الشمس. وهذا باطل من وجوه؛ أحدها: أنا نشاهد أن ذات المسيح منفردة، وأمه موجودة بالاستقلال، والله أيضاً موجود بوجود عيني، فجَعْلُها صفاتاً خلاف المعقول وخطأ صريح. وثانيها: إن صفات الباري عزَّ وجل غ ر محدودة، فتحديده بالتثليث كلام حديث. وثالثها: إن أقنوم الابن لما خُلِق من الأب فكيف يكون صفة؛ لأن الصفة لا تولد من الموصوف.

دلائلهم على ألوهية المسيح

الدليل الأول: قد جاء إطلاق الابن على المسيح، فيعلم منه أنه إله من إله، إذ الابن ماهيته ماهية الأب. وقد مر الجواب عنه، وهو أن الإبن يطلق على المقرَّب والْمَحبوب، وقد مضت أمثلته. ولو كان الابن آية الألوهية لكان آدم إلهاً إذ جاء إطلاق الابن عليه؛ قال لوقا: «إن المسيح ابن يوسف» و«آدم ابن الله».[2] فجعل آدم ابن الله والمسيح ابن يوسف، مع أنه ليس بإله. وقد جاء إطلاق الابن في إسرائيل

---

(١) ملتقط من إظهار الحق.

(٢) لوقا، ص٣.

كما جاء: «فتقول لفرعون: هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البِكْرُ، فقلت لك: أطْلِق ابني ليعبدوني فأبيتَ أن تُطلقه، ها أنا أقتل ابنك البِكر».(١)

والثاني: قال في الخروج: «أنا والأب واحد».(٢) والجواب عنه أولاً أنه لما كان واحداً فكيف يكون إنسانا كاملا. وثانيا أن مثل هذه الألفاظ وردت في الحواريين ففي يوحنا: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الأب فِيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني».(٣) فالمراد من الاتحاد لو صحَّ إطاعة أحكامه، وجميع الأنام فيه متساوى الأقدام. وانظر تفصيل هذا المبحث في إظهار الحق.(٤)

والدليل الثالث: خَلْقه بأبدع طريق بدون أب، وإحياؤه الموتى وإبراء الأكمه وغير ذلك، فهذه الأفعال لا يمكن صدورها إلا من الله. وفيه نظر؛ لأن الخلق من دون الأب لو كان أمارة الألوهية لكان آدم أحرى به؛ لأنه أقدم وليس له أب ولا أم، بخلاف عيسى عليه السلام، فإن له أماً، والحشرات تولد بلا أب ولا أم عند نزول المطر. وإحياء الموتى لو كان علامة الألوهية لكان حزقيال عليه السلام أيضاً إلهاً؛ إذ أحيى كثيرا من الناس كما ذكر في كتابه: «فقال لي: يا ابن آدم! أَتُحيَى هذه العظام؟ فقلت: يا سيد الرب! أنت تعلم، فقال لي: تنبأ على هذه العظام، وقل لها: أيتها العظامُ اليابسةُ اسمعي كلمةَ الرب، هكذا قال السيدُ الربُّ لهذه العظام: ها أنا ذا أُدخِل فيكم روحاً فتَحْيَوْن، وأصنع عليكم عُصَباً، وأُكسيكم لحماً، وأبسط عليكم جلداً، وأجعل فيكم رُوحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».(٥)

---

(١) خروج، ص٣، الآية ٢٢-٢٣.

(٢) يوحنا، باب ١٠، الآية ٣٠.

(٣) يوحنا، ص٧، الآية: ٣١.

(٤) ٢/٤٩.

(٥) حزقيال، ص٣٧، الآية: ٣-٦.

وقد أزاح الله هذه الشبهة بقوله عزّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.(١) يعني التصوير في الأرحام، وخلق الأنام من صُنع ذي الجلال والإكرام يخلق بطريق معتاد مرة ومنهاج غريب أخرى، فإن شاء صوَّر الإنسان بأبٍ وأمٍ، أو بأب بدون أم، أوبالعكس، فهو على كل شي قدير، وبيده التقدير.

الدليل الرابع: بعض كلمات القرآن يدل على أنه كلمة منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٢) يدل على أنه كلمة من الله، ومِنْ للتبعيض، والجزء يوافق الكل في الحقيقة.

والجواب عنه أن الله صرَّح في مواضع مختلفة على عبديته، قال الله عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾.(٣) وقال الله تعالى حاكياً عنه: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.(٤) وكيف لا يكون عبداً وقد خُلِق من بطن مريم عليها السلام، وأَكَل كما يأكلون، وشرب كما يشربون، وسار كما يسيرون، وتَألَّمَ كما يتألمون.

والمراد من الكلمة: الكلمة التي نَفخَها جبريل، إذ خُلِقَ عليه السلام بدون الأب، بل بكلمة «كُنْ» بخلاف سائر أفراد بني آدم. قال العلامة الآلوسي: فهو كقولك لمن غلب عليه الجود مثلاً: محضُ الجود، وعلى ذلك أكثر المفسرون، وأيّدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾،(٥) وقيل: أطلق عليه ذلك؛ لأن الله تعالى بشر به في الكتب السابقة، وقيل: لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته. وأما تسميته بالروح؛ فإن الناس يُحْيَونَ به،

(١) آل عمران، الآية: ٦.
(٢) النساء، الآية: ١٧١.
(٣) الزخرف، الآية: ٥٩.
(٤) مريم، الآية: ٣٠.
(٥) آل عمران، الآية: ٥٩.

وقيل: الروح بمعنى الرحمة، وقيل: إذا أريد وصف الشيئ بغاية الطهارة قالوا: إنه روح، وقيل: المراد من الروح: السِرٌّ كما يقال: روح هذه المسئلة كذا، أي أنه عليه السلام سرٌّ من أسرار الله، وقيل: المراد ذو روح، والإضافة إلى الله للتشريف، ونظير ذلك في التوارة أن موسى عليه السلام رجل الله،(١) وعصاه قضيب الله،(٢) وأورشليم بيت الله(٣).(٤)

وليس «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ للتبعيض، بل لابتداء الغاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، أي من عنده وجانبه.

وبالجملة: قد تَنَقَّصُوا الله ورسوله، ورمَوْهما بالعظائم والكبائر التي هما عنها بريئان. أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم و لم يكن له ذلك، وشَتَمنِي و لم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً».(٥)

والله أعلم وعلمه أحكم

---

(١) أطلق هذا اللفظ على موسى عليه السلام في أكثر من ثلاثين مرة من التوراة، راجع مثلا: سفر التثنية، باب:٣٣، الآية:١.

(٢) سفر أرميا، باب:٤٨، الآية:١٧.

(٣) سفر أخبار الأيام الأول، باب:٦، الآية:٣٢.

(٤) ملخص من الجواب الفصيح ١/١٥.

(٥) الصحيح البخاري ٢/٦٤٤.

الصلاة في الإسلام والمسيحية

الصلاة في الدين المسيحي

الصلاة عبادة مشروعة موجودة في الدين المسحي يؤدونها انفراداً، وفي كنائسهم. وهي عندهم على ثلاثة أقسام كما في «أدلة اليقين»: انفرادية، وعائلية، وجمهورية. فالانفرادية هي أن يرتِّلَ الله في قلبه كل حين. والعائلية هي أن يجمع الرجلُ زوجه وأولاده حوله ويقرأ لهم شيئاً من الكتاب المقدس ويطلب لهم المغفرة والبَرَكة من الله. والجمهورية أن يجتمع الواحد مع الناس في داره أو كنيسة ويستمع الوعظ والدعاء، ويسبح تحت ملاحظة خدمة الدين. وهناك طوائف تصلي صلاة أخرى يسموها: ارتجالية وغير ذلك.[1]

طريق الصلاة في ديانتهم

طريق صلاتهم مع اختلاف بين الكاثلوكية والبروتستانست كما ذكره الأستاذ أبو الحسن علي الندوي نقلاً عن دائرة معارف الأديان والأخلاق في كتابه «الأركان الأربعة»: أن يدخل الإمام فى الكنيسة فيقوم له الحاضرون حوله، ويقول ناويا للصلاة: باسم الأب والابن وروح القدس أُصلّي إلى مذبح الكنيسة، وهنا يدور الحِوار بين الإمام والجماعة في تقديس الله والثناء عليه، ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا ويقول: إنني أُشهد الله القدير، وأُشهد مريم المباركةَ العذراء دائماً، والْمَلَك الكريم ميكائيل، ويوحنّا المعمد، ورسل الله المباركين بطرس وبولس، وجميع القدسيين، وجميع الأولياء المسيحيين، وأُشهدكم أيها الإخوان، وأعترف بأنني اقترفت ذنوباً فكريةً ولسانيةً وعمليةً لا تُعد ولا تُحصى، أنا صاحبها وأنا المسؤول

---

(١) أدلة اليقين، ص٣١.

عنها وحدي، لذلك أسئل مريم العذراء المباركةَ، وميكائيلَ المبارك الملَكَ الكريم، ويوحنا المعمد المبارك، ورسل الله المباركين بطرس وبولس، وجميع القدسين والأولياء، وأسئلكم أيها الإخوان أن تدعوا الله مالِكَ الملك لي، وتدعو الجماعة له ويقولوا: آمين. ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة في الدعاء وطلب الرحمة والأمن والمغفرة للجميع، ثم يرتقي الإمام الْمَذبَحة ويدعو دعاء لاطينيا يسئل الله فيه أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب، ويتوسل بالسيد المسيح وبالقدسيين والأولياء الذين تضم الكنيسة آثارهم، ثم يقول الإمام: يا الله ارحمنا. ويقول الإمام: يا عيسى المسيح ارحمنا. وتقول الجماعة: يا عيسى المسيحُ ارحمنا. يقال ذلك مرتين، ويعود الإمام فيسئل الله الرحمة، وتعود الجماعة فتسئل الله الرحمة.(١)

هذه صلاة الكاثلوكية. والصلاة عند البروتسانت تشارك صلاقم في توثيق العقائد والحمد والإنشاء وغير ذلك. ويتميز بأشياء من أنها لا تستعمل اللغة اللاطينية مطلقاً، وإنها صاغت الأدعية كلها في أناشيد وترنيمات تُغنّي بألحان مرسومة مقررة، وتتميز بصَمْتٍ عند ذكر الله، وتمتاز بحذف بعض العبارات، ويجثون على ركبهم في الصلاة كذا في عامة كتبهم، وإن شئت أن تسمع تفصيل قرائتهم في الصلاة، فإليك نص ما قال الشيخ أحمد بن إدريس المالكي حيث قال:

«يقرؤون في الصلاة الأولى التي يسمونها صلاة السَّحْر وصلاةَ الفجر: تعالَوْا نسجد ونتضرع إلهنا، أيها الرب خَروف الله.

وفي الصلاة الساعة الأولى: المسيح الإله، الصالح الطويل، الروح، الكثير الرحمة، الداعي للكل إلى الخلاص.

وفي صلاة الساعة الثانية: والدةَ الإله السماوي! أنت هي المكرمة الحقانية الحاملة ثمرةَ الحياة، إليك نتضرع لترحمي نفوسنا، يا والدةَ الإله السماوي افتحي لنا أبواب رحمتك.

---

(١) الأركان الأربعة، ص ٨٧-٨٨.

وفي صلاة الساعة السادسة: يا من سُمِرَتْ يداه على الصليب من أجل الخطيئة التي تَجَرَّأ عليها آدم خَرِّقْ العهدَة المكتوب فيها خطايانا وخَلِّصْنا. يا من سُمِرَ على الصليب، وبقي حتى لصق الخشبة بدمه، قد أحببنا الموتَ لموتك، أسألك بالمسامير التي سُمِرَتْ نجني بالله.

وفي صلاة الساعة التاسعة: يا من ذاق الموت لأجلنا، إليك إبتهالنا، يا من سلَّم نفسه إلى الأب على الصليب لا تغفُل عنا، يا من مِن أجلنا وُلد من العذراء واحتمل الموت، لا تُخَيِّبْ من خلقت بيدك، واقبل من والدتك الشفاعة فينا، ولا تنقض عهدك الذي عاهدت عليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ويقرؤون في هذه الصلاة: لما رأت الوالدة الحمل والداعي ومُخَلِّصَ العالم على الصليب قالت وهي باكية: أما العالم فقد فرح بقبوله الخلاص، وأما أحشائي فتلتهب عند ما أنظر إلى صلبوتك بعَيْنَيَّ.

ويقرؤون في صلاة المغرب: يا والدةَ الولد العذراءَ! اسعي في خلاصنا وافرحي يا والدة الإله المباركة، لا تغفلي عن وسائلنا ونَجّنا من المعاطب.

وفي صلاة النوم: الملائكة يَمْدَحونك بتهليلات ثلاثة؛ لأنك قبل الكل لم تزل أيها الأب، وابنك نظيرك في الابتداء، وروح القدس مُساوِيك في الكرامة، ثالوث واحد.

وفي صلاة نصف الليل وهي الثامنة من صلواتهم لا تاسع لها: تبارك الرب إله آبائنا وفوق المتعالي إلى الدهر تبارك بعدك القدوس فوق المسيح وفوق المعالي إلى الدهر، مبارك أنت فوق المسيح وفوق المتعالي. ويكررون هذه الجملة.(١)

فهذه حال صلاتهم المختَرَعة التي لا أصل لها في شريعتهم، بل صنعوها في مصانع أذهانهم وأفتى بها قلوبهم، ماهم بذلك من دليل ولا برهان. وخلاصة صلاتهم

---

(١) الأجوبة الفاخرة على هامش الفارق بين المخلوق والخالق، ص١٩٧-٢٠٢.

أمور: الإقرار بألوهية المسيح وأنه نَجَّى من عذاب الآخرة، واعتقاد ألوهية مريم العذراء، والقول بصَلب عيسى عليه السلام مع الإقرار بعَجزه وذوقه مَرارةَ الموت من الأعداء، فصلاتهم مشتملة على الكفر، والبهت، والفجور، وسوء الأدب، والتثليث، وغير ذلك.

لا يشترط للصلاة شيء من الطهارة والنظافة عندهم

ليس عندهم للصلاة شرائط من الطهارة والوقت واستقبال القبلة، بل يصلون متضمخين بالعَذِرات والقاذورات، فيطلبون النجاة ويقعون في ورطة الهلكة، ويفرون من المطر ويقومون تحت الميزاب. قال البادري بركة الله: ثم في شأن الأوقات: الإنجيل يهدينا أن نصلي وندعو في كل وقت، على أي طريق، إلى أي جهة.[١] وقال في موضع آخر طعناً في الإسلام ـ والحال أن الإسلام متعال عن أفق المطاعن ـ: الإسلام يفرض الطهارة التي لا تعلق لها بالطهارة الباطنية.[٢] ومن ذلك أنهم يصلون بلا وضوء ولا طهارة الثياب ولا المكان.[٣]

قال عبد المسيح ابن إسحاق الكندي النصراني: وأما قولك: «وأن نستعمل الوضوء ونغتسل من الجنابة ونَخْتَتِنَ لنقيم سنة أبينا إبراهيم». فجوابك قول المسيح الرب لليهود، قالوا له: لم لا يغتسل تلاميذك؟ فأجابهم الروح الْمُحْيِي مُخَلِّصُ العالَم: ومن الذي يُغني عن البيت الْمُظلم أن يكون في ظاهره مِصباح يَتَّقِدُ وباطنه مُظلِم، وإنما يجب أن تغتسل النيات والقلوب من دنس الفكر وغلّ الخطايا الدَّنِسة الرِّجْسة. فأما ظاهر الأبدان فما معنى العناية في تنظيفها، فيا أيها المراؤون الآخذون

(١) توضيح البيان، ص٤٨.

(٢) توضيح البيان، ص٥١.

(٣) الجواب الفسيح للعلامة الآلوسي.

بوجوه الذين يَشْبَهُون القبور الْمُزَخْرَفَة من خارج، وفي داخلها الْجِيفُ الْمُنْتِنَةُ. إلى آخر ما هذى.(١)

وقال مصنف إنجيل مرقس: «ثم دعا كلَّ الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كُلكم وافهموا! ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن يُنَجِّسَه لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان».(٢)

ولما سأله التلاميذ عن تفسير هذا فقال لهم: «أفأنتم أيضاً هكذا غير فاهمين! أما تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه؛ لأنه لا يدخل إلى قلبه، بل إلى الجوف، ثم يخرج إلى الخلاء وذلك يُطهر كل الأطعمة. ثم قال: إن الذي يخرج من الإنسان ذلك يُنَجِّسُ الإنسان؛ لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة: زنا وفسق وقتل».(٣)

وهذا القول يدل على أن الصلاة تؤدى وإن كان المصلّي متلطخاً بالعَذِرات، فلا يشترط عندهم للصلاة استقبال القبلة ولا الطهارة ولا لغة مخصوصة كالعربي واللاطيني. قال البادري بركة الله طاعناً في الإسلام والقرآن: هذا الكتاب أي القرآن بلغة عربية لا يفهمها عامة الناس، وإن أردت أن تطبع ترجمته وجب عليك أن يكون مع متن القرآن، ويتضمن الوضوء بالماء، أوالتيمم بالصعيد، والصلاة إلى القبلة في أوقات مخصوصة، على أن يكون بلسان مخصوص.(٤)

ويَطعنون في الإسلام وأركانه بأنه مقيد بالأزمنة والأمكنة، مخصوص بالطهارات الظاهرية، ودين المسيحية طهارة باطنية، وهاهي الأصل.

---

(١) الجواب الفصيح.

(٢) إنجيل مرقص، ص٧، الآية: ١٤-١٥.

(٣) مرقص، ص٧، الآية ١٨-٢٢.

(٤) توضيح البيان، ص٥١.

صلاتهم الأسبوعية

ولهم صلاة أخرى أسبوعية يوم الأحد، وهو يوم معظم عندهم، يقولون: ارتفع عيسى عليه السلام في هذا اليوم من القبر. يتقدم بها الإمام في موضع تقتضيه الحال، ويصفون المسيح بأنه ابن الله الوحيد، وأنه رب الأرباب، إلى غير ذلك من الخرافات، وهنالك يَخِرُّ الحاضرون على ركبهم ويجثون.[١] فهذا حال صلاتهم في كنائسهم موجَزاً، وإلى الله المشتكى من صنيعهم هذا، فإنهم أحبوا أن يكون ظاهرهم نجساً كما أحبوا أن يكون باطنهم نجساً.

الصلاة عند المسلمين - كثرهم الله وقوّاهم

الصلاة لغة: الدعاء. واصطلاحاً: أركان مخصوصة في أوقات مخصوصة بشروط مخصوصة. وهي أحد أركان الإسلام، وهي في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، ولها شرائط كما أن لها أركاناً. فشرائطها: تطهير المكان، والبدن، والثوب، وستر العورة، واستقبال القبلة، والنية. فالشرط لصلاة المسلمين أن يتطهروا من الأدناس والأنجاس، ويُطَهِّروا أبدانهم وثيابهم، وإلا لا تقبل صلاتهم، بل صارت هباء منثوراً لا يترتب عليه الثواب، بل يكون مُنتِجة للعقاب. فانظر إلى صلاة المسيحيين يودونها متلطخين بالعذِرات بلا وضوء ولا طهارة الثياب ولا المكان، على أنهم يطعنون في الطهارة وصلاة المسلمين التي يؤدونها بطهارة كاملة، فيستنجون بالأحجار أولاً وبالماء ثانياً، ثم يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم ويمسحون رؤوسهم للصلاة الخمس ليلاً ونهاراً شِتاء وصيفاً. ولنقدِّم لك تمثيلاً يوضح لك حال الصلاة: ألم يعلموا أن الإنسان إذا ذهب إلى لقاء الملك حاكم الوقت سلطان الزمان يلبس أحسن ثيابه، وينقي ثوبه وبدنه من الأدناس والعذرات، ويحب أن يكون على أحسن حال، أفليس

---

(١) الأركان الأربعة، ص ٨٨.

من المعقول أن يلبس وقت لقاء ملك الملوك سلطان السلاطين أحكم الحاكمين، وقيامه في جنابه ثياباً طاهرة، ويكون بدنه طاهراً، هذا ظلم عظيم ولنعم ما قيل: شعر:

اے تعصب خیرا شرمی کنی چشم کور وگوش را کر می کنی
از تعصب سینہ پارہ می شود شیشہ دل سنگ خارا می شود

بل لم نظن في عيسى عليه السلام أنه قام في الصلاة وجسمه متلطخ بالنجاسات ـ معاذ الله ـ ومن ادعى فعليه البيان، بل نقول: إنه كان طاهرا متطهرا متجنبا من النجاسات. وهذه اختراعاتهم، اخترعها لهم بولس وألقاهم في أودية جهنم، وقال لهم: لاشريعة ولا أحكام، بل ادَّعى أن اليسوع المسيح خَلَّصهم عن لعنة الشريعة. قال بولس: المسيح أنقذنا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّقَ على خشبة.[١] بل كان مُرشِدهم لوهر يعلمهم الاجتراء على الذنوب، وارتكاب الْمُحرمات، وقتل النفوس، وكان يقول: الإيمان كاف لنجاتهم كما كان للمسيح.[٢]

إثبات الطهارة من كتابهم المقدس

قد دعت التوراة إلى التزين بثياب طاهرة ولباس فاخر قشيب، وكان المسيح عليه السلام تابعاً لدين موسى عليه السلام، وهو التوراة، ففي سفر لاوين (الأحبار): «يلبس هارون قميص كتان عند دخول القدس مقدساً، وتكون سراويل كتان على جسده، ويَتَنَطَّقُ بمِنطَقة كتان، ويتعمم بعمامة كتان، إنها ثياب مقدسة، فيرحض جسده بالماء ويلبسها.[٣]

(١) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ص٣، الآية: ١٣.
(٢) مقدمة تفسير حقاني، ص١١٠ نقلاً عن «مرأة الصدق» للبادري بيديل.
(٣) لاوين، ص١٦، الآية ٤.

فالطبيعة والشريعة تقتضيان الطهارةَ عند الصلاة والوضوءَ عند رب الأرباب، خصوصاً إذا كانت الطهارة موجودة في الشريعة الموسوية التي قال فيها المسيح: إني جئت لأكمِّلها لا لأُبدِّلَها. وأما قول المسيح لليهود: «ليس شيء من خارج إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه لكن الأشياء التي تخرج منه...». فمغزاه ـ لو صح ـ أنه لما عرف خبث بواطنهم أراد أن ينصَحهم وأن يُعَرِّفَهم أن غسل الأبدان من النجاسة والجنابة لا يفيد شيئا لو وجد الخبث في الباطن، وليس المراد أنه يجوز للإنسان أن يصلي أويأكل وهو متنجس متضمخ بالنجاسة. والله أعلم وعلمه أحكم.

المصالح في تولية الوجوه إلى القبلة

والمسلمون يصلون متوجهين إلى الكعبة الشريفة التي بناها إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام الذي هو إمامنا وإمامكم، ففي الكتاب المقدس في حقه: «وتم الكتاب القائل: فآمن إبراهيم بالله فحسب له بَرّاً ودُعِيَ خليل الله».[1]

فالتوجه إلى الكعبة يشتمل على مصالح كثيرة: منها: التنبيه على اتباع إبراهيم عليه السلام، والإشعار بتوحيد الله تعالى كتوحيد إبراهيم عليه السلام بكسر الأصنام، وإخلاصِه لذوي الإنعام. ومنها: إجتماع الأفكار إذ كلهم يتوجهون إلى ذلك المقام المقدس، فتجتمع أفكارهم على نقطة واحدة. ومنها: تعظيم شعائر الله.

قال الشاه ولي الله الدهلوي: وأما الكعبة فكان الناس في زمن إبراهيم عليه السلام توغلوا في بناء المعابد والكنائس باسم روحانية الشمسِ وغيرها من الكواكب، وصار عندهم التوجه إلى المُجرد غير المحسوس بدون هيكل يبنى باسمه يكون الحلول فيه والتلبس به تقرباً منه أمراً محالاً، تدفعه عقولهم باديَ الرأي، فاستوجب أهل ذلك الزمان أن تظهر رحمة الله بِهم في صورة بيت يطوفون به،

(١) رسالة يعقوب، ص٢، الآية ٢٣.

ويتقربون به إلى الله، فدَعَوا إلى البيت وتعظيمه.(١)

كيد الشيطان بهم في توجيههم إلى الشمس

المسيحيون يصلون متوجهين إلى جهة مشرق الشمس، وهي غير القبلة التي كان يصلي إليها المسيح؛ لأن قبلته بيت المقدس. ثم إن بولس اليهودي الذي ألقاهم في جب الويل حوَّلَها من تلقاء النفس.(٢)

وقال ابن القيم: وكان المسيح يصلى إلى بيت المقدس، فصلَّوا إلى المشرق.(٣) وبيّن ـ رحمه الله ـ أن سبب تبديل القبلة هو التلطف بالفلاسفة وعُبَّادِ الأصنام ليدخلوا في دينهم. قال: ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضحمل، ولم يبق بأيدي النصارى شيء، بل ركّبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّادِ الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عِبادة الأصنام الْمُجسدة إلى عِبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق.(٤)

هذا هو لعب الشيطان بهم، وصدهم عن سبيل الله، بل زاد البادري بركة الله نغمة في الطنبور فقال: «ليست لنا جهة مخصوصة نتوجه إليها»، فخالف الأخلاف الأسلاف، وينطبق عليهم إذن قوله عزَّ وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.(٥) ولنعم ما قيل: إذا فاتك الحياء فافعل ما شئت.

---

(١) حجة الله البالغة ١/٧٠، ط: مصر.

(٢) الجواب الفسيح، ص٣٠٨.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/٢٧٠.

(٤) إغاثة اللهفان ٢/٢٧٠.

(٥) مريم، الآية: ٥٩ .

المصلحة في تعين الأوقات في دين الإسلام

كان الناس في عهد إبراهيم عليه السلام يعبدون الشمس والكواكب، كما يشهد به القرآن الْمَجيد، ويسجدون لها حين تنوّرها وطلوعها وغلبة نورها وظهورها، فالْمِلَّةُ الإبراهيمية خالفتهم في طريق العبادة وفي تعيين الأوقات، فالأوقات من زوال الشمس إلى غروبها كلها أوقات انحطاط الشمس، فتناسب عبادة المسلمين مخالَفة عنهم. ولانحطاطها ثلاث مراتب: الأولى: أن تنحط من سمت الرأس، وهذا وقت الظهر الذي تجب فيه صلاة الظهر. الثانية: أن تنحط من محاذاة النظر إذا قام الرجل متوجها إلى مغربها، وهذا وقت العصر نصلي فيه العصر. الثالثة: أن تنحط عن أفقها، وهذا وقت المغرب المفروض فيه صلاة المغرب. وفُرِضت صلاة العشاء إذا ذهبت بقية آثارها وغاب الشفق. ولما كانوا يعبدون النجوم والكواكب فرضت الصلاة الأخرى صلاة الفجر حينما تغيب النجوم وأسفَر النهار. وفي تعيين الأوقات على هذا المنهاج تلميح لطيف إلى أن الشمس والنجوم ذاهبة فانية لا تستحق للعبادة؛ لقبولهما الانحطاط والزوال والنقصان والاضمحلال. والمعبود يجب أن يكون متصفاً بالكمال والجلال.(١)

وأما طعنه ـ أي البادري ـ أن الدين المسحي يجيز العبادة والصلاة في جميع الأوقات، ليس فيه تعيين الأوقات كما في الإسلام، فباطل وداحض، فلو كان مراده أنه ليس للعبادة وقت معين محدد في المسيحية، فلم ذكروا في كتبهم صلاة الفجر والمغرب المخصوصَيْن بالفجر والمغرب، وإن كان المراد أن العبادات غير الصلاة لا تتعين بالأوقات، فعند المسلمين أيضاً لا تتعين، ولذا قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.(٢) بل يستحب ذكر الله في كل وقت، وقد وردت الأذكار المختلفة والصلوات المتنوعة عن

(١) مستفاد من السيرة النبوية للسيد سليمان الندوي، وهي بالأردية.

(٢) آل عمران، الآية: ١٩١.

سيد الثقلين ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، عند النوم واليقظة، كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالأحاديث والآثار، وإنما كرهت الصلاة في أوقات ثلاثة لفِقهٍ ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في موضعه.

قراءة المسلمين في الصلوات والمقارنة بين القراءتين

ثم أهل الإسلام يصلون مستفتحين بالكلمات الخارجة من مشكاة النبوة، وهي: «الله أكبر» تعظيم للرب الكبير فوق كل كبير، وخشوع، وخضوع، وإقرار بتعالي ذاته وصفاته، ثم يقول: «سبحانك الله وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله وغيرك». كلها إخلاص، وتوحيد، وتقديس، وتمجيد. ثم انظر إلى سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.(١) حمد وثناء وشكر للمعبود الحقيقي، واعتراف بربوبيته لجميع الخلق، ورحمته على الخواص والعوام، ثم اعتراف بيوم الدين والجزاء والعقاب، ثم تخصيص الله بالعبادة والاستعانة، ثم يدعوه للهداية إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين، واستعاذة عن طريق أهل الزيغ والضلال. وقراءة شيء من القرآن الذي كله نور وهداية ورشد لأهل الغواية من التوحيد والرسالة والتخويف والبشارة. فهل يستوي هذا وما يتفوَّه به المسيحيون من التثليث والضلالة والبنوة والغِواية ؟ كلا! هل يستوي الأعمى والبصير! أم هل تستوي الظلمات والنور! شعر:

سوختم از دست صرافان ناگوہر شناس　　قیمت خرمہرہ با گوہر برابر می کنند

شعر:

چراغ مردہ کجا نور آفتاب کجا　　ببیں تفاوت راہ از کجا است تا بکجا

---

(١) الفاتحة.

فانظر إلى قولهم ناوِينَ للصلاة باسم الأب والابن وروح القدس، ساجدين لله والمسيح ومريم عليهما السلام، ففي صحفة٢٢٦ من كتاب أمجاد مريم «الله يوحي للشيطان: من يصلي إلى مريم لا تؤديه إلى جهنم».[(١)]

وانظر إلى قول المسلمين مستفتحين بـــ «الله أكبر» يؤدون الصلاة خالصاً لله تعالى، لا والله! والبون بينهما كالبون بين الثَّرَى والثُّريَّا، فالمسلمون يجتنبون عن شائبة عبادة الأصنام، حتى يُكره في الإسلام أن يقوم الْمُصلي بحذاء أسطوانة لئلا يتشبه بعبدة الأصنام.

ثم تأمل قراءهم في صلاة الفجر قالوا: «نسجد ونتضرع للمسيح إلهنا، أيها الرب خَروف الله». وصلاة الساعة الأولى: «المسيح الإله الصالح الطويل». فجمعوا بين كونه إلها وبين كونه طويل الروح، وهو الصبر على الآلام، وهذا ينافي الألوهية. وما يقولونه في صلاة الساعة الثانية: «والدة الإله السماوي أنت هي الكريمة». يثبتون لله الوالدة، فهل اعتقد أحد من الأنبياء الوالدة لله تعالى؟ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فإن لم يقدروا ولم يوجَد في كتب الأنبياء السابقين والدة لله تعالى، فاختراع هذه العقيدة كفر وضلالة، وهذا يقتضي عبادة مريم، فلا فرق بينهم وبين المشركين عَبَدَةِ الأصنام الكثيرة، إذ لا فرق بين عدد وعدد، فالثلاثة والألف سواء. بل لهم صلاة يسموها صلاة مريم، ففي الكتاب «ثلاث عشرة رسالة» المطبوعة في بيروت سنة ١٨٤٩م في الكتب الرومانية «هذه الصلاة لمريم العذراء». ونصها: «يا خطيبة مختارة من الله! يا أيتها المستحقة للإكرام فوق الجميع والمستحقة للمحبة قبل الجميع! يا باب السماء! يا من هي الخلاص والسعادة الحقيقية! يا تعزية الْمحزونين! يا مَلَكة السماء التي جميع الملائكة يسجدون لها وكل شيء يُسَبِّحها ويكرمها، صلّي لأجلنا، خلِّصينا يا أيتها الملكة من كل شر من كل تجرية من غضب الله وسخطه من

(١) الجواب الفسيح، ص ٣٠٨

قطع الرجا، خلّصينا من الكبر والبخل والغضب والحسد، خلصينا في ساعة الموت وفي يوم الدين من عذابات جهنم الشديدة، نتضرع إليك أن تسري وترتضي بأن تحفظي الكنيسة المقدسة وجميع الشعب المسيحي، فاستمعينا يا أم الله! يا ابنة الله! يا خطيبة الله! يا سيدتنا! ارحمينا وأعطينا السلام الدائم، يا أم النعمة! يا سرور البائسين الأشقياء بأبواب الكنيسة! لكِ نسجد، لكِ نرتل تسابيح من صميم قلوبنا، أنتِ خلاصنا وفرجنا في وقت الضيق». انتهى بحروفه.[1]

وتدبّر في قراءِتهم في الصلاة السادسة «يا من سُمِرت يداه على الصليب...». فيعظمونه وينادونه لتخليصهم، ثم يصفونه بالضعف والصلب والنقصان والصياح لأجل الصليب، هذا حال حبهم وغرامهم بإلههم، يُعِزّونَ تارة ويُذِلّون أخرى، وهكذا يفعل السفهاء والحمقاء، ولنعم ما قيل: شعر:

صبح دم مرغ سحر با گل نو خواستہ گفت   ناز کم کن کہ دریں باغ بسے چوں تو شگفت
گل بخندید کہ از راست نہ رنجیم و لے   ہیچ عاشق سخن تلخ بمعشوق نہ گفت

ثم انظر فيما يتلون في الصلاة للساعة التاسعة «يا من ذاق الموت من أجلنا! عليك إبتهالنا». تفكر في تضرعهم إلى من قتل على الصليب، ولا أدري أي شيء يُحْوِجُهم ـ بعد أن تخلصوا ـ إلى شفاعة أمه، وكيف يسيئون الظن بالإله ويسألونه أن لا ينقض العهد.

وتأمل في ما يتفوهون به في صلاة المغرب «يا والدة الإله العذراء» الخ. ففيه التجاء إلى أم عيسى عليه السلام وتضرع في جنابها، وقول بألوهية يوحنا، فلا ندري كم إلها لهم، ولعلهم لم يسمعوا قول رجل صائب من أهل الفترة، و لم يلتفتوا إلى شعره حيث قال:

أربّاً واحداً أم ألفَ رب   أَدِيْنُ إذا تقسمت الأمور

---

(١) الجواب الفسيح، ص ٦٤.

تركتُ اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير(١)

وتدبَّر فيما يتلونه في صلاة النوم «الملائكة يمدحونك بتهليلات» الخ. وما يتلونه في صلاة نصف الليل «تبارك الرب إله آبائنا» ففي الصلاة الأولى أقروا بمماثلة الابن للأب وقالوا: «ابنك نظيرك» وفي الصلاة التالية أقروا بأن الله فوق المتعالي، وهذا تناف صريح، وتناقض ظاهر.

مصالح أركان صلاة المسلمين من الركوع والسجود وغيرهما

ثم أيها القارئ ـ زادك الله وإياي فهماً ـ تفكر في طريق عبادة المسلمين، فإنها مشتملة على الركوع والسجود والقعدة والتسليم، كلها مُشعِرة بالتوحيد والتعظيم والإخلاص والتفخيم، فإن الإنسان إذا قام في الصلاة ووضع اليدين تحت السرة أو على الصدر فكأنه يشير إلى أن قدرته (الإنسان) مأخوذة ومستعارة من قدرة الله عز وجل، ويومِض إلى أنه خادم وحقير يخدُم الرب تعالى، كما أن الخادم يقوم واضعاً لليد على الصدر أو تحت السرة، هكذا يفعل المصلي، ثم إذا تلا كلمات التعظيم وآيات القرآن الحكيم، ويوقن أنه حقير في جنب عَظَمة الله تعالى يطرأ عليه حالة التواضع، والذي يقوم مقامه في عالم الأجسام هو الركوع فيركع، ثم إذا رسخ في قلبه ذلك الاعتقاد ويستحقر نفسَه حتى من الذباب والبعوض تنشأ في قلبه كيفية تدل على كمال التعظيم، والذي يقوم مقامه السجود، ثم يكرر السجدة ترغيماً للشيطان؛ لأنه أبي وأنكر وتكبر عن السجود الذي فيه كمال التعظيم، ويصير به الإنسان أقرب ما يكون من ربه، وفيه نهاية الْخَفض والعَجز؛ لأنه تنكيس البدن، وأشرف أحوال العبد عند لقاء الرب أن يلقاه أخفض ما يكون، وفيه إلصاق الجبهة بالأرض، وذلك يُذَكِّر الإنسان أصلَه وحقيقته وما تركّب منه وهو التراب، ويوجِّهه إلى التواضع لخالقه، والاعتراف بفضل كرمه، وفيه سكون الأعضاء وحبسه عن

(١) البيتان لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه. راجع: تاريخ مدينة دمشق ١٩/٥١٣.

التعامل مع العالم المادي.[١] ثم إذا أحسّ تعبا يقول الله تعالى له: اقعد يا عبدي لقراءة الثناء كما في القعدة الأولى، أو لطلب الدعاء كما في الأخيرة.

قال في محاسن الإسلام: فكأنه يقول الرب: عبدي إذا فرغت من الخدمة فاقعد لسؤال الحاجة، ومن بدائع لطفه مع عبده في ضعفه أن في صلاة واحدة يأمره بالقعود مرتين، فكأنه يقول: اُقعُد عبدي! فقد تعبت في خدمتي، فيا ويل من يخدم الخلق يقوم بين يديه يوماً ولا يقول له: اقعد! ويقوم بين يد خالقه ساعة فيقول له: اقعد، في حالتين، فبالقعدة الأولى يقول له: أخلص ثناءك، وبالقاعدة الثانية يقول له: اطلُب رجاءك وادعُ دعاءك، لا تمنع عطاءك .[٢]

فالحاصل أن الصلاة في الإسلام دعاء، وإلى الرب نداء، وحمد وثناء، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتكبير، وتسليم، وطلب رحمة، وتعظيم. ولو رُقِمت جميع مزايا الصلاة، وأفعالها، وأركانها، وقراءتها، ومشمولاتها لكانت كتاباً ضخماً، إلا أن القليل نموذج الكثير، والغُرفَة تُنبئ عن البحر الكبير.

النظر في طريق عبادة المسيحيين

ثم تأمل في طريق عبادة المسيحين، فإن غاية تعظيمهم أن يخروا على ركبهم ويجثون. وأظن أن ذلك الطريق أوجدها أذهانُهم، فإن مريم عليها السلام أمرت بالسجود. قال الله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[٣] كانت مريم عليها السلام على دين عيسى عليه السلام، وقد أمِرت بالركوع والسجود، فطريق عبادتنا أتم، وأبلغ، وأكمل، وأخشع، وأطبق على العقل وأخضع. شعر:

یا تنگ نہ کر مجھ کو اے ناصح نادان   یا چل کر دکھادے کہ ایسی دہن ایسا

(١) لخصت هذه الوجوه من العبادات في الإسلام لمحمد إسماعيل.

(٢) محاسن الإسلام، ص ١٤.

(٣) آل عمران، الآية: ٤٣.

المصلحة في كون الصلاة بالعربية

اعلم أن المسلمين يتبعون رسولهم، ويقرؤون ما أنزل عليه، فما يتلى في الصلاة إما القرآن، أو الأدعية المأثورة من النبي صلى الله عليه وسلم، وكلاهما بالعربية الفُصحى لا مثل لهما في البلاغة والفصاحة. أما القرآن فله تأثير بليغ، وإعجاز متناه إلى حد لا يتحدى، فقد أعجز مصاقعَ الفُصحاء، وأخرس شقاشق البلغاء عن معارضته، فقد قال الله تعالى وصدق: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.[١] وقال عزَّ وجل: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾.[٢] فالقرآن: الباهرة آياته، القاهرة معجزاته، له شأن عظيم، والكلماتُ الأخرى بإزاءها لا تبلغ شأوها، ولا تمس صفحة سمائها، فهو الحقيق بالقراءة، وله المثل الأعلى. وأما الأدعية المأثورة الخارجة عن مشكاة النبوة، فلا مثل لها في كلام البشر، فكلِماته جوامعُ الكلم، فهو أفصح البشر وأبلغ العرب والعجم، أروي من حياض البلاغة، وسُقي من منابع الفصاحة، ورُضع من ثدي البراعة، فترْكُ مثل هذا الكلام والاشتغالُ بكلام لا يعلم صحيحُه من فاسده مما لا ينبغي. قال الشافعي رحمه الله تعالى: فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان الْمُتّبَع على التابع، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم.[٣] فعند اختلاف الألسنة الرجوع إلى لسان المتبوع أوفق بالعقل.

ولم تَجُزْ بلسان آخر؛ لتكون لغة الصلاة لغة عالمية تجمع أهل الإسلام حول مركز واحد، ويعرف المسلمون أن صعيد اجتماعنا واحد، وهكذا يعلمون الوحدة

---

(١) الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) حم السجدة، الآية: ٤٢.

(٣) رسالة الشافعي رحمه الله برواية الربيع بن سليمان، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، ص٤٦، ط: دار الكتب العلمية.

في زمان ومكان، ويصيرون مصاديق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله تعالى، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

اللغة تؤثر في المعاشرة والبيئة

ومن المعلوم المتقرر أن اللغة تفعل في أحوال الإنسان وشؤونه ما تفعل النار نار الحداد في الحديد، فاللسان الرائج في أي بلد يرغِّب قلوبهم، ويميل أذهانهم، ويسيرهم على منهاج أهل هذه اللغة، ويَصْرِفهم عما هم عليه من الطِّراز الأول إلا من شاء الله تعالى، وليس هذا خرص وتخمين، بل تَجرِبة ومشاهدة، وإن أردت أن تحصل العلم بهذا وتزيد يقيناً فانظر إلى حال أهل الهند قبل مئة سنة، كانت لهم معاشر وأسلوب خاص في كل شيء، وبعد ما تسيطر الإنكليزيون، وأنشبوا أظفارهم، ورَوَّجُوا لغتَهم الإنجليزية في كل شيء، حتى كتبوا على الخطاب، وعلبة الكبريت، ولوح الدفاتر هذه اللغة، تبدلت المعاشرة الهندية، وتغيرت شاكلتهم وطريقتهم، فالآن تراهم منصبغين في حبهم، منغمسين في حياضهم الْمُتَرعَةِ من الأنجاس، وهذا أثر هذه اللغة، فإلى الله المشتكى، وإليه ندعو أن يخلِّصنا من حب هذه اللغة إلا بقدر الضرورة ـ فإن الضرورات تبيح الْمحظورات فالضرورة غير المحبة ـ ويصبَغَنا بصِبغ دينه الحق، ويجنبنا عن المعاصي، ويُشَيِّبَنا في لغة نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويُمِيتَنا عليه، فإنها أحب الألسنة، وأشملها، وأعمها، وأكثرها فائدة وعائدة، وأوفر ألفاظاً ومعانٍ، وأوسعها مادة، بل أكثر اللغات مأخوذة عنها حتى قيل: إن نحواً من خمس مئة لفظ من الإنجليزية مأخوذة من العربية. والله أعلم.

---

(١) رواه الترمذي ٢/١٥٠.

الصوم في المسيحية والإسلام

الصوم في الديانة المسيحية

قد تحقق أن الصوم يوجد في جميع الأديان، ويرشدنا إلى هذا قولُ الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.(١) ولسنا بصدد التعرض إلى الصوم في الأديان الأخرَ غير المسحية، فإن موضوعنا يتعلق بذلك، فالإنجيل الجليل يصرِّح عن صوم المسيح عليه السلام ويقول: إنه صام أربعين يوماً، ففي إنجيل متى: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليُحَرَّب من إبليس، فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً».(٢)

يترشح من الإنجيل أنه صام ذلك بعد النبوة.(٣) وأمر به أمته ونهى عن الرياء فيه. قال: «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالْمُرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يَظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمتَ فادَّهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يراك في الخفاء يُجازيك علانية».(٤)

وفي كتاب يوئيل من العهد القديم (الذي هو حجة عندهم وجزء من الكتاب

---

(١) البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) إنجيل متى، ص٤، الآية: ١-٢.

(٣) إذ في الأصحاح قبله: «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حَمامة آتياً عليه وصوت من السماء قائلاً: هو ابني الحبيب الذي سُرِرْتُ به». إنجيل متى، ص٣، الآية: ١٦-١٧.

(٤) إنجيل متى، ص٦، الآية :١٦-١٨.

المقدس): «ولكن الآن يقول الرب: ارجعوا إلي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنَّوح».[1]

فانكشف مما ذكرنا وحكينا أن الصوم موجود في الأديان القديمة خصوصاً في دين النصارى. ثم كم عدد صيامهم وطريقها ومبتدأها ومنتهاها وموسمها ووقتها، فاختلفوا فيه اختلافاً شديداً. قال الشيخ أبوالحسن علي الندوي: فالمسيحيون الأوّلون يصومون يوم الكفارة، ولكن المسيحين الذين ينتمون إلى أصول أخرى لم يَلُمُّوا على ذلك، وبعد انتهاء القرن الأول المسيحي ونصف قرن صار الأمر مُوْكولا إلى تقوى الصائم، فبعض الرهبان يقترحون صياما ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية). ويتحدث القديس (ايرنيس) عن أنواع من الصيام: منها: ما يستغرق اليوم، ومنها: ما يستغرق يومين أو بضعة أيام، ومنها: ما كان يستغرق أربعين ساعةً متوالية، وكان صوم «جمعة الآلام والصلبوت» صوماً شعبياً عاماً، وكان صوم يوم الأربعاء ويوم الجمعة شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي، وكان الذين ينتظرون الاصطباغ يصومون يوماً أو يومين ويشترك فيه مُتَوَلُّوا الاصطباغ، وقد نال الصوم قسطا كبيرا من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحي، وقد اتسم الصوم بصلابة وشدة في القرن الرابع، وقد حُدِّد اليومان اللذان يسبقان «عيد الفصح» بالصوم في هذا العصر. وكان الصوم في هذين اليومين ينتهي في نصف الليل، والْمَرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا في هذين اليومين كان يسمح أن يصوموا «يوم السبت»، وقد سُجِّلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم. وكأنه هنالك اختلاف في نهاية الصوم فكان بعضهم يُنهي ويفطر عند صوت الديك، وبعضهم إذا أرخى الليل سُدوله. أما صوم أربعين يوماً فلا يوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي. وكانت اختلافات في صيامهم، فصيام أهل روما يختلف عن صيام أهل لامان والإسكندرية، وبعضهم يمسك عن تناول

---

(١) يوسيل، ص٢، الآية: ١٢.

الحيوانات خلافا لغيره، وبعضهم يجتزء بالسمك والطيور، وبعضهم يضرب عن البيض والفواكه، وبعضهم يجتزء بالخبز اليابس، وبعضهم يكف عن كل ذلك. وقد شُرِعت أيام أخرى للصوم في القرون المتأخرة تِذكاراً لحوادثَ وأيامٍ تتصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدها. منها: ما كان يستغرق ثلاث ساعات وأربعاً يُمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب.

وقد حُدِّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد، وبعد الإصلاح حدَّدت الكنيسةُ الإنجليزية أيام الصوم، ولم تُقَنِّن قوانين وحدوداً للصائمين تاركة لضمير الفرد، ولكن قوانين البرطان الإنكليزي في عهد ايدرود السّادس، وجيمس الأول، ومرسوم الزبته فَرَضَ الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم.(١)

قال غلام مسيح: ولم يأمر عيسى عليه السلام أتباعه بصوم يوم معين، بل أي يوم شاءوا صاموا، إلا أن المسيح أمر أن المطلوب الأصلي في الصوم هو رضى الله تعالى لا الرياء.(٢)

قد تحقق من هذا التقرير واستبان أن عيسى عليه السلام وإن صام أربعين يوماً ويومَ الكفارة لكن المسيحين لا يعملون بذلك، بل حرَّفوا ذلك وابتدعوا من أنفسهم صياماً وطرقا مختلفة. منها: ما يستغرق يوماً، ومنها: ما يستغرق يومين أو بضعة أيام. وكذلك يختلفون في وقت انتهاء الصوم. وبعضهم يمسك عن تناول الحيوانات. وهذا صومهم إلى غير ذلك مما تَلَوْتَ ووَعَيتَ. قال العلامة الآلوسي: وكذا الصيام الذي هو عندهم عبارة عن ترك بعض أنواع الأطعمة، لا عبارة عن ترك الأكل والشرب كما هو صيام المسلمين.(٣)

---

(١) الأركان الأربعة بحذف بعض العبارات نقلاً عن دائرة معارف الأديان والأخلاق.

(٢) عيسائيت ميں ايمان وعمل۔

(٣) الجواب الفسيح، ص٣٠٨.

الصوم في شريعة المسلمين

الصَّوْمُ بالفتح وسكون الواو في اللغة: الإمساك عن الفعل مَطْعَماً كان أو كلاماً أو مشياً، كما في المفرادات،(١) أو ترك الإنسان الأكل كما في المغرب(٢). وعند الفقهاء: ترك الأكل والشرب والوطي من زمان الصبح إلى الْمُغرب مع النية.(٣)

وهو فرض على المسلمين البالغين شهراً واحداً، هو شهر رمضان. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.(٤) والمراد من الشهر شهر رمضان المعهود فيما قبلُ من الآيات. وقد فرض في السنة الثانية من هجرة سيد المهاجرين. والآية التي هي مناط الصوم ومداره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.(٥)

ذكَر الله تعالى في هذه الآيات أموراً:

الأوّل: إن الصوم ليس أمرا مبتكرا، بل لكم فيه أسوة حسنة بالأمم السابقة.

والثاني: إن الصوم يورث التقوى، ويردع عن الهوى، ويزيد في الروحانية، ويوصل المسلم إلى سُرادقات اللاهوت. قال حجة الله في الأرض ولي الله الدِّهلوي

---

(١) مفردات غريب القرآن، ص٢٩١.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب ١/٤٨٧.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، ص٨٥٧.

(٤) البقرة، الآية: ١٨٥.

(٥) البقرة، الآية: ١٨٣–١٨٥.

رحمه الله تعالى: لما كانت البهيمية الشديدة مانعة عن ظهور أحكام الملكية وجب الاعتناء بقهرها، ولما كان سبب شهوتها وتراكُمِ طبقاتها وغزارتها هو الأكل والشرب والانهماك في اللذات الشهوية، فإنه يفعل مالا يفعله الأكل الرَّغَدُ، وجب أن يكون طريق القهر تقليل هذه الأسباب.(١)

والثالث: إن الصوم ليس زمانه كثيراً يَمَلُّ به الإنسان ويختل به فكره، بل أياماً معدودات.

والرابع: إن هذا ليس حكماً عامّاً لجميع أفراد الإنسان في هذا الوقت المعين، بل ليس على المريض والمسافر ضيق وإجبار، فإنهم يفطرون ويقضُون بعد الصحة والإقامة، وذلك لأن الله تعالى يريد بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسر.

والخامس: إن هذا الشهر المفروض فيه الصيامُ شهر رمضان الذي أنزِل فيه القرآن الذي هو مِنّة عظيمة من منن الْمَنّان.

فوائد الصيام

لما اجتمع في الإنسان قوتان: قوة روحانية، وقوة شهوانية، وبينهما تجاذب ومجادلة، فالقوة الروحانية تجذب الإنسان إلى الروحانية الصِّرفة، وتنشأ منه الرهبانية، والثانية يغرق الإنسان في الحيوانية، فلا يتفكر إلا المآكل والمشارب، وأنت تعلم أن أكثر أفراد الإنسان يميل إلى الشهوات الفانية طبعاً، فالصوم علاج وحيد للمادة الطاغية وقَدُوْمٌ لِمُغْريات الشهوة ومفاسد التخمة، وإليه الإشارة في قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».(٢) وفيه تَخَلُّقٌ بأخلاق الله، وتشبه بالملائكة، ورياضة شديدة ومقاومة للنفس.

(١) حجة الله البالغة ١٤٢/٢. والأركان الأربعة.
(٢) رواه البخاري، باب من لم يستطع الباءة فليصم.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: فأما علماء الآخرة فيعنُون بالصحة القبولَ، وبالقبول الوصولَ إلى المقصود، ويهتمون أن المقصود من الصوم التخلُّق بِخُلُقٍ من أخلاق الله تعالى وهو الصمدية. والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم منـــزَّهون عن الشهوات.(١) وفيه اكتساب محاسن الأخلاق؛ فإن قلة الأكل من محاسن الأخلاق. وفيه إحساس الفقر والمؤاساة مع الفقراء؛ فإنه يعلم الجوع ويحس أثره، ثم ينتهض فيه داعية إطعام الفقراء والمساكين بسبب ألَمٍ يخمشه. وفيه تمرين الصبر، والله مع الصابرين، وقد جاء أن الصبر نصف الدين، والصائم يصبر ويترك أحبَّ الأشياء خوفاً من رب العالمين. وفيه هجر المعاصي. وفيه كثير من الفوائد الطِّبعية ذكرها عبد الفتاح رحمه الله تعالى. منها: أنه علاج لاضطراب الأمعاء الْمُزْمِنة والمصحوبة بتخمير في المواد الزُّلالية النشوية، وعلاج زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة، وزيادة الضَّغط الذاتيّ، والبول السكري، وهو منتشر انتشار الضغط، والتهاب الكلى الحاد والزّمن المصحوب بارتشاح وتورُّم، وأمراض القلب المصحوبة بتورم، والتهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن.(٢)

وفي «محاسن الإسلام»: ومن جملة الْمحاسن: أنه مهما خلا البطن عن اللُّقَم امتلأ من الحكم. قال عليه الصلاة والسلام: «ما مُلِئَ وِعاءٌ شرا من بطن»(٣) إذ ليس في العالم وعاء يصلح للحكم إلا البطن، وليس من الحكمة أن يُملأَ من اللقم ويمنع من الحكم، فالمؤمن إذا خلا بطنه صفا سره، وأشرق نوره وبرّه.(٤)

(١) إحياء علوم الدين ١/٢٧٩.

(٢) روح الدين الإسلامي، ٤١٨-٤١٩.

(٣) روى معناه الترمذي عن مقدام بن معدي كرب، باب ما جاء في كراهية الأكل، رقم:٢٣٠٢.

(٤) محاسن الإسلام، ص٢١.

الحكمة في توالي أيام الصوم

وإنما شرع متواليا لا منفصلا، ليحصل به ما هو المقصود من الصوم، وهو ضعف القوة الشهوانية وترقي القوة الروحانية، فإن تخلل الفترات الطويلة يُعدِم مقاصد الصوم، ولا يُضعِف القوة البهيمية، ولا يؤثر في نفس الإنسان وأخلاقه وعاداته، فكان من الحكمة أن تتوالى. واستُثنِيَ منه الليل لِما في ذلك من المشقة والحرج، وما جعل الله في الدين من حرج.

قال العلامة ولي الله الدِّهلوي رحمه الله مبيِّناً لتعين مقداره: ثم وجب تعيين مقداره لئلا يُفَرِّطَ أحد فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه، أو يُفْرِط مفرط فيستعمل منه ما يُوهِن أركانه ويذهب نشاطَه...وجعلت المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتاد؛ لأنه يُخفِّفُ ويُنَقِّه ويذيق بالفعل مذاقَ الجوع والعطش، ويُلحق البهيمية حيرةً ودهشة ... ويُضبَط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لأنه هو حساب العرب ومقدار يويهم، والشهر برؤية الهلال؛ لأنه شهر العرب وفيه سهولة...، وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد في زمان واحد يرى بعضهم بعضاً: معونةٌ لهم على الفعل، وسبب لنـــزول البركات.(١)

المقارنة بين الصومين: صومهم وصوم المسلمين

ثم أيها القارئ – رحمني الله وإياك – تفكَّر في صيامهم وصيام المسلمين، فإن صيامهم ليست بِمُستَندَة ولا هو فعل رسولهم، فإن عيسى عليه السلام صام أربعين يوماً ويومَ الكفارة الذي أمر به اليهودَ، ففي سفر اللاوين: «وكلم الرب موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة محفِلاً مقدساً يكون لكم،

(١) حجة الله البالغة، كتاب الصوم ٢/١٤٣-١٤٥.

تذلِّلون نفوسَكم وتقربون وقوداً للرب، عملاً ما لم تعملوا في هذا اليوم عينه، لأنه يوم الكفارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم».(١)

وكان المسيح عليه السلام متبعاً لشريعة موسى عليه السلام. قال صاحب إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموسَ أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل».(٢)

والمراد من الناموس التوراة، كما في إنجيل الأردية: «نہ سمجھ کہ میں توریت یا نبیوں کی کتابوں کو منسوخ کرنے آیا ہوں».

ولم يوجد لهذه الصيام أثر عند أكثرهم، بل وكَّلوا ذلك إلى تقوى الصائم، واقترحوا صياماً من أنفسهم صياماً لمقارنة الإغراءات، وصياماً آخر: يومَ الجمعة وقبل الاصطباغ وغير ذلك، وهذا ابتداع وتشريع منهم، ليس له أثر في ديانتهم، يحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذكروا به، ولم يعملوا بأحكام المسيح عليه السلام. وفي الإنجيل: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي».(٣) قال له يسوع: «أنا هو الطريق، والحق، والحياة، ليس أحد يأتي إلى الأب إلاّ بي».(٤) فنَبَذُوا هذا الطريق وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمون. فذرهم في خوضهم يلعبون. شعر:

عارف ہم از اسلام خراب است وہم ازکفر پروانہ چراغِ حرم و دیر نداند

ثم انظر إلى صيام بعضهم ما يستغرق يومين، أوبِضعة أيام، أو أربعين ساعة. وتأخير الفطر إلى إرخاء الليل سُدُوله، ولا يخفى ما فيه من التشديد والغلُوِّ وتطويل

(١) سفر لاوين، ص٢٣، الآية: ٢٧-٢٩.
(٢) متى، ص٥، الآية: ١٨-١٩.
(٣) إنجيل يوحنا، ص١٤، الآية: ١٥.
(٤) يوحنا، ص١٤، الآية: ٦.

مدة الصوم، وإضرار البدن أشدَّ الضرر حيث لا يبقى في الجسم بعد ذلك نَشاط، ولا قوة مقاومة الأعمال واكتسابها، والخوض في أشغال الدنيا والآخرة.

والإسلام سَدَّ جميع تلك الطرق، بل قَدَّرَ مدة يمكن أن يتحمل الإنسان مشقتَه، ولذلك رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في السحور وتعجيل الفطر. وانظر إلى صيام بعضهم والتفريط في أمرها، منها: ما يستغرق ثلاث ساعات أو أربعاً، ولا يحصل منه الغرض المطلوب، ثم تأمل في إمساك بعضهم عن تناول الحيوانات واللُّحوم ليس له أثر في دينهم، وهذا غلُوٌّ وتشديد على أنفسهم وتحريم للطيبات بلا وجه. فالحمد لله الذي شرَّفنا بالإسلام خير الأديان، وجعل أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وجعلها أمة وسطاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.(١)

وعيَّن الله تعالى لصومنا ابتداءً من الصبح الصادق إلى غروب الشمس، وهذان الوقتان ضَبْطُهما أسهل، ومن رؤية الهلال إلى رؤية هلال آخر. قال النبي صلى الله عليه وسلم فداه أبي وأمي: «لا تصوموا حتى تروا الهلالَ، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فاقدُرو له».(٢)

والمسيحيون يفتخرون بصيامهم ويقولون: ليس المقصود من الصوم ترك الأكل والشرب والجماع، بل الله يحكم بالتلاقي بينهم والصِّدق وترك الرياء في الصوم. أقول: الإسلام يؤكد هذه الأحكام ويقول: ليس الصوم فقط تَرْكُ هذه الأمور، بل الصوم الحقيقي ترك هذه الأمور مع ضبط اللسان والنظر والجوارح كلِّها عن المعاصي، والإخلاص لله تعالى وترك الرياء على أكمل وجه. قال النبي صلى الله عليه

---

(١) البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) الموطا للإمام محمد رحمه الله، ص ١٨٠.

وسلم: «من لم يدع قول الزور والعَمَلَ به فليس لله حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه».[١] وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابّه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان: إذا أفطر فَرِح، وإذا لقي ربَّه فرِحَ».[٢] وذم اللهُ الْمُرائين، وجعل الرياء سِمَةَ المنافقين، ونهى عنها في الصوم كانت، أو في الصلاة، أو في غيرهما. قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.[٣] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد: مَن كان أشرك في عَمَلٍ عَمِلَه لله فليطلُبْ ثوابَه من عند غيرالله؛ فإن الله أغنى الشُّركاء عن الشرك».[٤] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يُسَمِّعْ يُسَمِّعُ اللهُ به ومن يُرائي يُرائي اللهُ به».[٥]

وما نهى عنه عيسى عليه السلام أن لا يتغير وجوهُكم، فالاجتناب عنه عسير جداً، فإن بالصوم يتغير الوجه، وتَجُفُّ الشفتان، وتتغير حال الإنسان. فالأصل أن الصومَ الكامل عبارة عن ترك الْمُفطرات الثلاثة، والغيبة، والنميمة، والفسوق، والجدال، مع العبادة، والتوجه إلى الله، والذكر، والتسبيح، والتلاوة، والتراويح، مع أن الرياء لا يتحقق في صوم المسلمين المفروض عليهم؛ لأن جميع الناس البالغين لما

(١) رواه البخاري، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم:١٧٧٠.

(٢) رواه البخاري، باب فضل الصوم ٢٥٥/١.

(٣) الماعون، الآية:: ٤-٧.

(٤) رواه الترمذي، باب ومن سورة الكهف، رقم:٣٠٧٩.

(٥) رواه ابن ماجه، ص ٣١٠ .

كانوا صائمين كيف يتحقق الإراءة، فتشريعُ الصوم الإسلامي على الوجه المذكور نَهَى عن الرياء، فشريعة الإسلام حائزة لجميع أطراف الْمحاسن، مُحِيطة بجميع نواحي الكمالات، رادع من جميع القبائح والسيئات. وصومُ المسلمين سنة من سنة سيد الْمُرسلين، كله تقوى وأدب وخير وعبادة وإخلاص لله تعالى، لا تذكارٌ للحوادث والأيام، كما في الدين المسيحي. فالشكر لله الذي أكرمنا بالدخول في الإسلام، وفرض علينا الصلاةَ والصيامَ. شعر:

این سعادت بزور بازو نیست تا نہ بخشد خدائے بخشندہ

أي هذه السعادة ليست بقوة الساعد، بيد أنها عطية من الله تعالى، يَمْنَحُها من يشاء، وبيده الأمر كله.

الحج في الإسلام والمسيحية

الحج في الديانة المسيحية

الحج وإن لم يكن مفروضاً في الديانة المسيحية، لكن لا تُنكَر فضيلته لشيوعه في جميع فرق المسيحية؛ فإنهم يحجون ويزورون مواضع مخصوصة لهم في «روما». فالحج عندهم زيارة أمكنة مخصوصة وهي قبور أوليائهم ورسلهم في أوقات متعينة. وتفصيل حجهم ذكره السيد أبو الحسن علي الندوي حاكياً عن دائرة معارف الأديان والأخلاق: الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة الْمَشاهد المقدسة، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في «روما»، أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزهاد والشهداء، وإن الجيل المسيحيَّ الأول لم يشعر زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها بالنسبة إلى المتأخرين الذين عُنُوا بذلك أكثر، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي، وقد شغف عدد كبير من المسيحين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره وزيارتها، وعُنُوا بذلك أكثر مما عُنُوا بتعاليمه ووصاياه.

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بَتاتا، وكانت روما المدينة التي تلى بيتَ المقدس في الأهَمِّيَّة يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير. إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قِمَّتَها جعلت روما مركزاً للزيارة، ولا سيما فإن ضَريحي القديس بطرس والقديس بولس قد أضافتا عليه من العظمة والجلال ما جعلها مَثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالَم كله، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً. وقد كان إقبال الزّوّار عظيما على سراديب الأحوات (Cote Combs) التي تقدَّس لأجل

عظماء الشهداء. إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة روما في أي فترة من فَترات التاريخ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة مَحَطَّ أنظار الناس في كل زمان.(١)

إنكارهم من فرضية الحج ومطاعنهم في جمع المسلمين

قال البادري بركة الله: فريضة الحج في الإسلام تصدِّق دعوانا أن الرسول العربي بعث لقوم العرب خاصة؛ لأن الحج كان سهلا في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ممكنا في زمنه أن يجتمع العرب في بقعة واحدة، لكن أداء هذه الفريضة لجميع أهل الأرض ليس بممكن، وينبغي للمذهب العالمي أن تكون أصوله وأحكامه لكل قوم ولكل مكان وزمان ليمكن عليها العمل على السواء، ولا يمكن ذلك في الإسلام، ولهذا لم تأمر المسيحية بالحج، ولا بالعمرة، ولا بوقوف عرفة. هذا مُعَرَّبه.(٢)

وقال آخر: لم يأمر المسيح بزيارة المشاهد المقدسة؛ لأن الله حاضر في كل موضع، ويستحق أن يعبَد في كل مشهد، لكن بعض المسيحيين من فلسطين يزورون الموضع الذي نزل فيه المسيح، لكن زيارتهم ذلك ليس بفرض، ولا يمكن أن يزار قبر المسيح؛ لأنه خال.(٣)

يستبين من هذه العبارات أن الحج ليس بفرض، ومع ذلك فإنه شائع ذائع فيما بينهم يؤديه صغيرهم وكبيرهم، ويشدون رحالهم إلى قبور قِدِّيْسيهم.

وقال عبد المسيح ـعليه ما عليه ـ رداً على الحج المبارك: وأنت وأصحابك عالمون أن العرب كانت تنسُك هذه المناسك وتؤدي هذه الأفعال في سالف الزمان

(١) الأركان الأربعة، ص٢٦٣.

(٢) توضيح البيان، ص٥٣.

(٣) عيسائيت ميں ايمان وعمل، ص ٦٧.

عند بناء هذا البيت، فلما جاء صاحبك بالإسلام لم نره زاد في هذه الأفعال ولا نَقَصَ منها شيئاً، غير أنه لبعد المشقة وطول المسافة وتخفيف المؤنة جعله حجة واحدة في السنة وأسقط من التلبية ما كان فيه شناعة. والقصة هي تلك القصة بعينها التي تفعلها الشمسية والبراهمة ببلاد الهند إلى هذه العناية، وتَنْسُك فيها لأصنامها. إلى آخر ما هَذَى.[١]

الحج في دين الإسلام

الحج لغة: القصد. واصطلاحاً: قصد أمكنة مخصوصة في زمان مخصوص لله تعالى. وهو فرض على كل مسلم، حر، بالغ، عاقل، يستطيع الزاد والراحلة، مرةً واحدةً في العمر. وفرائضه ثلاثة: الإحرام (أن يلبس لباسا غيرَ مخيط من ميقات معيَّن ويلبي)، والوقوف بعرفة (هو جبل بقرب مكة)، وطواف الزيارة (هو طواف يوم النحر). وواجباته أربعة: القيام بمزدلفة في الليلة العاشرة من ذي الحجة، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، وطواف الصدر (أي الرجوع). وغيرُها من الأفعال سنن ومستحبات.

الحج في الأديان الأخر

لا شك أن لجميع الأديان مواضع مخصوصة يعبدون فيها ويتقربون فيها إلى الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾.[٢] كبيت المقدس لليهود، والأمكنة المقدسة للهنود، وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدسة على ساحل نهر الكنج (Ganges) المقدس يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل [٣]

---

(١) الجواب الفسيح لردّ ما لفّقه عبد المسيح.

(٢) الحج، الآية: ٦٧.

(٣) الأركان الأربعة، ص٢٦٦.

تخصيص الكعبة بالحج

إن الله تعالى جعل بعض الأمكنة مختصَّة بعبادات مخصوصة، وفضَّلها على سائر الأماكن لِمَزِيَّةٍ توجد فيه وفضيلةٍ تكون فيه، وكونه من شعائر الله بحيث إذا رُؤي ذُكِرَ الله تعالى. ولما كانت الكعبة من شعائر الله حيث بناها إبراهيم عليه السلام، الذي هو جَد اليهود والنصارى من بني إسرائيل والعرب، وقامِع الشرك ومُطهِّر بيت الله، ورافع بناءه. قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[1] ونادى إبراهيم وأذَّن في الناس بالحج. قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾،[2] وَجَبَ أن يرتحل إلى هذا البيت العتيق تذكاراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وأتباعه من النبيين والصالحين، واقتداءً بهم في قطع أوداج الشرك، فلا شك أن الكعبة مركَز للهداية والإرشاد، ومنبَثَق للنور، وهي بيت الله المعظم، ومكان حنين للمسلم، فالحضور فيها والعبادة عندها من أفضل القربات وأم العبادات. وإليها أشير في الزبور: «طوبى للساكنين في بيتك أبداً يسبِّحونك، طوبى لأناس عِزُّهم بك، طُرُقُ بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء يُصَيِّرونه يَنبوعا، أيضاً ببركاتٍ يُغَطُّون مُورَة (يريد مروة)».[3]

وهذا تمثيل صحيح للحجاج السائرين بمكة الزائرين لبيت الله العظيم. قال باسورَتْه إِسمِتْه: سلسلة بناء الكعبة تصل إلى إبراهيم وإسماعيل، بل إلى شيث وآدم، واسمه بيت أيل، الذي يدل على أنها بِناء رجل كبير.[4]

---

(١) البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) الحج، الآية: ٢٧.

(٣) مزامير، ص٨٤، الآية: ٤-٦.

(٤) تفسير ماجدي ٢٤٦/١.

فوائد الحج ومصالحه

في الحج فوائد ومصالح وحكم، يضيق نطاق القلم عن تبيانها وكشفها. منها: توطين القلب على فراق الأهل، والولد، والوطن، وأهل البلاد خالصاً لله تعالى، طالباً للعقبى، راحلاً عن الدنيا. ومنها: نزع مادة الشح والبخل عن صَدْره وقلبه، والتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه. ومنها: تحمل الأذى في سبيل الله تعالى، والدخول في أغمار الجهود والمشقة. ومنها: ذكر الله تعالى، فإن المقصود هو ذكر الله. ويذكر الله عند رؤيته بيته، فالواصل إلى البيت واصل إلى رب البيت، والشاهد لِمَشاهد الأنبياء شاهد لآيات الله. شعر:

حاجی بره کعبه ومن طالب دیدار   او خانه همی جوید ومن صاحب خانه

وقال آخر: شعر:

أمر على الدِّيار ديار ليلى   أقبل ذا الجدار و ذا الجدار
وما حب الديار شَغَفن قلبي   ولكن حب مَن سَكَن الديار

وقال آخر: شعر:

مقصود ما بدیر وحرم جز حبیب نیست   هر جا کنیم سجده بدان آستان رود

ومنها: وحدة كلمة المسلمين واجتماع شعثهم، فإن إجتماع المسلمين ببقعة واحدة وسيلة لاتحادهم، بل مشعر على اتفاقهم، وينبئ على أن ظاهرهم كبواطنهم في الإيمان والاتحاد في سبيل الله تعالى. ومنها: التجارة وتحصيل منافع الدنيا، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾.(١) ومنها: زيارة الآثارِ القديمة آثار الأنبياء عليهم السلام. والعلم بمختلف طبقات الأرض. والعلم بالألسنة المختلفة وتاريخ الأقوام المتعددة. وغير ذلك من النكات واللطائف ذكرها العلماء العارفون رحمهم الله تعالى.

---

(١) الحج، الآية: ٢٨.

شعر:

داماں نگہ تنگ وگل حسن تو بسیار گل چیں بہارِ تو زداماں گلہ دارد

النظر على أركان الحج في الإسلام

ثم تأمل في أفعال الحج وأركانه! تجدها أكمل في تهذيب الإنسان من الأخلاق الدَّنيئة من الكبر والخيلاء وتنقيحه من الرّذائل. فانظر إلى الإحرام ينـــزع الإنسان المخيط ويلبس لباس الموتى ويُظهر صورة قول القائل: «موتوا قبل أن تموتوا». ولا يقطع أظفاره ولا يتطيب بطيب ولا يصيد. قال الله تعالى: ﴿لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.(١)

قال الشيخ ولي الله الدهلوي: وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث، وتنويها لاستشعار خوف الله وتعظيمه، ومؤاخذة نفسه أن لا تسترسل في هواها.(٢)

وتفكر في التلبية! أي: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك...»، فإنه إجابة لدعوة الله تعالى وإقرار بألوهيته ووحدانيته. وانظر إلى الطواف! ففيه تعظيم للبيت، وإشارة إلى أنا نطوف حول نقطة الإيمان جميعاً ونجتمع في ذلك. والرَّمل، فإن فيه إخافة قلوب المشركين وإظهار صولة المسلمين وشوكتهم. والسِّر في السعي بين الصفا والمروة ما ورد في الحديث أن هاجر أم إسماعيل لما اشتد بها الحال سَعَتْ بين الصفا والمروة سعي الإنسان المجهود، فكشف الله عنها الجهد بإبداء زمزم، وإلهام الرغبة في الناس أن يعمروا تلك البقعة، فوجب شكر تلك النعمة على أولاده، ومن تبعهم.(٣)

---

(١) المائدة، الآية: ٩٥ .

(٢) حجة الله البالغة ٢/١٦٥ .

(٣) حجة الله البالغة ٢/ ١٧٠.

الجواب عن مطاعنهم وفضائحهم

ثم قولهم: «إن زيارة الأمكنة المخصوصة مُنافٍ لشمول الدين وعمومه» قول باطل؛ لأن تخصيص بعض الأمكنة بالعبادة لا يضر بشمول الدين، فإن تخصيص بعض الأمكنة موجود في دينهم، أليس عندهم صلاة الصبح والمغرب، وهذا تخصيص زماني، وتخصيص جبل طور سيناء لمناجاة موسى عليه السلام. قال في التوراة: «وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل (طورسيناء) قائلاً: هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل».[(١)] «لأنه في اليوم الثالث ينـــزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء».[(٢)] وجبلُ زيتون للتجلي على عيسى عليه السلام «وبعد ما صَرَفَ الجموع صعد إلى الجبل منفردا ليصلي».[(٣)] وتخصيص الهيكل بعبادة الله تعالى، ففي إنجيل متى: «ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسيَ باعة الحمام، وقال لهم: مكتوب: بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لُصوص».[(٤)]

فإن اختص مكة وعرفات ومزدلفة بأفعال وعبادات خالصة لله تعالى، فأي اعتراض يرد عليه، وأي قبح يوجد فيه؟! على أنهم أيضاً يحجون المقامات المقدسة ويستحبونه، فلوكان تخصيص بعض المقامات بالعبادة منافياً لشمول الدين وعمومه فلا محالة يكون منافياً لعموم دينهم، إذ الفرق فرق نفل وفرض، وهم قائلون بعموم دينهم. والعجب منهم أنهم يعترضون على الحج الذي هو العجّ والثجّ والعبادة

(١) الخروج، ص١٩، الآية: ٣.
(٢) باب الخروج، ص١٩.
(٣) متى، ص١٤، الآية: ٢٣.
(٤) متى، ص٢١، الآية: ١٢-١٣.

والهداية والخشوع والخضوع والاجتماع والذُّلُّ على نقطة واحدة، وينسَون أنهم يسجدون للصليب ومريم، كما مر. ع

چه دلاوراست دزدے که بکف چراغ دارد

ويختلج في قلبي قول عيسى عليه السلام حيث قال: «و لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة في عينك فلا تَفْطُن لها، أم كيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذَى من عينك». [1] مع أنه والحمد لله ليس القذى في أعيننا، بل الخشبة في عيون أعدائنا. قاتلهم الله أنى يؤفكون. شعر:

هنر بچشم عداوت بزرگ تر عیب است گل است سعدی ودر چشم دشمناں خاراست

وما قال البادري بركة الله: «دين محمد صلى الله عليه وسلم محدود بالعرب؛ لأنه أمر بالجمع في مقام مخصوص في وقت مخصوص لا يمكن فيه اجتماع جميع الناس» فلا يساوي شيئاً؛ لأن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم عامة لا مرية فيها، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. [2] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْرًا﴾. [3] ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. [4]

وتخصيص موضع بالعبادة لا ينافي عموم الدين، فإن الله تعالى جعل البركة في بعض المواضع أكثر من بعض، وأمر جميع العباد أن يعبدوا بعض العبادات في هذه المواضع لِتَقْوَى رابطتكم الإسلامية، ولتدعوا الله تعالى بصوت واحد ليكون أرجى بالقبول، ولتكتسبوا العلوم بعضكم من بعض، ويوف البعض حاجات البعض، فهذه عبادة ذات فوائد.

---

(١) متى، ص٧. الآية: ٣-٤.

(٢) الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) الفرقان، الآية: ١.

(٤) الأعراف، الآية: ١٥٨.

وقوله: «لا يمكن اجتماع جميع الناس فيه» إغماض وتعصب، ألا ينظر هذا المتعصب صاحب الصليب أن ألوف ألوف المسلمين يجتمعون كل عام خصوصاً في هذا الزمان الذي كثرت فيه وسائل السفر من الطيارات والسيارات والمراكب البحرية، على أن الحج لا يفرض على كل أحد، بل على من يستطيع أشياء قلما يتفق أن يجتمع في رجل قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.(١)

وما قال عبد المسيح: «إن الحج اتِّباع لمشركين العرب الجهال» جهل فوق جهل؛ لأنه ليس فيه اتباع العرب، بل هذا اتباع للملة الحنفية: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.(٢) بيد أن العرب كانت على بقية من دين إبراهيم، ولكن حرفوا فيه وبدلوا واشركوا بالله، و لم يبدلوا العقائد فقط، بل مدوا أيديَهم إلى اغتيال الأعمال الفرعية والأفعال التبعية. منها: أفعال الحج، وكان الحج لهم سوقاً يَتَّجرُون فيه، ويتفاخرون بالأنساب في موسم الحج في منى، كما يفعلون ذلك في مواطن أخرى ذي الْمَجازِ وعُكاظ ومَجِنَّة، وفي ذلك قال قائلهم. شعر:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتْنا يا جرير المجامع

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول رجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الْحَمالاتِ ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير أفعال آبائهم، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.(٣) ويذبحون الهدايا لآلهتهم، ويطوفون بالبيت عُراةً، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والأقوال السخيفة، فأرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ليُبقي الحج

(١) آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) الأنعام، الآية: ١٦١.

(٣) البقرة، الآية: ٢٠٠.

على ما كان عليه في زمن إبراهيم عليه السلام، وينفي عنه البدعات وأفعال الشرك، وينهى عن التفاخر بالأنساب، ويمنع الطواف بالبيت عرياناً.

وإذا تأملت في حج المسلمين الطاهرين إلى بيت الله، الذي فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ليس فيه من آثار الشرك، وهو المطهر عن الذنوب والآثام، وزيارة النصارى لقبور أنبيائهم وقِدِّيسِهم وغلوهم في تقديسهم وتعظيمهم وجدت الفرق بينهما كالفرق بين النهار والليل، فإن حج المسلمين توحيد محض واتباع كامل للأنبياء، وتذكير آيات الله وتذلل وتواضع، بخلاف زيارتهم، فإن فيه شوب الشرك، والحج في الإسلام يخالف كل الخلاف من الحج في سائر الأديان؛ لأن الحج عندهم عبارة عن التبرك بقبور القديسين، وما أبقوه من آثار ومبان، وهذا ما نهى عنه الإسلام، وكان أفضل الحج عندهم (الأديان الأخرى) ما احتمل الإنسان المشقات النهائية فوق الطاقة في سبيله. أما الإسلام فإنه كره أن يرهق أحد نفسه، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يتهادَى بين ولدين له يريد الحج فسأل عن شأنه، فقيل: يا رسول الله! إنه نذر أن يزور البيت ماشياً فقال: «كلا! إن الله تعالى غني عن تعذيب هذا نفسه احملوه على بعير».(١)

والحج الذي هو تعظيم مَحْض للقديسين ليس بسديد، فرب تعظيم يوصل إلى العبادة. وليس فيه اتباع للأنبياء؛ فإنه لم ينقل عن عيسى عليه السلام ولا غيره من الأنبياء أنهم حجوا إلى قبور إخوانهم من النبيين، أو أمروا أممهم بهذا الفعل بأن يحجوا ضرائح الأنبياء وقبورهم. وما ثبت من الترغيب في زيارة القبور في دين الإسلام إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها»، فإنه للتذكير والدعاء، لا لأنه عبادة مستقلة يجتمع لها الناس. ولخوف النبي صلى الله عليه

(١) روح الدين الإسلامي، ص٢٣٦. والحديث المذكور رواه الترمذي، باب ماجاء فيمن يحلف بالمشي، رقم: ١٤٥٧. ووراه البخاري مختصراً في باب النذر فيما لا يملك، رقم: ٦٢٠٧.

وسلم على أمته المرحومة أنكر النبي صلى الله عليه وسلم أشد نكير على اتّخاذ قبره الشريف مَعبداً، فروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها وابن عباس رضي الله عنهما قالا: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يَطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدَ يُحَذِّرُ ما صنعوا».[1]

فهذا تفصيل حج المسلمين الْمُوَحّدين. رزقنيه الله تعالى مرة بعد أخرى وجميع المسلمين.

---

(١) رواه مسلم ١/٢٠١.

النكاح في الإسلام والمسيحية

النكاح في الديانة المسيحية

النكاح لغة: الضم، وشرعاً: عقد يفيد حل استمتاع كل واحد من العاقدين للآخر، وسيجيء بعض تفصيله.

اعلم أن ههنا بحثين:

البحث الأول في جواز النكاح وعدمه، فاختار المسيحيون أن المفيد النافع لذات الإنسان أن لا يشتغل بالنكاح؛ لأنه خدمة النفس، وتوجه إلى الدُّنيا الدَّنِيَّة، وميل عن الدرجات الرفيعة الروحانية. والترهُّب والسكونة في المغارات والكهوف أفضل منه. فالنكاح تَرَقٍّ للحيوانية، وصرف الوجه عن الْمحبة الإلهية، وبه صرح رئيسهم بولس. قال بولس ــ رسول الحق رسول المسيح مُخَلِّصَ العالَم عندهم ــ: «إن الذي له زوجة إنما غايته أن يصرف عنايته إلى رضى زوجته، والذي لا مرأة له فعنايته مصروفة إلى رضى ربه، وقد صدق وقوله الحق؛ لأنه يحتاج إلى أن يتشاغل بما يُرضى امرأته، وكما قال الرب المسيح: لا يقدر العبد أن يخدم ربَّين في وقت واحد، فلا بد له من أن يلازم الواحد ويحتقر الآخر».(١)

وقال عبد العزيز الشاويش – ما تعريبه–: انظر في أوائل النصرانية، كيف كان تصور النكاح قبيحاً، وكانت الرهبانية أفضل. وقال بعد سطور: ثم اليوم أيضاً الرهبان يسلكون هذا المذهب، والناكحون المتزوجون في نظرهم مقبوحون؛ لأنهم ألقوا نفوسهم في جب الشهوات.(٢)

---

(١) الجواب الفسيح عمّا لفّقه عبد المسيح.

(٢) الإسلام والفطرة نقلته من ترجمته في الأردية المسماة بـــ اسلام اور فطرت . لافتخار أحمد، ص١٩٦.

وكلامهم هذا يفيد أنهم لا يرغَبون في النكاح الذي هو جُنّة من الزنا، بل يحبون الرَّهبانية التي فيها انقطاع عن الخلق و لم يكتبها الله عليهم، فقال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.(١) والمراد من الرهبانية إقامتهم في الجبال فارِّين من الفتنة في الدين، مُخْلصين أنفسهم للعبادة، متحملين مصائب زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة، واللباس الْخَشِن كالكرباس، والاعتزال عن النسوة التي هن كاللباس، والتعبد في الغِيران، والالتجاء إلى الجبال والكهوف. وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾ متعلق بـــ «ابْتَدَعُوهَا» يعني أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة.(٢)

البحث الثاني: إنهم تمذهبوا أن الرجل إنما يجوز له أن ينكحَ زوجة واحدة لما في الزائدة من اتباع الشهوات زائداً على الضرورة والظلم على الزوجة، فإنه لا يكاد يؤدي حقوقهم. قال المراغي: ويسير عليه ـ أي وحدة النكاح ـ في العصر الحاضر جميع الأوروبيين وسلالاتهم بأمريكا وآستراليا وغيرهما، وقد جعلتها المسحية المثل الأعلى للزواج، وإن لم يوجد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم تعدد الزوجات. ثم قال: فلم تكن وحدة الزوجة لديها نظاماً طارئا جاء به الدين الجديد دخلت فيه، وإنما كان نظاماً قديماً جرى عليه العمل قبل ذلك، غير أن الأوضاع الكنيسية المسيحية قد استقرت الآن على تحريم هذا التعدد، واعتبرت هذا التحريم من تعاليم الدين.(٣)

قال البادري بركة الله ـ ما ترجمته ـ: قد حققنا في كتابنا «دين الفطرة الإسلام أو المسيحية» في الفصل الثالث والرابع ... منها: أن تهذيب الأقوام وتقويمها ورُقِيَّهم

(١) الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) التفسير الكبير ١٥/٢٤٦.

(٣) الزواج والنكاح في جميع الأديان، ص١٦٦.

في قانون وحدة الزوجة واستحكام هذه الرابطة الزوجية وبقائها، لكن الأقوام التي فيها قانون كثرة الزواج وإزالة هذه الرابطة ليست لها بقاء ودوام.(١)

فالحاصل أنهم يحسبون التعدد مَعَرَّة ومضرة في الدين والدنيا. والتوحيدَ فيه مَصْلحة، ويزعمون فيه الفوائد التي هي في الحقيقة كسَراب يحسبه الظمآن ماءً.

ثم الآن أذكر مطاعنهم واعتراضاتهم على هذا النظام الذي هو كنظام الدُّرر الفريدة اليتيمة، وهو نظام الإسلام وقانونه، ونرد مطاعنهم إن شاء الله في نحورهم وتراقيهم، لتكون حسرة عليهم بتوفيق الله تعالى وحسن توقيفه.

قالوا: في هذا النظام مفاسد:

الأولى: إن هذا اتباع النفس وتَخَطٌّ بخطوته، وتحريض للشهوات في حق الرجال، وهدر لحقوقهن، فإن المرأة إذا تزوج الرجلُ عليها الأخرى فمن الظاهر أن الأولى تتضرر وتنتقص حقوقها ويعتدي عليها، وتذهب أصول المساواة التي عليها بناء الإسلام، فبعد النكاح الثاني تصير الأولى كالأجنبية لا تحس أنها صاحبة البيت، ويقع شقاق بينهما، وتحتال كل واحدة للأخرى، كما هو المشاهَد المعلوم.

الثانية: إن هذا أساس الجدال الدائم الحميم، والنـــزاع القائم كالليل البهيم، فالمرأة تجادل دائماً ضَرَّتَها وزوجها، وأولاد إحدهما الأخرى، ويتنغص العيش الهنيء، ويذهب الفَرَح والسرور، ويشكل الأمر، وتتخالف نفوسهن وأرواحهن كما تتباين أجسامهن، وتَنبُت شجرة الحسد والبغض في ضلوعهن وفي أعماق القلوب، ويكونون غَرَض غضب الله وعقابه. نعوذ بالله من ذلك.

الثالثة: إنه مبدأ ظلم وتعد وشقاق بين الإخوة، فلا يخفى من العداوة بين أولاد العلات، وهم الذين أبوهم واحد مع اختلاف أمهاتهم، فأحدهم لا يرضى أن ينظر إلى وجه أخيه ولا يسرَّه رؤيته.

---

(١) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٤.

والرابعة: إن هذا سبب كثرة النسل، فإن الرجل إذا كانت له زوجات كثيرة تكون أولاده أكثر ممن له زوجة واحدة، وهذا يفضي كثيراً إلى الفقر والفاقة ويؤدي إلى مسكنة العائلة والأسرة، وكاد الفقر أن يكون كفراً.

وهذه هي شبهاتهم التي يفتخرون بها في كل ناد، ويُدَنْدِنُون بها في كل واد.

الكلام على تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

ثم النصارى يتكلمون على تعدد أزواج النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم، ويقولون: لا يليق بشأنه الرفيع وقَدْره المنيف أن يتزوج الأزواج المتعددة، وقد تواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج إلى أن جمع بين تسع نساء في زمانٍ واحدٍ، وأنه تزوج امرأة زيد بن حارثة مُتَبَنّاه، وذلك إباحة الشهوات إلى أبعد مدى ونهاية الحد. ونلخص مطاعنهم في عبارة الحبر النحرير الشيخ مولانا رحمة الله الكيرانوي قال في كتابه النفيس «إظهار الحق»:

الأول: إن المسلمين لا يجوز لهم أزيد من أربع زوجات، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكتف بها، بل أخذ تسعاً لنفسه، وأظهر حكم الله في حقه أن الله تعالى أجازني أن أتزوج بأزيد من أربع. وقال بعد سطر: والثالث أنه دخل بيت زيد بن حارثة رضي الله عنه، فلما رفع الستر وقع نظره على زينب بنت جحش زوجة زيد، فوقعت في نفسه، وقال ـ سبحان الله ـ: فلما اطلع زيد على هذا الأمر طلقها، فتزوج بها وأظهر أن الله أجازني للتزويج.[1] وانتظر جواب هذا المطعن إن شاء الله.

(١) إظهار الحق ٢/٥٥٠.

النكاح والزواج في دين الإسلام- رفع الله لواءه إلى يوم القيامة

النكاح لغة: الضم. قال في المنجد:(تناكحوا): تزوج بعضهم ببعض، تناكحت الأشجار: انضم بعضها إلى بعض.[١] وفي المختار: النكاح: الوطئ، وقد يكون العقد، بابه ضرب.[٢] وساداتنا الأحناف يقولون: إن المعنى الحقيقي للنكاح هو الوطئ، ويطلق مجازاً على العقد. وفي الشريعة الغراء: «عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين على الوجه المشروع». وثبوته بالكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾.[٣] ﴿وَأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.[٤]وقال ـ عزت كلمته ـ مُبَيِّناً للرسول صلى الله عليه وسلم سنة الأنبياء السابقين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.[٥] وغير ذلك من الآيات اللامعات.

وأما السنة: فما ورد «فإني مكاثر بكم الأمم».[٦] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصفَ الدين، فليتق الله في النصف الباقي».[٧] وغير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة في هذا الباب، يضيق عنها نطاق الكتاب، فلنكتف بهذا.

---

(١) منجد، ص٩١٣.

(٢) مختار الصحاح، ص١٢.

(٣) النساء، الآية: ٣.

(٤) النور، الآية: ٣٢.

(٥) الرعد، الآية: ٣٨.

(٦) رواه أبو داود، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم: ١٧٥٤.

(٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان، الباب ٣٧، فصل في الترغيب في النكاح، رقم:٥٤٨٦.

وأما الإجماع: فقد اتفقوا على أن نكاح الحر البالغ العاقل العفيف الصحيح غير المحجور أربع حرائر مسلمات غير زوان صحائح فأقلّ حلال، واتفقوا على أن نكاح أكثر من أربع زوجات لا يحل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.(١)

وأما العقل: ـ بشرط أن يكون سليماً ـ فقد فطر العقل على أن جميع أنواع الحيوانات مدفوعة إلى التلقيح بدافع الشهوة البهيمية فيها، فهي مضطرة إلى ذلك حريصة على بقاء النسل وإحياء الأصل، فالإنسان أولى بهذا من سائر الحيوانات إذ هو أشرف المخلوقات وأكرم الموجودات بما أوتي من العقل، فله أن يعمل بمقتضى فطرته وطبعه بأن ينضم إلى شريكة له في حياته، وهذه سنة الله. وقد خلق الله لنفع الإنسان المخلوقات كلها لينتفع بها، ويَهْنأ عيشه، ويكمل فرحه، ويستقيم على أفضل منهاج، وأحكم سبيل، وأعظم سعادة، فالشريعة تجوز النكاح بهذه الدلائل، والآن نحقق إن شاء الله أن النكاح أفضل من التبتل الذي هو شعار النصارى مذهباً لا عملاً. وهذا مذهبنا معشر الحنفية، فعن معدن الجود والخيرات عليه أفضل الصلاة والتسليمات أنه ردَّ على عثمان بن مظعون التبتل.(٢)

مراتب النكاح وفوائده، ومفاسد التبتل والانقطاع عن النساء

للنكاح مراتب ومدارج، ففي بعض الصور حرام ممنوع، كما أنه في بعضها واجب، فإن غلبت عليه الشهوة البهيمية فواجب، بحيث يغلب على ظنه أنه يقع في الزنا، وإن لم يغلب عليه الشهوة، بل تكون على الاعتدال و لم يخف الْجَوْرَ فسنة، وإن خاف الجور فمكروه، وإن تيقن الجور فحرام، وإن خاف العَجز عن واجبه خوفاً غير راجح، أو أراد مجرد قضاء الشهوة فمباح.(٣) وهذا مذهب معاشر الأحناف.

---

(١) مراتب الإجماع، ص٢٢، للإمام العلامة محمد ابن حزم الظاهري.

(٢) ملخص من كتب الفقه رد المحتار وغير ذلك.

(٣) ابن القاسم العزى في الفقه الشافعي، ص٩٢.

وعند الشوافع يستحب لمن يحتاج إليه بتَوقانه إن وجدَ أُهْبة، ويجوز له تركه وكسر شهوته بالصوم، وإن لم يحتج إليه و لم يكن عنده أهبة يكره له، وإن وجد الأهبة و لم يكن مريضاً لم يكره، لكن الاشتغال بالعبادة أفضل من النكاح، فيستحب لمن يحتاج إليه بتوقانه للوطئ ويجد أهبة. ومن احتاج إلى النكاح من الرجال ووجد أهبة، ندب له تركه، وكسر شهوته بالصوم، وإن لم يحتج إلى النكاح وفقد الأُهبة كره له، وإن وجدها ولا مانع به من هرم و مرض دائم لم يكره، لكن الاشتغال بالعبادة أفضل من النكاح.(١)

وقال المالكية: إن الأصل في النكاح الندب. والحنابلة يرون أنه ليس بواجب إلا أنه مستحب عند أمن الشهوة وعدم الخوف من الوقوع في الْمَحظور. وهذا بعد الاتفاق بين علماء المذاهب في أن النكاح فرض عند التوقان، فمن تاقت نفسه إلى النساء بحيث لا يمكنه الصبر عنهن وتيقن الوقوع في الزنا وهو قادر على المهر والنفقة وما يطلبه الزواج، ثم لم يتزوج، فهو آثم.(٢)

فالمذاهب قاطبة متفقة على ندب النكاح، أو وجوبه على اختلاف المراتب، حتى الشافعية؛ فإنه يعلم من قولهم أن النكاح مستحب حالة التوقان، كما أنه واجب عندنا معشر الأحناف، بخلاف النصارى، فإنه مانع عندهم عن التوجه إلى الرب تعالى، فالذي له مرأة لا يمكن له التوجه إلى الرب تعالى، كما نقلنا قول بولس الرسول سابقاً من أن الذي له زوجة إنما غايته أن يصرف عنايته إلى مَرْضِيِّ زوجته، والذي لا مرأة له فعنايته مصروفة إلى رِضى ربّه. فالفرق واضح بين مذهب الشوافع والمسيحين. والله أعلم وعلمه أحكم.

وأما الأحناف فيقولون: الاشتغال بالنكاح (مع عبادة الرب) أفضل من التخلي للعبادة والترهب والتجنب إلى الجبال والكهوف. والآن نبين فوائد النكاح، ومفاسد الترهب الذي اختاروه مذهباً لا عملاً.

---

(١) فيض الإله المالك ٢/١٥٢.

(٢) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص١٧٥.

فوائدالنكاح

من فوائده: تكثير النسل الإنساني الذي هو المقصود من نزول آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، فإن الله تعالى خلق آدم وجعل منها زوجها حواء من ضلعه ليسكن إليها ويكثر التوالد والتناسل، وإلى هذا الفائدة أشير في التوراة، ففي الأصحاح الأول من سفر التكوين: «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم اللهُ وقال لهم: أثمروا واكثُروا واملأوا الأرض وأخضِعوها وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يَدِب على الأرض».[(١)] فلو رجحنا التبتل لاخترنا خلاف ما أراده الله من خلق البشر ولانْقطع النسل.

ومنها: أن فيه إحياء سنة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وعباد الله منهم المخلصين، فإن الأنبياء عليهم السلام تزوَّجوا، وهذا مذكور في التوراة، كنكاح إبراهيم ويعقوب وموسى ويوسف وغيرهم عليهم الصلاة والسلام، كما سيجيء في بحث تعدد الزوجات إن شاء الله، ولو لم يكن فيه فائدة غير إحياء سنة الأنبياء لكفى و وفى، بل امتنَّ الله على إبراهيم بأنه سيجعل نسله كالتراب، ويبارك في إسحاق وإسماعيل، ويكثر الناس. لله دَرّ العلامة الآلوسي حيث قال: لو كان عدم التزوج أولى وأحسن من التزوج، لأمر الله تعالى سبحانه عباده بذلك ولَجَعَله ديناً وشريعةً عامةً، أو حكماً خاصاً بأنبيائه وأصفيائه، مع أنا رأينا الأمر بخلاف ما زعمت النصارى.[(٢)]

ومنها: تحصين النفس من السِّفاح، فإن الإنسان إذا لم يتزوج قد يقع في حفرة الهلاك وهوية الدمار وإن كان معتدل المزاج، فإن الشيطان يجري من الإنسان مجرى

---

(١) سفر تكوين أصحاح، الآية: ٢-٢٨.

(٢) الجواب الفسيح، ص١٦٨.

الدم، فإن لم يتزوج سوف يعامِل الأخدان والفتيات معاملة الحلائل والزوجات، لاسيماً في هذا الزمان الذي غلب شره على خيره، إذا خرجتَ ترى النساء مختلطات مع الرجال في لباس بَرّاق شَفّاف، متحركات في الأسواق والدكاكين والشوارع والمدارس والكليات، ولقد أعجبني قول السعدي الشيرازي وأطربني رحمه الله تعالى:

بزرگے دیدم اندر کوہسارے   قناعت کردہ از دنیا بغارے
بدو گفتم بشہر اندر نیائی   کہ بارے بند از دل برکشائی
بگفت آنجا پری رویاں نغزند   چوں گل بسیار شد پیلان بلغزند

ولذلك امتن الله تعالى به فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.(١) وتذكّر قولَ النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثة رجال جاؤوا إلى بعض بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».(٢)

ومن فوائده: تربية الأولاد، وتحصيل الأجر والثواب ليشبوا صالحين ويتَرَعْرَعُوا كاملين عابدين، ويكونوا له أخلافا وأعمادا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ... أو ولد صالح يدعو له».(٣)

ومنها: السكون واطمينان القلب، وكون الزوجة عوناً له في أمور الدنيا والدين، شريكة له في السراء والضراء، والكلفة والفرحة. قال النبي صلى الله عليه

(١) الروم، الآية: ٢١ .

(٢) رواه البخاري، باب الترغيب في النكاح، رقم:٤٦٧٥.

(٣) رواه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته، رقم:٣٠٨٤.

وسلم: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نَصَحَتْه في نفسها وماله». رواه ابن ماجة.[١]

ومنها: الصبر على أخلاق النساء، ولا يخفى ما في الصبر من الأجر الجزيل.

فإن قلت: لما كان في النكاح مثل هاتيك الفوائد فلِمَ تركه عيسى عليه السلام، ويحيى عليه السلام ؟ أجاب عنه الشيخ المراغي بقوله: وأما عيسى عليه السلام فأخذ بالحزم واحتاط لنفسه، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل، أو يتعذر فيها طلب الحلال، أو لا يتيسر.

ومنها: الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة، فيؤدي حقوق النساء في جانب، ويؤدي حقوق الرب تعالى في جانب آخر، فينال البركتين.[٢] وقد جاء في الحديث أنه عليه السلام ينــزل من السماء قريباً من الساعة فيتزوج، وقد مضت لمعة منه فتَذَكَّرْ.

وبالجملة فالنكاح ينطوي على مصالح كثيرة وفوائد جمة، فالاشتغال به أولى من الرهبانية التي ابتدعوها فما رعوها، بل أضاعوها ومَحَوْها.

---

(١) رواه ابن ماجه في النكاح، باب أفضل النساء، رقم:١٨٤٧.

(٢) ملخص الزواج والطلاق في جميع الأديان.

الكلام على تعدُّد الأزواج

قبل أن نبين مصالح تعدد الزوجات، والجواب من مطاعنهم، وأن ما شرعه الله تعالى موافق للحكمة والمصلحة، أذكر أن تعدد الزوجات الذي هو هدف المسيحين، ليس بمخصوص بشريعتنا القدسية، بل هو سنة من سنة الأنبياء، فمطاعنهم ليست علينا، بل عليهم، فمن يبصُقُ على السماء يسقط على وجهه، فهذا إبراهيم عليه السلام يكرِّمونه ويعظمونه، كما في الأصحاح الثاني من رسالة يعقوب: «وتم الكتاب القائل: فآمن إبراهيم بالله فحُسِبَ له بِرّاً ودُعِيَ خليلَ الله، ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الإنسان، لا بالإيمان وحده».[(١)] قد ذكرت له ثلاث زوجات في سفر التكوين وإليك نصه: «فأخذت سارى امرأة إبرام هاجرَ المصرية جاريتَها من بعد عشر سنين لإقامة إبرام في أرض كنعان، وأعطتها لإبرام وجعلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبِلت».[(٢)] وفي هذا الأصحاح: «وأما سارى امرأة أبرام لم تلد له». والأصحاح الخامس والعشرين: «وعاد إبراهيم عليه السلام فأخذ زوجةً اسمها قطورة». فهذا إبراهيم عليه السلام ذُكِر له ثلاث زوجات: سارى، وهاجر، وقطوره.

وليعقوب عليه السلام أزواجاً كثيرة، إحداهن ليئة، وقد ذكرت في سفر التكوين: «ثم قال يعقوب لِلاَّبان: أعطني امرأتي؛ لأن أيامي قد كملت فأدخل عليها، فجمع لابان جميع أهل المكان ووضع وليمة، وكان في المساء أنه أخذ ليئة ابنتَه وأتى بها إليه فدخل عليها».[(٣)] والثانية: زلفة «وأعطى لابانُ زلفةَ جاريته لِلَيْئة ابنتِه

(١) رسالة يعقوب أصحاح، ص٢، الآية: ٢٣-٢٤.

(٢) سفر تكوين أصحاح، ص١٦، الآية: ٣ وبعض من ٤.

(٣) تكوين أصحاح، ص٢٩، الآية: ٢١-٢٣.

جاريةً».[١] الثالثة: راحيل، كما في هذا السفر: «ففعل يعقوب هكذا، فأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيلُ ابنتَه زوجةً له».[٢] الرابعة: بلهة، وذكرها أيضاً في هذا السفر: «وأعطى لابان راحيل ابنتَه بلهةَ جاريةً لَها فدخل على راحيل أيضاً وأحب أيضاً راحيل أكثر من ليئة وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر».[٣]

وكذا لموسى عليه السلام الذي قيل في شأنه في التوراة «ولم يقم بعد بني إسرائيل مثل موسى عليه السلام الذي عرفه الرب وجها لِوجه».[٤] فقد صَرَّحت التوراة بثلاث زوجاته كما حققته، ولعل تحقيقي يكون ناقصاً، الأولى: صفورة، ولها ذكر في سفر الخروج: «فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل، فأعطى موسى صفورةَ ابنتَه فولدت ابناً، فدعا اسمه جرشوم».[٥] الثانية: بنت قيني، كما في القضاة من التوراة: «وبنو القيني حمي موسى صعدوا من مدينة النخل مع بني يهوذا إلى برية يهودا التي في جنوبي عراد، وذهبوا وسكنوا مع الشعب».[٦] الثالثة: ابنة حباب، في التوراة: «وحابر القيني انفرد من قاين من بني حوباب حمي موسى، وخيم حتى إلى بلوطة في صعنايم التي عند قادش».[٧] بل نطقت التوراة في موضع آخر أن لموسى عليه السلام أزواجاً كثيرة، حيث قال: «إذا خرجت لِمُحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسَبَيْت منهم سبيا، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة فحين تُدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها وتنـــزع

---

(١) سفر التكوين، ص٢٩، الآية: ٢٤.

(٢) في تكوين اصحاح، ص٢٩، الآية: ٢٨.

(٣) سفر تكوين، ص٢٩٠، الآية: ٢٩-٣٠.

(٤) تثنيه أصحاح، ص٣٤، الآية: ١١.

(٥) خروج، ص٢، الآية: ٢١-٢٣.

(٦) قضاة من الآية: ١٦.

(٧) ص٤، الآية: ١١.

ثياب سبيها عنها وتعقد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهراً من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة». (١)

وكذلك ذكر لسليمان عليه الصلاة والسلام ألف زوجات حيث قيل في الملوك: «وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤُه قلبَه». (٢)

وكذلك لداود عليه السلام. فاكتف بهذا القليل، فإنه يغني عن الكثير، والغرفة تنبئ من البحر الكبير. فهذه الآيات تصرح بأن تعداد الأنكحة سنة الأنبياء عليهم السلام، ليس بمختص بشريعة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بل قال الدكتور عبد الواحد: فالحقيقة أن هذا النظام كان سائراً قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة: منها العبريون، والعرب في الجاهلية، وشعوب الصقالبة أو السلافيون، وهي التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي نسميها الآن: «روسيا، وليتوانيا، وليثونيا، واستونيا، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا». وعند بعض الشعوب الجرمانية والسكسونية التي ينتمي إليها معظم أهل البلاد. (٣)

فالإسلام أباح التعدد، لكن لا مطلقاً بل لمن يقدر على العدل بينهن والإنفاق وإعطاء المسكن واللباس وحقوق الزوجية، فإن لم يقدر على ذلك، أو خشي أن لايتمكن من ذلك، فليقتصر على الواحدة أو ما ملكت يمينه من الجواري التي في ملكه، وفيه قال عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعُولُوا﴾. (٤)

---

(١) تثنيه، ص٢١، الآية: ١٠-١٤.

(٢) الملوك الأول، ص١١، الآية: ٣.

(٣) حقوق الإنسان في الإسلام، ص٩٧.

(٤) النساء، الآية: ٣.

أفادت هذه الآية أن الله تعالى أباح التعدد بشرط أن يعدل الرجل وإلا فلا، والمراد من العدل الذي أوجبه الله تعالى على عباده العدل في الأمور التي يستطيع الإنسان أن يعدل فيها، كالمأكَل، والمشرب، والملبَس، والقَسْم. وأما الأمور التي لا يقدر الإنسان أن يعدل فيها فلا يجب فيه كالميل والحب القلبي، إذ ليس ذلك في قدرة الرجل، وليس هو مكلّفا عليه. قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا﴾.[١] وإليه أشار الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾.[٢] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك».[٣] يعني المحبة. أخرجه أحمد والأربعة وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة.

قال الشيخ ثناء الله رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: ـ مسئلة ـ بمقتضى هذه الآية والسنة: يجب على الزوج التسوية بين نسائه في القسم، فإن من ترك التسوية بينهن في فعل القَسْم عصى الله تعالى، وعليه قضاؤه للمظلومة.[٤]

فالعدل واجب بين النساء، وكذا بين أولادهن، فإذا عجز الإنسان عن صيانة زوجاته أو عرضهن للخَنا والفساد، أو عجز عن الإنفاق عليهن أو على أولادهن، فإنه يحرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة بحيث لو فعل ذلك يكون مستوجبا للتعزير، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.[٥] الخ. فإن الناس كانوا في الجاهلية يتحرجون من أكل

---

(١) البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) النساء، الآية: ١٢٩.

(٣) تفسير مظهري ٢/٢٥٥. والحديث رواه أبو داود في النكاح، باب القسم بين النساء، رقم:١٨٢٢.

(٤) تفسير مظهري ٢/٢٥٦.

(٥) النساء، الآية: ٣.

أموال اليتامى ويخافون من عدم العدل فيهم، ولا يتحرجون من ظلم النساء، فمنهم من يتزوج الثمانية من النساء، كما روي عن قيس بن الحارث أنه قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك، فقال: «اختر منهن أربعاً».(١)

وعن عبد الله ابن عمر قال: أسلم غيلانُ الثقفي وتحته عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعاً. فحكم الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا﴾ بأمرين، أحدهما: أنه لا يحل نكاح ما زاد على الأربع. والثاني: إقامة العدل، وبين لهم أن العدل واجب بين النساء، كما أنه واجب في أموال اليتامى، فمناط الجواز ومداره العدل والإنصاف دون الجور والاعتساف، فمن يتيقن أو ظن أنه يقدر على أداء حقوق الأزواج المتعددة لوفور القوة الجسمية وكثرة المال تَسْمَح له الشريعة الإسلامية أن ينكح أربعاً أو دونه، وأظن أن هذا الحكم (أي نفي تعدد الأزواج) ليس في شريعة عيسى عليه السلام، ولم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على هذا التحريم، بل سببه التقليد الْمَحض، كما قال الدكتور علي عبد الواحد: فما ذلك إلا لأن معظم الأمم الأوروبية والوثنية التي انتشرت فيها المسيحية في أول الأمر، وهي شعوب اليونان والرومان كانت تقاليدها تحرِّم تعدد الزوجات المعقود عليهن، وقد سار أهلها بعد اعتناقهم المسيحيةَ على ما وجدوا عليه آبائهم من قبل.(٢)

وبالجملة قد تقع ضرورة تُلجيء الإنسان إلى أن ينكح أزوجاً متعددة، فاستمع لمعة من الضرورات.

الأولى: إذا كانت عقيماً لم يكن لها ولد، ويحتاج الإنسان إلى الولد في شؤونه

(١) رواه الترمذي ١/١٥٤.

(٢) حقوق الإنسان، ص٩٨.

وأفعاله ليتقوى به ويشُدّ به أزره فما ذا يفعل؟ أليس من المصلحة والحكمة أن ينكح أخرى ليبقى نسله، ويتقوى في أفعاله، ويتخذه عوناً.

الثانية: إذا مرضت مرضاً يمنع من الجماع وكانت لها أولاد، فالعقل يحكم أن يتزوج أخرى لتخدم أولاده وتكون له حرثا وحقلاً يستمتع بها.

الثالثة: إذا تَشَوَّهَتْ وجهاً وقبُحت صورةً وتقذرت شكلاً بسبب من الأسباب، فيكرهها الرجل كراهة طبيعية، فما ذا يكون حال الرجل؟ أليس له أن ينكح أخرى.

الرابعة: إذا وقعت حروب كثيرة عظيمة وهلك الرجال، (وهلاكهم أغلب وأكثر) وبقي عدد كبير وقدر كثير من النساء بلا أزواج وبعول، واصطر الناس إلى تكثير النسل ليكون عُدة وسلاحاً على العدوِّ، أفليس من الضروري أن يجوز في الشريعة تعدد الزوجات ليتكثر النسل ويوفي حقوق النساء اللاتي بقين بلا أزواج، أنفعل هكذا أم نتركهن أيامَى؟ مع الخوف من الوقوع في البغي، سيما في هذا الزمان الذي أصبح شره كثيراً وخيره قليلاً.

فالحاصل أن تكثير النسل مقصود، وعظمة الأمم إنما يكون بكثرة العاملين من أبنائها، فمن الضروريات للدين تكثير النسل لينشأ فيهم مجاهدون، وعابدون، وعاملون، وكاملون، وعارفون، ومبلغون يبلغون آيات الله، ويخدمون الدين القويم، ويَهدون الناس إلى الصراط المستقيم.

الخامسة: إذا كان الرجل شاباً قوياً لا تكفيه الواحدة لوفور شهوته فما ذا يفعل؟ أليس من الضرورة أن تسوغ له الأنكحة المتعددة ليحفظ نفسه من الزنا الذي هي فاحشة وكبيرة من الكبائر.

السادسة: إن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في معظم الدنيا؛ لأن الرجال يموتون كثيراً في الحروب والْمُعتركات وغير ذلك من المشقات. قال الدكتور علي عبد الواحد: إن المقرر في بحوث علم إحصاء السكان أن ذكور الآدميين بحسب

طبعيتهم أكثر تعرضاً للوفاة من الإناث في أثناء الولادة وفي الطفولية الأولى، كما تدل على ذلك الإحصاءات الخاصة لوفيات الأطفال في جميع الشعوب الإنسانية.(١)

وقد زاد عليه وحيد دهره أشرف العلماء مولانا أشرف علي التهانوي فأفاد ـماتعريبه ـ: إن في إحصاءات السُّكّان الماضية حاسَبَ بعض الْمُحاسبين عدد الرجال والنساء في بنغال فقط فوجد عددهن أكثر من عددهم، ومن شك في ذلك فليرجع إلى القرطاسات الحكومية، وفي بريطانية قبل حرب بوئرين كان عدد النساء زايداً على الرجال بميلون ومئتي ألف ١٢٠٠,٠٠٠، ولم يكن لهاتيك أزواج على أصل وحدة الزوجة. وفي إحصاءات فرانسي ١٩٠٠م كان لكل ألف من الرجال ألف واثنتان وثلاثون امرأة ففي جميع أفراد الحكومة كان حوالي ٨٨٧٦٤٨ من النساء لم يكن لهن زوج على هذه القاعدة. وفي إحصاءات سويدن سنة ١٩٠١م عدد ١٢٢٨٧٠ من النساء، وفي هسبانية سنة ١٨٩٠م عدد ٤٥٧٢٦٢ من النساء لم يوجد لهن بعول وأزواج. وفي استراليا سنة ١٨٩٠م عدد ٦٤٤٧٩٦ من النساء لا يوجد لهن زوج.(٢)

السابعة: قد يكون الرجل منفرداً لا مُعِين له ولا يمكنه أن يقوم بحوائجه، فالفطرة السليمة تحكم له بجواز التعدد لتكون النساء عوناً له ومَدْعاةً لشجاعته وقوته ويساره.

الثامنة: إن الرجل لا يكون قادراً على النكاح إلا إذ وجدت فيه شروط كثيرة من صحة الجسم، والقدرة على النفقة لزوجته وأولاده؛ لأنه يقوم بهذه الأعباء وهاتيك الأثقال، وهذه الشروط لا توجد في كل رجل، فالمتزوجون قليلون بالنسبة إلى المتزوجات، فلذا أحل التَّعدُّد والكثرة.

التاسعة: إن المرأة تيأس من سن الخمسين بقطع مادة الحيض وهذه رحمة منه تعالى

(١) ملتقط من حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد.

(٢) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

ولطف، حيث أن الحمل والإرضاع والولادة والقيام بأمر الأولاد أضعفتها، فمقدار استعدادها للنسل من سن البلوغ إلى سن الأياس خمس وثلاثون سنة غالباً، فلو منع من التعدد لعطل عليه تحديد نسله قدراً كبيراً من عمره.(١)

العاشرة: إنه تعرض للمرأة الأمراض الطبعية كالحيض والنفاس والإستحاضة والأعذار الأخر كغيبتها عنه أو سفره عنها، ويكون شاباً قوياً يخالط حبهن بدمه ولحمه. فاحفَظْ هذه النكتة اللطيفة، فتلك عشرة كاملة.

والحاصل أن فيه مصالح كثيرة وحِكماً جليلةً، وغرر الفوائد يعرفها الذكي الفَطِن لا المسيحيون الذين هم صم بكم عمي فهم لا يرجعون.

چشم بداندیش که برکنده باد عیب نماید هنرش در نظر

مع أنهم يختارون هذا النظام (نظام التعدد) اضطراراً إليه يدل عليه ما يلي، وعرَّبْتُه هكذا: قال عبد العزيز الشاويش: لاقيت مرة في لندن رجلاً فتكلمت معه في عدة مسائل. منها: تعدد الأزواج، فقال: يا ليتني كنت مسلماً فأتزوج أخرى، فسألته عن سبب ذلك، فقال: إن زوجتي قد جُنَّتْ منذ زمن مديد، وهي الآن في المستشفى، والآن أنا أبحث عن الأخدان والعشيقات لعدم جواز التعدد في شريعتنا، فياليتني جاز لي النكاح الثاني فأتزوج وتكون لي أولاد يرثون مالي الكثير.(٢) فهم مضطرون إلى نظام الإسلام الذي ينتشر ضوئه في الأطراف وتشرُق شمسه على الأكناف، ولنعم ما قيل:

أَفَلَتْ شُموس الأولين وشمسنا أبداً على أُفُقِ العُلى لا تغرب(٣)

---

(١) هذا الوجه متقارب مستفاد من الرسالة الحمدية، ص٦٢.

(٢) ملخص من اسلام اور فطرت، ص١٩٣.

(٣) هذا البيت مذكور في ديوان العلامة عبد الغني النابلسي، ص١٥٠، ونسبه العلامة الآلوسي رحمه الله تعالى في «غرائب الاغتراب» و«روح المعاني» ٢٠/٢٢، والعلامةُ اليافعيُّ في «مرأة الجنان» ٦٠/٢ إلى العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى.

فعلم أن نظامهم هذا نظام يتسبب لكثرة الزنا والبغى، وليس لهم منفَذ شرعي ينسلون به منه، فهم أحوج الخلق إلى نظام التعدد لِيُنْجوا أنفسهم من البغي والزنا الذي شاب بلحومهم، وانظر إلى عاقبة وختيمة لهذا النظام: ففي فرنسا بلغت نسبة أولاد السفاح لديهم في كثير من المدن بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ما يقرب من خمسين في المئة من مجموع المواليد هناك، وزاد في هذه المرحلة عدد البغايا الرسميات وغير الرسميات، وبلغت نسبة المصابين والمصابات لديهم بأمراض تناسلية زهاء ٧٠ في المئة.(١)

ثم الآن نجيب عن اعتراضاهم على تعدد الأزواج:

فأما قولهم: «هذه مَدعاة للشهوة، وهدر لحقوقهن، وإرغام لهن، فإن الأولى تتضرر بالثانية». الخ.

فالجواب عنه أن الفائدة الكبيرة في النكاح الثاني تكثير النسل وغيرها من فوائد جَمّة ومصالح عامة، ولو سلمنا أن الغرض منه دفع الشهوة فليس بقبيح، فإن هذا تحصين من الزنا، فلو لم يدفع شهوته بالنكاح لانجرَّ إلى السفاح. وليس ذلك هدراً لحقوق الأولى؛ فإن هذا موقوف على حزم الزوج واحتياطه وعدله وانصافه، فإن كان عادلا متقيا خائفا من عذاب الرب القهار، هائبا من نَكال الآخرة فهو يوفي حقوق كل منهن ويؤديها، وإن لم يكن عادلاً، بل عادلاً عن الحق فيعتصم بحبل الظلم والجَوْر ويصبح ظالماً وإن كانت له زوجة واحدة. وبهذا يندفع قولهم: «إن هذا منشأ الجدال الدائم». فإن المرأ لو كان عادلا قادراً على إعطاء كل منهن حقوقهن أدى حقوق كل واحدة و لم يهدِر. وكذا في حقوق أولادهن لم يقع شقاق ولا نفاق ولا جور ولا طلاق، وإن تجرد من الحزم والعدل والإنصاف يختل النظام وينهدم أساس الأسرة ويَمْقُرُ حلاوة العيش، وقد رأينا كثيرا من الرجال تكون النساء في يده كالأكِرِّ في يد الصبيان.

---

(١) ملتقط من حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد.

وأما قولهم: «فيه كثرة النسل وهو يفضي إلى الفقر والفاقة»، فأضعف من بيت العنكبوت، فإن كثرة النسل مبدأ خير كثير للأسرة والوطن والإنسانية، وقد غابت عنهم آية التوراة في الأصحاح الأول من سفر التكوين: «وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثِروا واملأوا الأرض». حفظت شيئا وغابت عنك أشياء! كثرة الأولاد تكون شرا إذا لم يَقْوِ على الإنفاق، ولم نَقُلْ في هذه الصورة بالتعدد، بل ننهى عن أصل الزواج إذا تيقن ذلك. قال في الحميدية: ولو خاف الْجَور على الواحدة بنحو ظلمها أو عَجزه أو قصور يده عن الإنفاق عليها يحجر عليه أن يتزوج الواحدة.[١]

ثم إذا استَمْريتَ أخلاف فكرك واستقريت كنت على يقين بأن منع التعدد مما اخترعته أذهانهم، فأذهاهم أبو عذرته وابن بجدته. ولم يثبت في أناجيلهم، بل هي تؤمي إلى إباحته وجوازه، ففي إنجيل متى: «حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس...، وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدّات دخلن معه إلى العرس وأغلق الباب».[٢]

فهذا تمثيل بأزواج متعددة، ولو أن ذلك غير جائز ما مثّل بهذا التمثيل الذي خلاصته طلب النساء الكثيرة للعريس ودخوله عليهن، ولو سلمنا أنه لا يجوز في دينهم، فلا يلزم أن يكون حراماً في ديننا أيضاً، فإنه لا يلزم أن يكون حكم شريعة موجوداً في شريعة أخرى، فإن نكاح الأخت كان جائزاً في دين إبراهيم كما جاء في التوراة: «وبالحقيقة هي (أي سارى) أيضا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجةً».[٣] وكان محرَّما في الديانة العيسوية. وكذا الطلاق كان جائزاً في شريعة موسى عليه السلام، ثم حرمه عيسى عليه السلام، فلو فرضنا أنه

(١) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

(٢) إنجل متى، ص٢٥، الآية: ١٠.

(٣) تكوين، ص٢٠، الآية: ١٢.

حرام في شريعة عيسى عليه السلام، فلعل وجهه إما أنه لم يمكن له الجمع بين العبادة والنكاح كما مضى بيانه، وإما أنه كان في شريعة موسى جواز النساء من غير حصر تغليبا لِمَصلحة الرجال، وفي شريعة عيسى عليه السلام عدم جواز الكثرة تغليبا لمصلحة النساء، وراعت شريعتُنا مصلحة النوعين.

والحكمة في أن موسى غلّب مصلحة الرجال أن فرعون كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فناسب أن يغلب في شريعته مصلحةُ الرجال لقلتهم وكثرة النساء. والحكمة في أن عيسى عليه السلام غلّب مصلحة النساء أنه خلق من أمه بلا أب، فناسب أن يغلب في شريعته مصلحة النساء.[١]

بقي ههنا سؤال وهو أنه لِمَ لم يجز للنساء تعدد الرجال كالرجال. والجواب عنه: إن فيه قبائح: ففيه اختلاط الأنساب واشتباكها، ويكون الزّواج الذي شُرع لأجل حفاظة الأنساب كالزنا مُضيعاً لها. ومنها أنه يؤدي إلى قلة الغيرة؛ لأن المرأة تصير مُشاعة بين رجال متعددين. وهذا النكاح كان في الجاهلية: يجتمع رهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلُّهم يصيبها أو يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا.[٢] فحرَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عيوبه أنها إذا كانت مشتركة يقتضي كل واحد منهم في كل وقت أن يجامعها فيقع النـــزاع، وإذا تولدت الأولاد فإن كان واحداً يكون النـــزاع أشد، وإن كانت متعددة ففي هذه الصورة أيضا يتنازعون لاختلاف الذكورة والأنوثة، والشكل والصلاحية والكمال.

فإن قيل: ما الحكمة في تعداد الأربع ؟ فالجواب أن فيه نكتتين:

الأولى: إن العدد إذا بلغ أربعاً دخل حد الكثرة، فإن أقل الجمع الصحيح ثلاثة، فإذا جاوز الثلاثة فقد دخل في حد الكثرة، فالواحدة في القلة، والرابعة في حد

---

(١) هذه النكتة ماخوذة من الباجوري في مذهب الشافعي.

(٢) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها، ٧٦٩/٢.

الكثرة، فقد شُرِع العقد في الأقل إذا علم من حال الضعف لقضاء حقها، وشرع العقد في الأكثر إذا عرف القيام بحقهن.[١]

الثانية: إن حكمة التعدد بالأربع لمقابلة كل واحد بنوع من أنواع المكاسب التي يرتفق منها الإنسان وينفق على زوجته، وهي: التجارة والصناعة والفلاحة والإمارة، وقد تكون إحداها وافرة، فتقوم مقام البقية.[٢]

والثالثة: إن الرجل إذا تزوج امرأة، فأقل ما تكفيه ثلاثة أشهر، إذ أن أقل مدة لاستقرار الحمل هي ثلاثة أشهر، فلو حملت امرأته في ثلاثة أشهر، ثم هاجت نفسه واشتدت شهوته، فإن ضاجعها أضرّ بالجنين؛ فإن تزوج ثانية كفته ثلاثة أشهر على الأقل، ثم يضطر إلى التخلي عن مضاجعتها خوفاً من إسقاط الحمل، فهذه ستة أشهر، فإن تزوج ثالثة كفته ثلاثة أشهر أخرى على الأقل، فهذه تسعة أشهر، وتكون الأولى قد وضعت، لكنها تكون في حالة لا تقرب فيها لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، لذا يضطر إلى التزوج بالرابعة، فتكفيه ثلاثة أشهر على الأقل، وتكون الأولى قد تصلح للمضاجعة، وهكذا تتهيأ له واحدة بعد أخرى على سبيل التعاقب. فهذا التعدد من الزوجات يكفي ويفي لحاجة كل إنسان قوي الشهوة. وما هذا إلا قانون الحكمة الإلهية.[٣]

---

(١) محاسن الإسلام، ص٤٧. لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري من مشايخ صاحب الهداية.

(٢) الرسالة الحميدية، ص٦٢.

(٣) احکام اسلام عقل کی نظر میں، ص ۱۴۴-۱۴۵۔

الجواب عن الطعن في تعدد أزواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم

قد مر أنهم يطعنون في تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وسمَّوه ـ معاذ الله ـ اتباعاً للشهوات، وقالوا: هذا شائن في شأنه السامي، خصوصاً النكاح بامرأة زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي هو مُتَبَنَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الطعن في شأنه صلى الله عليه وسلم قبيح أشد القبح، إذ طهارته وعفته عن كل ذنب لا ينتطح فيها كبشان، كما شهد به أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ حين كان كافراً عند هرقل حين سأل عنه فقال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول هذا؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.[١] فانفلق منه أن الأعداء أيضا كانوا يخضعون له، ولا يَقْدَحون في عفته، ولنعم ما قيل:

يا صاحب الجمال و يا سيد البشر   من وجهك المنير لقد نوّر القمر
لا يمكن الثناء كما كان حقه   بعد از خدا بزرگ توئی قصه مختصر

فلم يجمع صلى الله عليه وسلم بين الزوجات المتعددة لشهوة أو لذة جسمانية، فإنه خرج من الدنيا و لم يشبع من خبز الشعير، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مَصْلِيَّةٌ فدعَوْه، فأبى أن يأكل، وقال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الدنيا و لم يشبع من خبز الشعير. رواه البخاري.[٢] وكان يضطجع على رمال حصير حتى يؤثر الرمال بجنبه، ويعصُب على بطنه الحجر من الجوع مع ما يأتي من الأموال، لكن لا يصرف وجهه إلى الدنيا ومَرغوباتها، ويقول: مالي وللدنيا،[٣] ويقول صلى الله عليه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ٤/١ .

(٢) مشكاة المصابيح، ص٤٤٧.

(٣) جزء من حديث رواه البخاري في الهبة، باب هدية ما يكره لبسها، رقم:٢٤٢١.

سبيل».[١] فهل يتهم مثل هذا الرجل بهذا الاتهام العظيم؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. ولقد صدق من قال:

یک زنده دل نرفت سلامت زخورده گیر   کیں ماجرا بخضر علیه السلام رفت

على أن النبي صلى الله عليه وسلم لو أراد قضاء الشهوة على سبيل التقدير لأمكن له ذلك في عنفوان شبابه وشَرْخِ عمره، فإن النساء كانت كثيرة، وكان صلى الله عليه وسلم في معاشرة لا يعاب فيها تكثير الأزواج، لكنه صلى الله عليه وسلم عفَّ عَفافاً كاملاً وأمضى عهد شبابه بل أكثرَ عمره مع خديجة الكبرى رضي الله عنها، التي دخلت في سِنّ الشيخوخة وكان عليه الصلاة والسلام في شبابه. قال هشام بن محمد: نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة.[٢] ولم ينكح رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياتها أحداً من النساء وماتت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بأربع، وقيل: بثلاث، وكان لها من العمر خمس وستون.[٣] فانظر كيف قضى عليه السلام أكثر عمره أعني خمسين سنة على وجه التقربب مع امرأة كان لها خمس وستون سنة، ففي زمن ريعان الشباب وغاية القوة لم ينكح الأزواج الكثيرة، فهل صار بعد ذلك في زمان الشيخوخة شهويا؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! وإلى الله المشتكى من هذه العِصابة الضالة نُخالة المضلين، ومن خرافاتهم، وهَذَيانِهم وتمسخراتهم، وأباطيلهم، واجترائهم، ووقاحتهم، واستطالة ألسنتهم. شعر:

دنیا میں نہیں زور تو محشر میں ستم گر   اللہ کے آگے تیری فریاد کریں گے

ثم في تزوُّجه صلى الله عليه وسلم الأنكحة المتعددة فوائد ومصالح:

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا...، رقم:٥٩٣٧.
(٢) تاريخ الطبري، ٢/١٩٦.
(٣) الإكمال في أسماء الرجال للشيخ ولي الدين صاحب المشكاة. والإصابة في تمييز الصحابة ٧/٦٠٤.

منها: إيجاد القرابة مع الصحابة الكبار، فقد كان لرابطة النسب عند قبائل العرب قيمة، كنكاحه صلى الله عليه وسلم عائشة مع صغر عمرها، فإنها كانت بنت ست سنوات إذا عقد عليها، وتسع سنوات إذا بنى بها.

ومنها: التزوج لتبليغ الدين الحق إلى الخلق، فإن الشريعة ضابطة كاملة للحياة الاجتماعية ومن الأحكام ما يتعلق بهن، وقد أثّرت عائشة وحفصة رضي الله عنهما في تبليغ الدين، وإتقان القرآن، ونشر الأحاديث ما لا يبلغ شأوهما أحد.

ومنها: التزوج لغرض هداية قومها للإسلام، كما وقع له مع جويرية بنت الحارث، لما تزوج بها أسْلَمَ قومُها.

ومنها: لضرورة التشريع،كما وقع له مع زينب بنت الجحش، ليعلم أن الْمُتبنَّى ليس في حكم الابن حتى تحرم زوجته.[1]

ثم إن شئت أن تعرف لتزوجه صلى الله عليه وسلم بكل منهن مصلحة وحكمة فاستمع لذلك.

فخديجة رضي الله عنها لحسن أخلاقها وكمالها وتَسْلِيتها للنبي صلى الله عليه وسلم في مهمات الأمور تَزوَّجها.

فلما تُوفيت نكح عليه السلام سودةَ بنت زمعة ـوقد توفي زوجهاـ جبراً لخاطرها بموت زوجها، ولتعصم من أذية القوم، فإنهم كانوا يؤذون المسلمين والمسلمات.

ونكاحه بعائشة وحفصة رضي الله عنهما، لا يخفى ما فيه من المصالح من ذكاوتهما وفَطانتهما وفِراستهما ـ ولا كفراسة إياس ـ وتبليغهما الدين، وليحصل له صلى الله عليه وسلم لُحمة في قريش.

وكان تزوجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنه من هذا القبيل، ولأن زوجها قد مات فتزوجها جبراً لخاطرها الكسير وتسليةً لفوادها الكئيب، وكانت

---

(١) ملتقط من أدلة اليقين.

في الحبشة، ولأن بني أمية يعادون النبي صلى الله عليه وسلم، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم التعلق بهم ليجتنب من أذاهم.

ونكاحه صلى الله عليه وسلم جويرية وصفية بنت حُيي؛ لأنهما سُبيتا في الجهاد، والعرب كانت تُذلِّل الجواري، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقضي على هذا الرسم الفاسد فتزوج بهما، وسُبيت جويرية رضي الله عنها في غزوة بني المصطلق، وصفية رضي الله عنها بعد غزوة خيبر، وأعتق الله تعالى بسبب نكاح جويرية كثيراً من الأرقاء والعبيد، إذ قالوا: هؤلاء أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي لأحد أن يسبي أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتزوجه صلى الله عليه وسلم بزينب لِمَا مرَّ من قطع الرسم القبيح.

وتزوجه بصفية سبب لدفع ضرر قومها، وهم اليهود. قال القاضي سليمان رحمة الله عليه: ولم يخرج بعد نكاح صفية وفد من اليهود لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كانوا يخرجون قبل ذلك إما جهرا أو خفية.(١)

وتزوجه عليه السلام بميمونة سبب لدخول الإسلام والأمن والصلح في النجد. ففي تزوجه عليه السلام الأنكحة المتعددة حِكَم ومصالح وفوائد لا يصل إلى كُنهها إلا الذكي اللبيب. شعر:

هزار نكتهٔ باريک تر زموی اينجا است　　نه آنکه سر بتراشد قلندری داند

ثم أتصدّى للبحث عن تزوجه بزينب الذي هو هدف خاص لسهم الملة المسيحية، وقد بذلوا وُسعهم واستنفدوا جهدهم في هذا الطعن، واختلقوا فيه الأكاذيب، واخترعوا الأساطير التي لا أثر لها في زبر الأحاديث. فاعلم أن الآية التي ذكرت فيها هذه الواقعة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ

---

(١) رحمة للعالمين ٢/١٣٤.

أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾.(١) أخرج الحاكم في سبب نزولها عن أنس رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك أهلك».(٢)

والتفصيل أن زينب رضي الله عنها كانت تَفخَر على زيد رضي الله عنه وتقول: أنا من أشراف قريش، وزيد رضي الله عنه وإن كان شريفَ النسب كريم الْمَحْتِدِ عظيمِ الأرومة في الواقع، ولم يكن من الموالى بل من قريش، لكن أخذه بعض الظلمة وباعه، فكانت زينب تستعلي عليه حتى نشأت بينهما البغضاء والمنازعة بحيث لم يمكن إصلاحها، فتشاور مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر طلاقها، فشاوره النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يطلقها، لكن لم يصلح ذات بينهما ووصل الأمر إلى الطلاق فطلقها، وأوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها لينقطع الرسم القبيح (وهو تحريم نكاح الْمُتبنَّى) فشاق على نفسه النفيسة ذلك لاستحكام تلك العادة في العرب، وكان هذا أمراً قبيحاً عندهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

فعلم من هذه الآية ثلاثة أمور:

الأوّل: إن العلاقة بينهما لم تكن مرضية، وإليه الإشارة في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾.

والثاني: إن الله أوحى إليه أن يرخص لزيد في الطلاق لقطع هذا الرسم كما يشير إليه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

---

(١) الأحزاب، الآية: ٣٧.

(٢) التفسير المظهري ٣٤٦/٧.

والثالث: بيان الحكمة والمصلحة في ذلك الزواج وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر الآية.

قال البغوي: روى سفيان عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. قلت: يقول: لما جاء زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله! إني أريد أن أفارق زينب، فأعجبه ذلك، فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله». قال علي بن الحسين: ليس كذلك، فإن الله قد أعلمَه أن ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد قال: إني أريد أن اطلقها. قال: «أمسك عليك زوجَك». فعاتبه الله، وقال: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمناك أنها ستكون من أزواجك.(١)

فالحاصل أن الذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك: خشيةُ قول الناس: تزوَّج امرأة ابنه.(٢)

وبالجملة أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها نقضاً لتلك العادة، وهي جعل المتبنَّى في حكم الابن، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.(٣) هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام.

وأما ما قيل: إنه أبصرها فأحبها، باطل لا أصل له؛ لأنها كانت قريبةَ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بينهما حجاب، فعدم الحب قبل النكاح وكانت بكراً، و الحب بعد النكاح مع أنه عليه السلام زوَّجها بنفسه أعجب العجائب، وللقصاص

---

(١) التفسير المظهري ٧/٣٤٧.

(٢) فتح الباري ٨/٦٧٢.

(٣) الأحزاب، الآية: ٤٠.

في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول، كذا في روح المعاني.(١) وفي شرح المواقف: «وما يقال أنه أحبها حين رآها، فممّا يجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله». انتهى.(٢)

ولا قباحة في تزوُّج زوجة المتبنّى بعد الطلاق، و لم يرد تحريمه في التوراة ولا في الإنجيل، ومن ادَّعى فعليه البيان. ولعل انكارهم (المسيحيين) على هذا النكاح لقطعه مادة ابنية المسيح، فإنه لما لم يكن زيد مع كونه إنساناً بشراً كالنبي صلى الله عليه وسلم ابناً للنبي صلى الله عليه وسلم لفقد علاقة الولدية، فكيف يكون المسيح عليه السلام ابناً لله مع التباين!!! فإنه عليه السلام بشر، والله منــزَّه عن شوائب البشرية، نعم! يحرم هذا الزواج في مذهب المشركين مشركي العرب. ولا يجب أن تكون الشرائع السماوية متفقة ـ فضلاً عن اتفاق الدين الإسلامي ـ مع الدين الباطل دين مشركي العرب، فإن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام كانت أختاً علاتية له.(٣) وكان ذلك الزَّواج جائزاً في دينه مع تحريمه في الدين الموسويِّ والدين العيسويِّ، ويعقوب عليه السلام جمع بين الأختين.(٤) وذلك حرام في هذين الدينين، فالشرائع لا تجب أن تكون متوافقة في الفروع ـ كما أن الأشجار لا تجب أن تكون متوافقة الشجونـ، بل يغيرها الله تعالى بحسب مصلحة الأوقات.

فالطعن على أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم في نكاح زينب بنت جحش بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم طعن فاسد ووَهْم كاسد من أعداء الله، الذين اتخذوا المسيح عبداً لله إلهاً وثالث ثلاثة ـ نعوذ بالله من قولهم هذا وجميع أقوالهم، فأقوالهم الباطلة تضحك منه الصبيان، وفي الحقيقة يلعب بهم الشيطان.

---

(١) روح المعاني ٢٤/١٢.

(٢) إظهار الحق ٥٥٨/٢.

(٣) تكوين أصحاح، ص٢، الآية: ١٢.

(٤) تكوين اصحاح، ٢٩.

وأحكام الشريعة الْمُحمدية متحلية بالحكم والمصالح، فتفحُّص المعايب فيها لا يعيبه، وعنادهم لا يضر، كمعاندة الخَفاشِ للشمس. ولَنِعم ما قال السعدي الشيرازي رحمه الله تعالى:

هنر بچشم عداوت بزرگ تر عیب است　　گل است سعدی ودرچشم دشمناں خاراست

وقال البعض:

قيل إن الإله ذو ولد　　قيل إن الرسول قد كَهَنا
ما نجا الله والرسول معا　　من لسان الورى فكيف أنا

والله أعلم بالصواب وعنده علم الكتاب.

الطلاق في الإسلام والمسيحية

أمر الطلاق في الديانة المسيحية

لايجوز في الدين المسيحي أن يطلق الرجل امرأته إلا أن بعضهم يُجَوِّزونه في بعض الأحوال والشؤون كالخيانة في الزوجية، وإن شئت تفصيل مذاهبهم في ذلك فاستمع لما يتلى عليك:

قد اختلفت عبارات الإنجيل في ذلك، فجاء في بعض عباراته عدم جوازه مطلقاً بدون تفريق. قال مرقس: «فتقدم الفريسيون إليه وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليُجَرِّبُوه، فأجاب وقال لهم: بماذا أوصاكم موسى؟ فقالوا: موسى أذِن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق، فأجاب يسوع وقال لهم: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية، ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله تعالى، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً إذاً ليسا بعدُ اثنين، بل جسد واحد فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان».(١)

فتلخص من هذه العبارة أن الطلاق لا يجوز في أية حالة؛ حالة الخيانة كانت أو لا، إذ فحواه أن ما جمعه الله لا قدرة للعبد أن يُشتِّته.

وبعض عباراته تدل على أنه يجوز في حالة الخيانة الزوجية، أي الزنا، قال متى: «وقيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني».(٢)

---

(١) إنجيل مرقس، ص١٠، الآية: ٢-١٠.

(٢) إنجيل متى، ص٥، الآية: ٣١.

ولاختلاف عبارات الإنجيل اختلفت مذاهبهم في ذلك، كما بينه الدكتور علي عبد الواحد وافي، وإليك نصَّ عبارته في ذلك: «ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعتنقها أمم الغرب المسيحيِّ إلى ثلاثة مذاهب: المذهب الكاثوليكي، والمذهب الأرثوذكسي، والمذهب البروتستاني. فالمذهب الكاثوليكي يُحَرِّم الطلاق تحريماً باتّاً ولايبيح فصمَ الزواج لأي سبب مَهْما عَظُمَ شأنه، وحتى الخيانة الزوجية نفسِها لاَ تُعدُّ في نظره مُبَرِّزاً للطلاق، وكل ما تبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو: التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصي الزوجين، مع أن اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية، فلا يجوز لواحد منهما أن يَّعْقِدَ زواجه على شخص آخر؛ لأن ذلك يعتبر تعدداً للزوجات. والديانة المسيحية لا تُبيح التعددَ بحال». ثم قال بعد سطور: «والمذهبان المسيحيان الآخران الأرثوذكسي والبروتستاني يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة، من أهمها: الخيانة الزوجية، ولكنهما كذلك يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك».[(١)]

أقول: مرجِع المذهَبين واحد، فإن الفرقة الأولى كما يحرِّم على الرجل أن يتزوج بعد التفرقة الجسمية، كذلك الثانية، فالفرق بينهما في التعبير والتحبير لا في الحقيقة. والله أعلم. ويستدلون على تحريم التزوج بعد الطلاق بقول المسيح عليه السلام: «من يتزوج مطلقة فإنه يزني».[(٢)] وقوله عليه السلام لتلاميذه مانصُّه: «ثم في البيت سأله تلاميذه أيضاً عن ذلك، فقال لهم: من طلق امرأته وتزوج بآخر يزني عليها، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بأخرى تزني».[(٣)] وقد زاد الشيخ عبد الله المراغي أسباباً أخر للتطليق، أي التفريق الظاهري دون الحقيقي عند الفرقتين:

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، ص ٥٨-٥٩.

(٢) متى، ص٥، الآية: ٣١.

(٣) مرقس، ص١٠. الآية: ١٠-١٢.

الكاثوليكي وعند الروم الآرثوذكسي، فقال: الزواج الكاثوليكي رِباط لا ينفصم إلا بوفاة أحد الزوجين، على أنه مع بقاء الزوجية قائمةً يجوز لأسباب خطيرة التفريق بين الزوجين: إذا زنا أحد الزوجين جاز للزوج الآخر أن يترك الحياة المشتركة إلا إذا رضي عن الجريمة، أو كان السبب في وقوعها أمر صفح عنها صراحةً أو ضمناً أو ارتكبها من جانبه.

ثم قال بعد ذلك بسطور: يجوز لأحد الزوجين أن ينفصل عن الآخر بحكم من الْمَجلس، وذلك في الأحوال الآتية: إذا اعتنق الطرف الآخر مذهباً غير كاثوليكي، أو ربّى أولاده تربية منافية للعقيدة الكاثوليكية، أو سلك سلوكاً إجرامياً أو مضيِّعاً للكرامة والاعتبار، أو جعل زوجته في حالة خطر جسيم جسداً ونفساً، أو أساء إليها بحالة يصعب معها استمرار الحياة المشتركة، أو ما شاء به ذلك من الأسباب التي يُقَدِّرها الْمجلس.(١)

وبين أسباب الطلاق في مذهب الآرثوذكس، فقال: لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق بسبب زنا الآخر، أو إقدامه على عقد زيجة أخرى، ولا تُقبل دعوى الزوج الذي وافق على الزنا أو عقد قرينه زيجة ثانية. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق عند اختفاء الآخر مدة ثلاث سنوات، ولكل من الزوجين أن يطلب الطلاق في حالة ما يصاب الآخر في قُواه العقلية لدرجة تجعل حياة قرينه مَعْرَضة للخطر، ولايكون لهذه العلة أمل بالشفاء، وتكون قد دامت ثلاث سنوات أثناء الزواج. ولكل من الزوجين أن يطلب أيضا الطلاق إذا أصيب الآخر بالجذام. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق لعدم مَقْدِرة الآخر على استيفاء فرض الزواج بالجماع إذا كانت هذه العلة موجودة حين عقد الزواج وكان يجهلها الطالب ودامت ثلاث سنوات من حين الزواج واستمرت إلى وقت رفع الدعوى، وللزوجة أن ترفع دعوى الطلاق ولو قبل فوات ثلاث سنوات في حالة تكون العلة مستمرة وغيرَ قابلة للشفاء

(١) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٣٤٥.

مُثبَتَةً بفحص طبي قانوني. لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق إذا حكم على الآخر بالاشغال الشاقة المؤبدة. انتهى.(١)

وهذا كله يخالف روح الإنجيل، فإن الإنجيل الموجود بأيديهم يحرم التفريق إلا لعلة الزنا، وتسمية هذا التفريق تفريقاً لا طلاقاً حقيقياً: حيلةٌ وخديعةٌ. وهذا في الحقيقة فرار من المذهب، فالمسيحيون اضطروا إلى ازدياد أسباب الطلاق وترك مذهبهم وكتابهم، الذي يزعمونه محفوظاً ومصوناً من التحريف. شعر:

الجھا ہے پاؤں یار کے زلف دراز میں   لو آپ اپنے دام میں صیاد آ گیا

وهذا كما أن القانون المدني الفرنْسيَّ جوّز الطلاق لأحد من أسباب ثلاثة، فتجاوزوا من التوحيد إلى التثليث كما هو عادتهم وديدنهم. أحدها: الزنا من أحد الزوجين. وثانيها: تجاوز الحد، والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر. وثالثها: الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مُهينة، كما قال السيد عبد الله علي حسين في شأن القانون الفرنسي: أسباب الطلاق: ١- الزنا. ٢-سوءِ المعاملة، أو إهانة فوق الطاقة. ٣-الحكم بعقاب بدني قصاص أو مُخِلٍّ بالشرف.(٢)

وأحد الأسباب الثلاثة التي ذكرها، أعني تجاوز الحد والإهانة البالغة يصعُب إثباته ويشكل تقديره، فإنهم لم يقدِّروا له حداً ينتهي إليه، وغاية يختتم بها. والثاني أعني الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يكاد يوجد إلا في حق الْمُجرمين، فلم يبق إلا الثالث، فلذا نبحث عليه إن شاء الله تعالى، ونقارنه مع دين الإسلام، واستمع بعض العبارات التي تدل على أنهم يعتبرون الزنا في الطلاق:

قال البـــادري بركت الله: إن الأقوام التي توجد فيها وحدة الزوجة وإحكام هذه الرابطة وتوكيدها تسلُك في سلك الرُّقي، ولكن الأقوام التي توجد فيها كثـــرة

---

(١) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٣٢٦.

(٢) المقارنات التشريعية، ص١٩٤.

الأزواج وإجازة الطلاق يوجد فيها الزوال والتزلزل والاضطراب والتشتّت.(١)

قال العلامة شبلي رحمه الله تعالى في ذيل أن الطلاق لا يقع عند المسحيين إلا عند وقوع الزنا: لقد وقع في هذه المسئلة (أي الطلاق) عند المسيحين شدة بحيث لا يقع، أي الطلاق إلا في حال الزنا، ونتيجة هذا أن اليوم في أوربا التي هي مركز التهذيب والتمدن، تقع وقائح وحوادث مُفزِعة مُفضِحة لأجل هذه المسئلة.(٢)

وقال الشيخ عبد العزيز شاويش المصري في كتابه (والموجود عندي ترجمته الأردية): لكن بعض الأقوام من غير المسلمين لا يجوزون الطلاق إلا لأجل الزنا، كما في قانون الإنجليز فإنهم يقولون: كل واحد من الفريقين إذا ارتكب الزنا يجب على الآخر أن يُحضِره في دار القضاء ليفرِّق القاضي على لسانهم بينهما.(٣)

هذا مذهبهم في الطلاق، ويطعنون بألسنتهم في الإسلام بتجويزه الطلاق، ويقولون: هذا سُم ناقع وداء جاصد يؤذي به الْمجتمعات ويَقلِب سعادتها إلى شقاء وخوف، ولم يخلق الله الزوجة لتتفرق وتجتنب، بل ليسكن الزوج إليها ويتوادد إليها، ولم يتزوجها للفراق الْمُنشئ للبغض والحسد والعناد والفساد، وستسمع الجواب عنه إن شاء الله تعالى مفصلا، فانتظر ولا تعجل، وعلى الله فتوكل.

تاريخ الطلاق

ثم الطلاق ليس بمخصوص بالدين الْمُحمدي المطهَّر، بل هذه سنة قديمة، فالإسلام ليس أبو عذرته، بل تنطق الأديان الأخر أيضا بمشروعيتها. فمذهب اليهود أنهم لا يبالون بالطلاق، بل يطلقون بشيء تافه وكلام قليل وقع بينهما. ففي التوراة «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينه؛ لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يديها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من

(١) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٤، ترجمة من الأردية.

(٢) الكلام، ص١٧٤.

(٣) اسلام اور فطرت (الإسلام دين الفطرة)، ص٢١٥. لافتخار أحمد.

بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الآخر وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أوإذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجةً، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست؛ لأن ذلك رجس لدى الرب، فلا تجلب خطيئة على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيباً»[(١)].

أقول: فاعتراضهم على الإسلام بالطلاق يستوجب طعناً في دين مُطاعهم موسى عليه السلام، وهذا يستلزم الاعتراض على نبيهم عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى أمر بإطاعة موسى، حيث قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل، فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»[(٢)].

وقال بعض الْمَهَرَة: لو رحنا نستقصى الطلاق كظاهرة اجتماعية في الناس في كافة أطوار البشرية، لرئينا أنه كان عملاً مشروعاً في كافة الشرائع قبل الإسلام إذا ما استثنينا الشريعة الهندوسية، غير أن هاتيك الشرائع لم تذهب في إباحته مذهبا واحدا، أو لم تنهج طريقة واحدة، ففي شريعة حمورابي ما معناه: أن للزوج أن يطلق زوجته إذا لم ترزق أولاداً؛ لأن الزواج يعتبر لاغياً إذا لم يُعطِ ثماره. أما في شريعة اليهود، فقد أبيح الطلاق من غير عذر[(٣)].

وقال العلامة الشبلي النعماني: واليهود في الطرف الآخر يجوزون، بل يستحسنون الطلاق لأجل أمر حقير وقع بينهما، فلو زاد الملح في الطعام أو رأى امرأة حسناء من الأولى يطلق الأولى بلا رؤية وتدبر[(٤)].

---

(١) التوراة، ص ٢٤، الآية: ١-٥.

(٢) إنجيل متى.

(٣) الإسلام نظام إنساني، ص٧٨.

(٤) الكلام، ص١٧٥.

فمذهب الإسلام بين إفراط اليهود وتفريط النصارى، وخير الأمور أوسطها. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.[١]

معنى الطلاق وأقسامه على سبيل الإجمال

الطلاق معناه لغة: رفع القيد، لكن جعلوه في المرأة طلاقاً، وفي غيرها إطلاقا.[٢] وتوضيحه كما في «فتح القدير»: واستعمل فعلاً بالنسبة إلى غير نكاح المرأة من الأفعال: أطلقت بعيري وأسيري، وفيه من التفصيل.[٣]

وفي «منتهى الأرب»: «طلاق: رہا شدنِ زن از قیدِ نکاح».[٤] طُلِقَتْ من زوجها، كنصر وكرم طلاقاً: بانت فهي طالق.[٥] طُلِقت طلاقاً المرأةُ من زوجها: بانت عن زوجها وتركته فهي طالق، طَلْق.[٦]

وأقسامه ثلاثة: أحسن، وحسن، وبدعي. فالأحسن: طلقة رجعية فقط في طهر لا وطئ فيه وتركُها حتى تمضيَ عدتها. والحسن طلقة لغير موطوءة ولو في حيض، وتفريق الثلاث لموطوءة في ثلاثة أطهار لا وطئ فيها، ولا في حيض قبلها، ولا طلاقَ فيه فيمن تحيض، وفي ثلاثة أشهر في حق غيرها. والبدعي ثلاث متفرقة أو ثنتان بمرة أو مرتين في طهر واحد لا رجعة فيه، أو واحدة في طهر وُطِئَتْ فيه، أو واحدة في حيض موطوءة، كذا في الدر المختار.

(١) البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) الدر المختار مع الشامي ٣/٢٢٦.
(٣) فتح القدير ٣/٤٤١.
(٤) منتهى الإرب لعبد الرحيم، ٤/٧٦٦.
(٥) قاموس ٢/٢٥٨ لمجد الدين الفيروز آبادي.
(٦) منجد، ص ٤٨٠.

الطلاق في الإسلام

يسمح الإسلام للرجل أن يطلق امرأته، وعليه الإجماع بحيث لا ينتطح فيه كبشان ولا يختلف فيه اثنان، كما قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: اتفقوا أن طلاق المسلم العاقل البالغ الذي ليس بسكران ولا مُكرَهاً ولا غضبان ولا محجوراً ولا مريضاً لزوجته التي قد تزوجها زواجاً صحيحاً جائز، إذا لفظ به بعد النكاح مختاراً له حينئذ.(١)

وثبوته بالقرآن، والسنة، والإجماع، والعقل.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.(٢) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾.(٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.(٤) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾.(٥)

وأما السنة: فقوله عليه السلام: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه والصبي». رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب، وعطاء بن العجلان الراوي ضعيف ذاهب الحديث.(٦) وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) مراتب الإجماع للعلامة ابن حزم الظاهري، ص ١٢٧.

(٢) البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٣) البقرة، الآية: ٢٣٠.

(٤) البقرة، الآية: ٢٣١.

(٥) الطلاق، الآية: ١.

(٦) رواه الترمذي في الطلاق، باب ما جاء في طلاق المعتوه، رقم:١٢٢٩.

وسلم قال: «طلاق الأمة تطليقتان».(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة قيس بن ثابت أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتردِّين عليه حديقته»؟ قالت: نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة».(٢) وما إلى ذلك من الأحاديث والآثار.

وأما الإجماع: فقد ذكرناه.

وأما العقل: فلأن بقاء النكاح وزِمامه في اختيار الزوج، وهو الناكح، فله أن يزيله، وقد تقع ضرورة شديدة إليه بحيث لا يتصور معها القيام بالنكاح، وتنقلب مصالح النكاح مفاسد، ويصبحا عدوّين لا يمكن أن يتعاشرا تعاشر الزواج، فالْمَصلحة حينئذ الطلاقُ والخلاص من الْمَفسدة والمضرة.

لا شك أن الزواج لم ينعقد لِهَزْلٍ واستهزاء، بل للمودة والتعاشر والزواج الأبدي، هو الأليق بالإنسان وأحرى، وهو الْمُلائم لحوائجه وضرورياته، ولذا قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.(٣) فالمرأة خُلِقت ليسكن الزوج إليها، لا ليذيقها ألم المفارقة والموادعة، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق، وما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العَتاق».(٤) فصيَّره النبي صلى الله عليه وسلم مبغوضاً، ولذلك حكم الله حين الشقاق بين الزوجين بالصلح، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا

(١) رواه الترمذي في الطلاق، باب ما جاء أن طلاق الأمة تطليقتان، رقم:١١٠٢.

(٢) رواه النسائي في الطلاق، باب ما جاء في الخلع، رقم: ٣٤٠٩.

(٣) الروم، الآية: ٢١.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٧/٣٦١.

مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.(١) وقال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.(٢)

فتحكيم الحكمين ليعيدا المودَّةَ الزائلة، ويطفئا النار المشتَعِلة، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم زيدَ بن حارثة مولاه: أمسك عليك، كما حكى الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾.(٣) وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.(٤) ويستخرج منه أن الطلاق ممنوع في أصله إلا أنه شُرِع للضرورة، والضرورات تبيح الْمَحظورات، كما قيل في الفارسية:

گر ضرورت بود روا باشد　　　بے ضرورت چنیں خطا باشد

وإن الإسلام يحكم بالتعاشر بالمعروف، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.(٥)

وقال عليه السلام: «لا يَفرَك مؤمن مؤمنةً، إن كره منها خُلُقاً رَضِيَ منها آخر».(٦)

والإسلام أمر الزوج بعد الطلاق أن يؤدي الصداق ونفقتها ولباسها وسكناها ما دامت في العدة، وأن يربِّي أولاده الصغار، حتى لو امتنعت عن الإرضاع يؤتيها

---

(١) النساء، الآية: ٣٥.

(٢) النساء، الآية: ١٢٨.

(٣) الأحزاب، الآية: ٣٧.

(٤) النساء، الآية: ٣٤.

(٥) النساء، الآية: ١٩.

(٦) رواه مسلم، باب: الوصية بالنساء، ١/٤٧٥.

الأجر. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.[١] ذلك كله لينظر إلى هذه المشقات والأعباء والأحمال، ويمنع عن الطلاق، فالإسلام دبَّر للاجتناب عن الطلاق هاتيك التدابير والمشاريع التي تأتي عليك:

١- يأمره بالمعاشرة الحسنة، ويقول له: عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

٢- لو حدث ذات البين أو خافا ذلك، يجب عليهما السعي في إصلاحه، وفيه يقول الله تعال: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾.[٢]

٣- لو لم ينفع هذا شيئا فليعرضا أمرهما على مجلس عائلي يتألف من حكمين: حَكَم من أهله، وحكم من أهلها، ليوفقا بين رغبتهما، ويعيدا إيلافهما، ويزيلا أسباب الشقاق والنفاق.

٤- فإن لم يظهر لهذا الدواء أيضاً تأثير و لم تنجح هذه الحيل، لم يبق حينئذ إلا الطلاق، فيباح له أن يطلقها طلاق السنة عند الضرورة.

أقوال الفقهاء في كراهية الطلاق

يدل على منع الطلاق عند عدم الضرورة كثير من أقوال فقهائنا. قال ابن الْهُمام رحمه الله العلام: والأصح حظره إلا لحاجة لِلأدلة المذكورة، ويحمل لفظ المباح على ما أبيح في بعض الأوقات. وقال بعد ذلك بسطور: وأما إذا لم تكن حاجة فمحض كفران نعمة وسوء أدب ينكره النفوس.[٣] وقال ابن عابدين رحمه الله تعالى: وأما الطلاق فإن الأصل فيه الحظر، بمعنى أنه محظور إلا لعارض يبيحه. وهو معنى قولهم: الأصل فيه الحظر، والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا

(١) الطلاق، الآية: ٦.

(٢) النساء، الآية: ١٢٨.

(٣) فتح القدير ٣/٤٦٤.

سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حُمْقاً وسفاهة رأى ومجرَّد كفران النعمة، وإخلاص الإيذاء بها وبأهلها وأولادها.(١)

ويُطْرِبني في ذلك قول الدكتور مصطفى المراغي حيث قال: إن لُحوء الإسلام إلى الطلاق هو لُجوء الطبيب إلى السموم القاتلة لِيُبيد بها الأدواء القاتلة، والطلاق في الإسلام مشروع للحاجة، لا للغاية.(٢)

ثم إن الإسلام خيّره بعد الطلاق أن يرجع، ثم بعد الطلاق الحسن الذي هو طلقة واحدة في طهر لم يجامع فيه، خيّره الإسلام بين الرجوع إليها وتسريحها أثناء عدها التي هي ثلاثة قروء (أحياض أو أطهار) على اختلاف المذهبين مذهب الإمام أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى. فالإسلام بعد الطلاق أعطى للزوج فرصة طويلة، وأمهله مدة يرجع فيها بالقول أو الفعل، ولو طلقها بائنا يجوز له أن يرجع إليها بالنكاح الجديد والمهر الجديد، ثم إذا طلقها طلقات ثلاث لا يجوز له أن يرجع حتى تنكح زوجاً غيره زجراً له بإيقاعه الطلقات الثلاث جملةً أو متفرقاً. وهذا دليل على نفور طبيعته وفتور رغبته. والإسلام جعل الطلاق في الحيض بدعياً؛ لأن الطلاق يبتني على الضرورة، والطلاق في حالة الحيض يدل على أنه لم يطلق للضرورة، بل لأن حالة الحيض حالة ضعف الرغبة والاشتياق، فلذا كرهه الشرع، وفيه جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «مره فليراجعها»، كما جاء في الحديث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال له رسول الله صلى الله -ليه وسلم: «مره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعــ ـدُ، وإن

---

(١) رد المحتار ٢٢٨/٣.

(٢) الإسلام نظام إنساني، ص٧٠.

شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء».(١)

ولذلك جعلت الطلقات الثلاث بدعيا؛ لأنها زائدة على الضرورة، والطلاق للضرورة، لا للتلذُّذ وتحصيل النشاط، حتى يزعم الرجل أنه مالك للطلاق كيف ما كان، بل إنما هو تشريعٌ ذو حكمة من جانب الحكيم العليم، وعلاج شاف لمرض ذات البين الْمُزمن، ولذلك أوصى الله تعالى بتحديد حدوده وتقدير جدرانه، ونهى عن تجاوزها، فقال عزت كلمته بعد ما ذكر آيات الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُوْدَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.(٣)

فزبدة الكلام وعمدته أن الإسلام جوَّز الطلاق في صور وأوقات مخصوصة، لا في كل الأحايين والأحوال، لضرورة شديدة بعد المنافرة بينهما، لا لِتتَضَرَّر المرأة، بل لرعايتها، وحفظ حقوقها، وإيفاء واجباتها، ونهى عن الإضرار بها، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾.(٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.(٥) فتلك وصية أوصى بها الإسلام في حق الزوجة، وهذا نظام الطلاق في دين الإسلام . شعر

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الْمَجامعُ

گر نہ بیند بروز شپرہ چشم چشمۂ آفتاب را چہ گناہ

(١) رواه مسلم، باب تحريم طلاق الحائض ١/٤٧٦.

(٢) البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٣) الطلاق، الآية: ١.

(٤) البقرة، الآية: ٢٣١.

(٥) البقرة، الآية: ٢٣٢.

المقارنة بين النظامين: نظام الطلاق في الإسلام والمسيحية

ثم بعد ذلك نقارن بين نظام الطلاقين: الطلاق في الشريعة الإسلامية والديانة المسيحية، فنقول: الطلاق في الديانة المسيحية لا يقع إلا عند وقوع الزنا. وفي الشريعة المطهرة الإسلامية يقع عند كل ضرورة. والزنا كثيراً ما يصعب إثباتها ويشكل أمرها، فإن الناس لا يزنون غالباً في الشوارع والطرق، بل في السرادب والغِيران والبيوت الْمُظلمة والمواضع المختفية، فتعليق الطلاق بالزنا كتعليق بأمر معدوم كالعنقاء والكيمياء. وإذا سمعت أنه لا يجوز في دينهم المصنوع الطلاق في غير حال الزنا، فما ذا يصنعون فيما يلى من الصور:

١- إذا وصل الشقاق والنفاق بينهما إلى حد لا يمكن الوفاق، وتنشأ أحوال وشؤون تتكدر منها معاشرتهما ويتنغَّص عَيشهما، ويتعذر الأخذ بتعاليم الإنجيل وأحكامه.

٢-إذا تنافرت طباعهما وتباعدت قرائحهما تباعداً شديداً بحيث يُؤثر أحدهما الموت على رؤية صاحبه وتبطل جميع الوسائل التي تُوَفِّقُ بينهما، فإن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء.

٣- إذا فسدت أخلاقها، فلا تراعي حقوق الزواج وحرماته، وتدندن في أسواق العشرة والفسق، وتبرُز في محافل الفسوق، والزوج في نظرها كالسوقي والخادم الحقير، فما ذا يفعل حينئذ؟

٤- قد يمرض أحدهما مرضاً مُزمناً، أو يجن جنوناً مطبقاً حتى تفقد خصوصيات الإنسانية من العقل والفهم، أو تكون عقيماً، أفلا يجوز له في هذه الصور أن يطلقها إذا لم يمكن له الإنفاق عليها أو دواؤها والقيام بحقوقها؟ وإن قلت: فماذا تفعل في هذه الحالة وهي معذورة مجبورة مضطرة؟ قلت: الحكومة الإسلامية، أو أية حكومة كانت ضامنة كفيلة لمثل هؤلاء المعذورين، أو جماعة المسلمين.

٥- وقد تكون غنية لا تكتفي بالنفقة المتوسطة، وهو فقير معسر ضيق اليد لا يجد مالا، أفلا يجوز له آنئذ أن يطلقها حتى تنكح زوجاً يوافقها وينكح بزوجة تناسبه، وهذا ظاهر لا خَفاء فيه.

٦- وقد يغيب إما بالخروج عن الوطن أو بالسجن الموبد بحيث لا يرجى رجوعه، أفلا يناسب أن يطلقها حتى تنكح غيره ؟ وغير ذلك من الأسباب التي لاتخفى على المتفطن الذي ألقى السمع وهو شهيد.

والمسيحيون لا تُجيزهم الكنيسة أن يطلقوا، ولو طلبوه في بعض الأحايين لاختلاف يظهر فيما بين الزوجين، كما قص الدكتور عبد الواحد قصة، قال: وقد رفعت أخيراً سيدة مسيحية مصرية دعوى أمام محكمة تطلب فيها تطليقها منه؛ لأنه تركها بدون الإنفاق، وبعد أن استرفعت الْمحكمة وقائعَ هذه القضية حكمت برفضها الدعوى اعتماداً على أن أحكام الشريعة المسيحية مدونةٌ في الإنجيل، والطلاق حرام في ذلك إلا لعلة الزنا. انتهى باختصار قليل. وقد رفعت أمام هذه المحكمة نفسها دعوى يطلب فيها الزوج طلاق زوجته؛ لأنها اختلفت معه منذ سبع سنوات، وخرجت على طاعته، وتركت منـــزل الزوجية، وحرضت أولادها على إهانته والاعتداء عليه بالضرب، وقال: إنه يطلب الطلاق، وقد رَفَضَت الْمَحكمة هذه الدعوى.(١)

ولما أشكل عليهم هذا القانون، انحرف عنه بعض المسيحيون، فكان أهل أميريكة يعملون بهذا القانون زمانا، ثم لما علموا أن للطلاق أسباباً أخر غير الزنا، تدبروا وتذاكروا وتباحثوا في هذه المسئلة.(٢)

ومن القبائح في قانون طلاقهم أنهم لا يعطون حق التفريق إلا للقاضي المعروف بـــ «جج»، ولا يجوز الطلاق إلا بسبب الزنا، فإذا زنا أحدهما يرفع الآخرُ

---

(١) الإسلام نظام إنساني، ص ٦٠-٦١ بحـ الة جريدة «الاهرام».

(٢) إسلام اور فطرت، ص ٢١٥ الأصل لعبد العزيز الشاو ـثي، والترجمة لافتخار أحمد.

الدعوى إلى المحكمة فيحكم بالتفريق، كما قال عبد العزيز الشاويش: لكن بعض أهل الأديان من غير المسلمين لا يجوزون الطلاق بغير الزنا، كما في قانون الإنجليز، فكل واحد من الفريقين إذا ارتكب الزنا يجب على الآخر أن يُحضِر الآخر الْمَحكمة ليفرق القاضي بينهما.

وفيه من القبائح ما لا يخفى، فإنه لو حكمت العدالة بالتفريق بالزنا يشيع الخبر من المشرق إلى المغرب، لاسيما في هذا الزمان الذي شاعت فيه وسائل الإشاعة والإذاعة من الجرائد اليومية والأسبوعية والْمَجلات الشهرية وراديو والتلفزيون وغيرها، فيفتضح بين الناس ويصير مُثْلَةً بين أهل العصر وإن تاب وآمن وعمل صالحاً وكان من المتقين، فلا تحسبه خيرا، بل هو شر لهم. بخلاف ما إذا فُوِّضت هذه المعاملة إلى الزوجين دون المحكمة، فإنه ليس فيه هذه الفضيحة والعار. فسبحان الذي رَزَقَنا دين الإسلام دين الفطرة والغيرة والْمَحاسن، منــزَّهاً عن كل عيب.

ثم الدين المسيحي يصرح بأن الزوجين بعد الطلاق لا يتزوجان أبداً ويعيشان بدون نكاح وإن تابا وأصلحا. واستدل جميع طوائفهم في ذلك (أي تحريم الزواج بعد الطلاق) بما ورد في إنجيل متى: «من يتزوج مطلَّقةً يزني».[١] وما ورد في مرقس: «من طلَّق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها، وإن طلقت المرأةُ زوجَها وتزوجت بآخر ارتكبت بذلك جريمة الزنا».[٢] فيعلم من هذا أنهما لا يتزوجان وإن اشتاقت نفوسهما وصالت بهيمة الشهوة عليهما. وقانون الإسلام المقدَّس يسمح لهما بعد الطلاق أن يتزوجا بمن شاء، لا بأس عليهما في أن يلقيا على أكتافهما حبل الزواج، ويتزينا بزينة التضاجع.

ولا يخفى ما في مذهبهم من الخوف في وقوع السِّفاح. فإنهما لما وقعا في قعر الزنا وهما مقيَّدان في سلسلة النكاح، وتفرقا لأجل ذلك، فما ظنك بعد التفريق

(١) إنجيل متى، ص٥، الآية: ٣١.
(٢) إنجيل مرقس، ص١٠، الآية: ١١-١٢.

والْحُرِّيَّة التامة. ولما صعب العمل على هذا القانون تركوه وأعرضوا عنه، ونبذوه وراء ظهورهم، كما حدث في موضوع مَلِك انجلترا الأسبق أدوارد الثامن الذي أراد أن يتزوج بمطلقة ملكت عليه تلبد (ليدي نسمبسون سابقاً ودوقة ومذسور الآن)، وكانت الظروف السياسية مواتية آنئذٍ لإخراج هذا الملك والوقوف في سبيل رغباته، فظهرت الكنيسة مهدِّدةً بأناجليها، وبان من يتزوج مطلقة يزني، فخُيِّر بين أن يمتثل لهذه القواعد ويحتفظ بالعرش أو يتنازل عن الملك، فآثر العقل على العقيدة والقلب على التاج. ومن الغريب أنه كان معروفاً لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه، وهي لا تزول في عصمة زوجها قبل أن تطلق منه، وكان لها جناح خاص في قصره، وقد اعترفت هي نفسها بذلك في مذاكراتها التي نشرت اخيرا في أحد الصحف المصرية.(١)

وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مرجريت (Margreat) أخت مِلكة الإنجليز الحالية، فقد أرادت من ضابط أحبته، وأحبها (الكابتن تانسند) فقامت قيامة الكنيسة في وجهها؛ لأن هذا الضابط قد طلَّق زوجته له من قبل، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطَلَّقاً يزني.(٢) فاستبان من هذا أن المسيحيين أنفسهم قد عجزوا عن هذا القانون أن يعملوا به. فسبحان الذي جعل الدين الإسلامي سمحاً سهلاً يمكن العمل عليه، بل يسهل، ولله الحمد والمنّة.

ثم نورد بعض إيراداتهم على هذا النظام الحَسَنِ الانسجام مع الجواب عنها، ومَطَاعنهم مع الالتيام .

المطعن الأول: لِمَ اختص هذا الحق (حق الطلاق) بالرجال، ولم يشترك بينهما، فإذا رأى الرجل من المرأة شيئاً يكرهه ويتنفر عنه يطلقه، فما ذا تفعل إذا رأت منه أمراً كريهاً لا يمكن الصبر عليه؟ وأما المسيحيون فيعطون لكل منهما حق

(١) الإسلام نظام إنساني، ٦٦-٦٧، للدكتور علي عبد الواحد.

(٢) الإسلام نظام إنساني، ص٦٧.

الطلاق، حتى إن زنى كل واحد منها يجب على الآخر أن يقدِّم المسألة في الْمَحكمة عند القاضي.

والجواب أن الرجل لما كان مالكاً للنكاح، والمرأة ناقصة العقل لا رأي لها ولا تدبيرَ جعل ذلك في يد الرجل، كما قال عبد الرحمن البخاري: ومن محاسن الطلاق أن جعل مِلْك الطلاق إلى الزوج دون المرأة، إما باعتبار أن الزوج هو المالك والمرأة مملوكة له، فكان إزالة الملك إلى من له الملك، لا إلى من عليه الملك، كما في ملك اليمين، أو باعتبار أن المرأة ناقصة العقل ضعيفة الرأي سريعة الاغتراء لا روية لها في أمورها، فإن جعل الطلاق إليها لبادرت إلى الطلاق عند كل قليل وكثير، فإن رغد عيشها بَطِرَت فتألمت غيرة، وإن عسر أمرها ضجرت فحالت عنه، فقلما يحصل الدوام على النكاح، فالشرع جعل الطلاق إلى الزوج ليتأمل ويتفكر ويستعمل عقله في أن الصلاح في الْمُقام معها أو فى مفارقتها؟ فهذه حكمة بالغة، ورحمة من الله سابغة.[1]

فالحاصل أنا جعلنا أمر الطلاق بيد الرجل لكمال عقله وتدبيره وكونه مالكاً، فيتدبر ويفكر في نتائجه، فإن اتضح له أن الخير في الصحبة اختارها، وإن سنح له أن الصلاح في المفارقة اتخذها عُدَّة وصلاحاً. وهذا رحمة وشفقة بالزوجة وحفظ لها من الوقوع في ورطة الهلاك. ولو جعل ذلك في يدها لانتجت نتائج قبيحة كما صرَّح به بعض المهرة. ولعل سائلا يقول: لماذا أعطي الرجل وحده هذا الحقَّ و لم تسو فيه المرأة؟ ونكفينا للإجابة على ذلك الوقائع المعيبة والمضحكة التي تصل سمعَنا كل يوم من حوادث الطلاق في أمريكا، وهي الدولة التي جَعَلت الطلاقَ حقا يمارسه كل من الزوج والزوجة على السواء، لأسباب تافهة وقضايا رخيصة التي يتشبث بها الأمريكيون والأمريكيات للحصول على الطلاق، ولعل المنصف تأخذه الدهشة فيما يعلم أن أكثر من نصف مليون رجل وامرأة يتباغضون ويتحاسدون، ويتغير نظام

(١) محاسن الإسلام لعبدالرحمن البخاري، ص٥١.

معيشتهم كلَّ عام لسبب حوادث الطلاق المؤلمة، وإلى هذا يشير (نتبام) قائلة: الطلاق ضرورة اجتماعية، وإنما الذين يرون المساواة في إيقاعه إنما يضعون النساء في حد لا يحمد الوقوع فيه؛ إذ المساواة المطلقة تحيد بهن عن استعمال ما فيه وفي أزواجهن.(١) شعر:

نه هرزن زن است نه هرمردمرد ... خدا پنج انگشت يکسان نه کرد

وأما قولهم: «ما الْمَخلص للمرأة إذا رأت منه مكروهاً إذ لا تقضي حاجتها؟» فنقول: شريعتنا وافية بكل ذلك لمن نَظَرَ بعين الإنصاف وتجنَّب عن الاعتساف. فاستمعِ أن العيوب التي بها تتضجر المرأة وتتحرج ولا تستوفي حقوقها قد عالجت لها الشريعة الإسلامية السمحة البيضاء علاجات مختلفة، والعيوب مختلفة، فإن كان مجبوباً لا يقدر على جماع فرج زوجته فرق بينهما كما هو المزبور في كتب الفقه. قال في «تنوير الأبصار»: إذا وجدت زوجها مجبوباً فُرِّقَ. انتهى.(٢)

وقال في شرحه «الدر المختار»: (فرّق) الحاكم بينهما بطلبها لو حرة بالغة غير رتقاء وقرناء، وغير عالمة بحاله قبل النكاح وغيرَ راضية به بعده.(٣) وهذا القيد أي غير عالمة الخ لا بد منه إذ من المتفق عليه بين العلماء أن أحد الزوجين إذا علم أن عيبا بصاحبه قبل العقد أو بعده، ووجد دليل الرضا منه به أو نطق بالرضا لا يثبت له حق طلب الفسخ بذلك العيب.(٤)

وإن كان عِنِّيناً يفرق بعد تاجيل سنة له، لاحتمال أن يرجع إليه قوته، وهو من لا يصل إلى النساء لمرض أو كبر أو سحر، ويسمى المعتوه. قال في «تنوير الأبصار»: ولو وجدتْه عنيناً أو خَصِيًّا أُجِّل سنة، ورمضان وأيام حيضها منها، لا

(١) الإسلام نظام إنساني، ص٧٧.
(٢) تنوير الأبصار مع الشامي ٣/٣٩٤-٣٩٥ .
(٣) الدر المختار مع الشامي ٣/٤٩٥ .
(٤) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٢٣٥.

مدة مرضه ومرضها، فإن وطئ وإلا بانت بالطلاق.[١] وقال في «الزواج والطلاق في جميع الأديان»: وأبو حنيفة وأبو يوسف رحمهما الله تعالى ذهبا إلى أن الزوجة لها طلب التفريق إذا وجدت زوجها عنيناً أو خصياً أو مجبوباً، وزاد الإمام محمد رحمه الله على ذلك أن المجنون والجذام والبرص حكمهما كذلك، ووافقه الأئمة الثلاثة، وللمرأة أن تطلب التفريق من القاضي بعد ثبوت دعواها.[٢]

وإن كان معسراً ولم يتيسر عيشها معه، لها أن تطلب التفريق عند مالك وأحمد والشافعي رحهم الله، وليس لها ذلك عند ساداتنا الأحناف، بل يأمرها القاضي بالاستدانة عليه وإن أبي الزوج، لئلا يلحق ضرر بها، فالشريعة الإسلامة يُجَنِّبُها من الضرر والضيق والكلفة والمشقة. ومذهب الأحناف معقول يقبله الطبع السليم، ينبغي لها أن يعاشر في حالة العسر كما استمتعت منه في حالة اليسر وعاشرته في السرور والفرح، والصبر أليق بها وفاءً لحق الزوجية والمعاشرة القديمة، ولو أصرَّ على أنه لا يعطيها النفقة ولم يكن له مال ظاهر طلّق عليه القاضي في الحال. ذكره المراغي قال: فإن امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته، فإن كان له مال ظاهر نفذ الحاكم عليه بالنفقة في ماله، وإن لم يكن له مال ظاهر ولم يقل إنه معسر أو موسر، ولكن أصرَّ على عدم الإنفاق طلق عليه القاضي في الحال.[٣]

وإن كانت تتضرَّر منه لسوء معاملته، فعند مالك يثبت لها حق الفرقة إذ لم يوجد الإمساك بالمعروف، فيكون التسريح بالإحسان، وقال جمهور الأئمة: يَزْجُرُه القاضي ويأمره ويجبره بحسن المعاشرة. فأخرج جميع الأئمة لهذا المضيق مخرجاً ولم يقرروا الظلم عليها. وإن كان غائباً فذهب الموالك إلى أن من حق المرأة أن ترفع الأمر إلى العدالة فيفرق القاضي، والأحناف والشوافع لم يروا ذلك مهما طالت

---

(١) تنوير الأبصار مع الشامي ٣/٣٩٧-٣٩٨.

(٢) الزواج والطلاق في جميع الأديان.

(٣) الزواج والطلاق في جميع الأديان، ص٢٣٦.

الغَيْبة، فلا يسمع القاضي هذه الدعوى، بل يفرض لها النفقة، ففي «الدر المختار»: تفرض النفقة بأنواعها الثلاثة لزوجة الغائب.[١] فالشريعة الإسلامية لم تلم بالظلم على الزوجة في حال من الأحوال.

وأما قول المسيحيين: يجوز للرجل أن يضرب امرأته وهذا ظلم، كما قال بادري بركت الله: القرآن يرخص للزوج أن يضرب امرأته كما قال: ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.[٢] فهذا جهل عظيم وفِرْيَةٌ بلا مِرْية، فإن المقصود المطلوب من هذا ليس الظلم، بل التأديب. ومن المعلوم أن في النساء جهلاً وقصورَ عقل، فلو لم يجز هذا في بعض الأحوال لأدى إلى العثى والفساد. ويشهد على كونه للتأديب قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «اتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يؤطِئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».[٣] وما ذكره من الآية فمع خطأ الحوالة؛ فإن عدد الآية ٣٤ لا ٣٨ كما ذكره. فالمراد منه التأديب. والآية التامة هكذا ﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾.[٤]

أفادت هذه الآية أموراً ثلاثة عند نشوزها: ١-الوعظ. ٢-والهجر في المضاجع. ٣-والضرب، فالضرب عند عدم إفادة العلاجينْ الآخَرين، وبين الثلاثة ترتيب ينبغي أن يتدرَّج فيها. واتفقوا أن الضرب يكون غير مبرح، قال ابن عباس رضي الله عنه: ضربا غير مبرح ولو شائنا. قال الحسن: ضرباً غير مُبَرَّحٍ وغير

(١) الدر المختار ٣/٦٠٤.

(٢) النساء، الآية: ٣٤. توضيح البيان في أصول القرآن، ص٤٥.

(٣) رواه مسلم في الحج، حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:٢١٣٧.

(٤) النساء، الآية: ٣٤.

مؤثر(جصاص). والضرب الخفيف بالسواك أو نحوه. قال ابن عباس رضي الله عنه: بالسواك ونحوه (بحر). وصرَّح أهل التحقيق بأنه إن كفى الطريق الخفيف لا يصار إلى الشديد، مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، و لم يجز الإقدام على الطريق الأشد. كبير.[1]

فالحاصل أن هذا الضرب ليس ضرب ظلم، بل ضرب سواك للتأديب وهو أيضاً بعد عدم إفادة العلاجين الآخَرين، فنظام الإسلام نظام جيد جداً، محيط بمصالح العالم وفوائده، فالمعترض عليه إما جاهل أو متجاهل.

(١) التفسير الماجدي ١/٧٣٣.

الجهاد في الإسلام والمسيحية

الجهاد في الدين المسيحي

يقول أهل الملة المسيحية: إن الجهاد والقتال محرَّم ممنوع في ديننا، وديننا المسيحية انتشر بالأخلاق الحسنة والمحبة الصادقة، لا بالسيف والسنان والقتال والمحاربة. ولهذا لم يقاتل عيسى عليه السلام طول عمره. وإليك نصَّ قولهم في ذلك:

قال البادري بركت الله ـ ما معرّبه ـ: المسيحية تحرم القتال، كما أشاع الْمَجلس العالمي المنعقد في يروشلم في إبريل سنة ١٩٢٨م هذا القرار: ليس في دين المسيحية تفريق بين الأعلى والأدنى؛ لأنه روح الصلح، ولكونه مذهباً عالمياً شاملاً لجميع الأقوام والأفذاذ، فيه سواسية كأسنان المشط. ثم قال بعد ذلك: تقتضي خطبات الإنجيل وعباراته أنه لا يجوز لأحد مَن كان وأين كان أن يُحَرِّضَ الآخر ويستحثه على القتال، نعم! يوجد في القرآن الكريم أمر صريح للنبي صلى الله عليه وسلم بالقتال والجهاد، وبتحريض المسلمين عليه، والتشديد على الكافرين والمنافقين، وأمِروا أن يقتلوا حتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله.(١)

وقال مولانا رحمة الله الكيراني رحمة الله عليه: الأمر الرابع أن علماء بروتستنت يَدَّعون كذباً أن دين الإسلام شاع وذاع بالسيف المسلول.(٢)

وتستدل الأمة المسيحية على تحريم الجهاد في دينهم بقول المسيح عليه السلام: «أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فَحوِّل له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء، ومن سخَّرك

(١) توضح البيان في أصول القرآن، ص٢١-٢٢. والكتاب بالأردية.

(٢) إظهار الحق ٢/٥٠٩.

ميلا واحداً فاذهب معه ميلين».[١] وقال القديس بطرس: «أعد سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون».[٢]

والقول الجملي أن لهم طعنين:

الطعن الأول: إن الدين المسيحي دين الصلح والأمن، ودين الإسلام دين السيف والجهاد.

والطعن الثاني: إن دين الإسلام انتشر بالْحُسام الصَّمصام، لا بالبرهان. وأن جهاد المشركين رذيلة من الرذائل ودنائة وخساسة، وأنها تنافي النبوة، فإن النبوة تستوجب الرحمة الكاملة الوافرة، بل من شأن النبي أن يتحمل إهانات الكفار، ويتعرض لأذيَّات الفجار بدون المقاومة. والإسلام عارٍ عن هذا الحسن والجمال، خال عن هاتي الزينة والكمال. معاذ الله.

قال البادري الدكتور او وي سيخ: الإسلام في نظر القرآن مذهب إجباري انبثَّ بالسيف، ليست فيه جاذبية من جهة الأخلاق أو البرهان، بخلاف الإنجيل، فإنه تمكن في القلوب بقوة أخلاقه.[٣]

الجهاد في الدين الإسلامي

الجهاد لغةً: مصدر جاهد في سبيل الله. وشرعاً: الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله. شمني. وعرَّفه ابن الكمال بأنه: بذل الوُسع في القتال في سبيل الله مباشرةً، أو معاونة بمال أو رأي، أو تكثير سواد، أو غير ذالك. وهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض، وإلا ففرض عين.[٤] وقال في «منهاج التفسير»: الجهاد هو

(١) إنجيل متى، ص٥، آيات ٣٨-٤١.

(٢) الجهاد، ص١٩٢.

(٣) اسلام کا اخلاقی نظام، ص٨٥، للشیخ قاری محمد طیب مدظله۔

(٤) الدر المختار مع الشامي ٤/١٢١-١٢٣.

بذل الطاقة واستفراغ الوسع في مدافعة العدو. وهو قسمان عظيمان، تحت كل منها أنواع. فالقسم الأول: جهاد العدو الباطن، وتحته جهاد النفس، وجهاد الشيطان. والقسم الثاني: جهاد العدو الظاهر، وتحته ثلاثة أنواع: جهاد الكفار، جهاد المنافقين، جهاد أهل الظلم والبدع والضلالات الاعتقادية والعملية.(١)

الصلح هو الأصل في الإسلام

ندب الإسلام إلى الصلح والسَّلْم إن لم يخف المسلمون من الكفار ويكون بهم ثقة، ويعلم المسلمون أنهم لا يغادرون ولا يقعون في أمور المسلمين وشؤونهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم مُنْزِلَ الكتاب ومُجرِيَ السَّحاب وهازمَ الأحزاب اهزِمْهم، وانصرنا عليهم».(٢)

فالصلح والسلم هو الأصل في نظر الإسلام، لكن إن خاف هجوم الكفار، أو خاف على نفسه، أو ماله، افترض عليه القتال لإعلاء كلمة الله، وعصمة نفسه وماله وأولاده والمسلمين، فإن هجمونا فالجهاد فرض عين. وفي غير هاتين الصورتين الصلح هو الأصل. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.(٣) يشير هذا إلى أن السلم هو الأصل.

قال عبد الرحمن الجزري: السَّلم في نظر الإسلام هو الأصل الذي يجب اتباعه دائماً ما لم يُهدر الدين، والعِرْض، والنفس، والمال. وعند ذلك يجب على المسلمين أن يذودوا عن شرفهم، وأن يكفوا عنهم أعدائهم، فليس القتال عن طبيعة الإسلام كما يظن بعض الجهلاء من آيات القرآن.(٤)

---

(١) منهاج التفسير، ص٩٥.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري ١/٤١٦.

(٣) الأنفال، الآية: ٦١.

(٤) أدلة اليقين، ص٣٤، لعبد الرحمن الجزري.

وقال العلامة ثناء الله الباني بتي رحمه الله تعالى: فإن الأمر بالقتال والجهاد ليس لأجل الإكراه على الدين، بل لدفع الفساد من الأرض، فإن الكفار يفسدون في الأرض ويصدون عباد الله عن الهدى والعبادة، فكان قتلهم كقتل الحية والعقرب.[١]

وإذا كان الإسلام قد فرض الجهاد على المسلمين، فإنما هو عند ما تدعو إليه داعية المجتمع.[٢]

وبالجملة أن الأحوال ثلاث:

إحداها: الهجوم على المسلمين والإغارة عليهم، ولاشك أن الدفاع والذّود في هذه الصورة فرض عين، حتى تخرج المرأة بدون إذن زوجها، والعبد بغير إذن مولاه، بل المقصود في هذه الصورة الدفاع عن النفس، وإعلاء كلمة الله، كما في غزوة الخندق التي وقعت سنة ٥ هجرية، جمع أبو سفيان عشرة آلاف من الجيش ليغير على المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾.[٣] قالت: كان ذلك يومَ الخندق، وقال الله تعالى يَمُنُّ على المؤمنين بالفتح يوم الخندق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.[٤] وكما في غزوة بني المصطلق، بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجتمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء من مياههم.[٥]

---

(١) تفسير مظهري ٣٦٣/١ .
(٢) نبذة من السيرة النبوية لأبي النضر الطرازي، ص٩٥.
(٣) الأحزاب، الآية: ١٠.
(٤) الأحزاب، الآية: ٩.
(٥) تاريخ الطبري، الجزء الثالث، ص ٦٤.

وثانيتها: الصد عن السبيل وإن لم يهاجموا و لم يَصُولوا على المسلمين إلا أن المسلمين يخافون من أذاهم على أنهم يصدون عن سبيل الله وعن إعلاء كلمة الله، فالجهاد في هذه الأحوال فرض كفاية لإعلاء كلمة الله، وبهذا الطريق انتهج الكفار مدة عمرهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كانوا يصدون عن سبيل الله ويؤذون المسلمين، كما يدل عليه واقعة الحديبية: خرج النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فى بضع عشرة مئة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلّد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خُزاعة، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الأشطاط، أتاه عينه. قال: إن قريشا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك. فقال: «أشيروا أيها الناس عليَّ! أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين». قال أبو بكر: يا رسول الله! خرجتَ عامدا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. قال: «امضوا على اسم الله».(١)

ولما كانت حال العرب هكذا، وكانوا منغمسين في غمرات الحراب والعراك، أمر بالجهاد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾.(٣) وقال عزت كلمته: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.(٤) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ

(١) رواه البخاري، باب غزوة الحديبية، رقم: ٣٨٦٠.
(٢) المائدة، الآية: ٣٥.
(٣) الأنفال، الآية: ٣٩.
(٤) الحج، الآية: ٣٩.

عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾.(٢) وغير ذلك من الآيات.

الثالثة: أن لا يريدوا الهجوم والضرر، فالإسلام أيضاً لا يأمر بالتعرض والقضاء عليهم، بل يشير بالصلح والسلم والإعراض عن القتال، كما سبق في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا».(٣) ولذا منع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الصبيان، والشيوخ، والنساء، ومن لايقدر على القتال، فلو كان المطلوب في الإسلام استيصال الكفرة وقطع شافتهم لأمر بقتل الجميع، لكن لم يفعل هكذا، بل أمر بقتل الْمُقاتلين أو الْمُشاوَرين الْمُمُدِّين في ذلك، ونهى عن قتل غيرهم. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بامرأة وقد قتلها خالد بن وليد، والناس مُتَقَصِّفُونَ عليها، فقال: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه: «أدرك خالدا، فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا».(٤)

فالطاعن في الإسلام بأنه لم يقصد و لم يمل إلا إلى السيف دون الصلح جاهل أو ضال مضل أو متحامق.

فوائد الجهاد الدينية والدنيوية وحكمه ومصالحه

لقد كنت على يقين أن الجهاد لما كان مشروعا وفرضاً عينياً في بعض الأوقات، ففيه فوائد ومصالح وحِكَم من الله الحكيم، ففيه إعلاء كلمة الله الذي لا

(١) التحريم، الآية: ٩.

(٢) التوبة، الآية: ١٢.

(٣) رواه مسلم، باب كراهة تمني لقاء العدو ٢/٨٤. وقد سبق برواية البخاري.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٥٨. والحديث رواه ابن ماجه، باب الغارة والبيات، رقم:٢٨٣٢.

يحصل بصرف مال كثير ولا بالآلات، والوسائل، وإقامة الدين، وتنفيذ الأحكام الشرعية، ورغم للشيطان اللعين، وإخراج الهالكين في ورطات الكفر من الظلمات إلى النور، فإن كثيرا من الكفار أسلموا وانقادوا بعد الجهاد، وابتلاءُ الله تعالى بتمييز العاصي القاسي من المطيع المنقاد، فإن في الجهاد بذل النفوس والأموال في سبيل الله، فيخلص من ينفق ممن لا ينفق. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.(١)

وأما المنافع الأخروية، فأكثر من أن تحصى، وكفاك قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل ميت يُختَمُ على عملِه إلا الذي بات مرابطاً في سبيل الله، فإنه يُنمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمَن فتنة القبر». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني يقول الله عز وجل: «الْمُجاهد في سبيل الله هو عليّ ضامن إن قبضتُه أورثتُه الجنةَ، وإن رجعتُه رجعتُه بأجر أوغنيمة».(٤)

هذا وأمثاله كثيرة، فالجهاد لا تحصى فوائده ولا تعد عوائده، وهو جائز دفاعاً كان أو هجوما أوإقداماً. قال ابن تيمية رحمه الله في مجموع فتاواه: إن الجهاد أفضل ما يتطوع به المسلم، وهو باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، وأفضل من صلاة التطوع، وأفضل من صوم التطوع، وهذا معلوم من الكتاب والسنة.(٥) ولا يختص

(١) محمد، الآية: ٤.

(٢) النساء، الآية: ٩٥.

(٣) التوبة، الآية: ٨٨ .

(٤) رواهما الترمذي ٢١٥/١.

(٥) الجهاد، ١١٠٣ لأحمد محمد. راجع: مجموع الفتاوى ٤١٨/٢٨.

بالدفاع كما يقول البعض، بل يجوز الإقدام لدفع الظلم، وإعلاء كلمة الله، وهدم أساس الكفر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما فرغوا عن غزوة الأحزاب: «الآن نأتيهم ولا يأتوننا».

قال بعض الفضلاء: الغرض الأصلي من الجهاد هو دفع الظلم، ودفع الفتنة، وإنجاء المظلوم من الظالم، سواء كان بالمدافعة، أو الهجوم ليعرض الدين على الناس في فضاء ساكن صامت عن الفساد، وبيئة حسنة جميلة .[١]

فالجهاد سبيل مستحسن لدفع ظلم الكفار، خصوصاً في هذا الزمان الذي يجترئ فيه الكفار على المسلمين ويعينهم بعض الروافض والقادنيون ـ خذلهم الله تعالى في كل موضع ـ ألا تنظر إلى إسرائيل تبغي فساداً في فلسطين وبيت المقدس وبلاد العرب، وبعض الهنود يجترؤون على المسلمين، فالواجب على المسلمين أن يكونوا يداً واحدةً على الكفار وجسداً واحداً إن اشتكى بعضه اشتكى كله، ويدافع عن أعراضهم وأنفسهم وإخوانهم إعلاءً لكلمة الله وإبقاءً لدين الله تعالى. أبقاه الله إلى يوم القيامة. اللهم اجعلنا مجاهدين في سبيلك، متحدين لدينك، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، إنك على كل شيء قدير. واحشرنا في زمرة الغزاة المغفورين. (آمين)

الاستدلال على القتال من أقوال اليسوع المسيح عليه السلام

يثبت الجهاد والقتال من عِدّة أقوال عيسى عليه السلام حيث قال: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقى سلاماً، بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه، والابن ضد أبيه والكنة ضد حماها».[٢] وفي هذا الأصحاح:

(١) اسلام كااخلاقى نظام، ص١٩٥ ، للشيخ قارى محمدطيب مد ظلہ.

(٢) إنجيل متى، ص١٠، الآية: ٣٤-٣٥.

«من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها».[١] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.[٢] يعلم منه أن عيسى عليه السلام رغّب في الجهاد والقتال وشدَّد فيه. وأما قوله: «من لطمك على وجهك الأيمن فحوِّل له الآخر» محمول على العفو وعلى حال الدعوة، وهذا لا ينافي الجهاد والقتال، ألا ترى أن الله تعالى قال لحبيبه محما صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[٣] فأمره بالعفو مع أنه مأمور بالجهاد، ولعل عيسى عليه السلام يكون مأمورا بالجهاد، ولكن لم يقاتل لعدم موافاة الشروط ككثرة الأعوان والفرصة وغير ذلك. والله أعلم، كذا في بعض الكتب.

ولو قلنا: إن عيسى عليه السلام لم يؤمَر بالجهاد، فلا ضير إذ لا يلزم أن تكون الشرائع متفقة، فإن الأنبياء عليهم السلام شرائعهم مختلفة مع وحدة أصول الدين، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.[٤] فنكاح الأخت كان مشروعاً في شريعة إبراهيم عليه السلام كما يقولون: إن إبراهيم تزوَّج بأخته،[٥] والتوراة ناطقة به، مع أنه محرم في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام.[٦]

وهكذا يجوز أن يشرع الجهاد في دين محمد صلى الله عليه وسلم، ويحرم في دين عيسى عليه السلام، ولا شناعةَ فيه، فإن الله عز وجل قدَّر وعيَّن لتعذيب الكفار إذا لم يؤمنوا بالنبي المبعوث سُبلا وطرقا مُتَشَتَّةً، فيمكن أن يختار الله لتعذيبهم طريقاً آخر غير الجهاد، وذلك على الله يسير، فاستمع الآن.

---

(١) متى، الآية: ٣٩.
(٢) آل عمران، الآية: ١٤٦.
(٣) الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٤) المائدة، الآية: ٤٨.
(٥) تكوين، ص٢٠، الآية: ١١-١٣.
(٦) الاستثناء، ص٢٧، الآية: ٢٢.

الطرق المختلفة لتعذيب الأمم

أخفها الجهاد، فاختيار الجهاد اختيار لأخف طرق تعذيب الأمم، فاعلم أن الناس إذا لم يذعنوا لأحكام الله تعالى ويخلعوا رَبْقَة التقليد من رقابهم، وأصروا على الكفر والإنكار، ولم تُفِد فيهم الدعوة، ولم يُثمر فيهم اللِّين، وانقطع جميع وسائل التفهيم يقضي الله على عذابهم. وهذه سنة الله تعالى في الأمم، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فتارة يبيدهم بالإغراق، كما أغرق فرعون وجنوده، ففي سفر الخروج من التوراة: «فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل ورائهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد».[1] وقال الله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.[2] وقد صرّح في سفر اللاوين بأن من لم ينفذ أوامر الله يُبْديه الله. قال: «فلا تَقْذِفَنَّكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوبَ التي قبلكم، بل كل من عمل شيئا من جميع هذه الرجسات تَقْطَعُ الأنفسَ التي تعملها من شعبها».[3]

وتارة بإرسال الملك كما فعل بعسكر الأشوريين إذ أرسل عليهم ملَكاً، فقتل منهم في ليلة واحدة مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا، ففي سفر الملوك الثاني: «وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش اشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفا، ولما بكروا صباحا إذا هم جميعاً جُثَثٌ ميتة».[4]

---

(١) سفر الخروج، ١٧، الآية: ٢٨.

(٢) الأنفال، الآية:٥٤.

(٣) سفر اللاوين، ص١٨، الآية: ٢٨-٢٩.

(٤) ملوك الثاني، ص١٩.

وتارة بالخسف، كما خسف قورع وداثان وابيرام، لما خالفوا موسى عليه السلام، قال في التوراة: «فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم، وكل من كان لقورح مع كل الأموال، فنَزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادروا من بين الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تَبْتَلعنا، وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور».(١)

وقد يُبيدهم بأيدي المؤمنين، وهذا أخف أنواع العذاب؛ لأن من عُذِّب بالعقوبات السابقة لم يبق منهم أحد وأُهلِكوا جميعاً، وأما الإبادة بأيدي المسليمن فيهلك بعض ويبقى بعض، فيسلم ويؤدي الجزية، وهذا النوع لا يختص بالمسلمين، بل يوجد في بني إسرائيل أيضاً، ففي التوراة: «حين تقرب من مدينة لكي تُحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد ذلك، وإن لم تُسالِمْكَ بل عمِلت معك حربا فحاصِرْها، واذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمتك أعدائك التي أعطاك الربُّ إلَهُك».(٢)

فهذا نص التوراة يرشدنا إلى الجهاد بعد دعوة الصلح، فوقوعهم في عرض الإسلام وقوع في عرض دين موسى عليه السلام الذي هو مشحون بذكر القتال، فالتوراة قتال في قتال ونضال في نضال، ومن شاء فليتفرغ لِمُطالعتها يجدها كما وصفنا لك.

(١) سفر عدد، ص١٦، الآية: ٣١-٣٥.

(٢) التشنية، ص٢٠، الآية: ١٠-١٥.

غزوات النبي صلى الله عليه وسلم

اعلم أن المسيحيين يعترضون على غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، كما يعترضون على الجهاد، ويقولون فيه كما يقولون في الجهاد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أكره الناس بإدخالهم في الإسلام، ونشر الدين بالسيف القاطع، لا بالبرهان الواضح والدليل الساطع. فعلينا أن نبين حال غزواته صلى اله عليه وسلم، ونكشف أن الإسلام لم ينتشر بالسيف والسنان، بل بالحجة والبرهان، وهذا تَقَوُّل وتَفوُّه.

فاعلم أن الله لما بعث نبيَّه وحبيبه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم جعله داعياً ومبلغاً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.(٢) وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.(٣) فبلغ رسول الله دين الله تعالى في كل واد وناد، وأوصل هذا النداء الإلهيَّ إلى كل فؤاد، حتى آمن خلق كثير بمكة برضًى ورغبة دون جبر وإكراه، فآمن أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن حارثة، وأبو ذر، وبلال، ومصعب بن عمير، وجعفر الطيار، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن سعد، وزبير، وطلحة، وعمار، وسمية، وياسر، وكعب، وطفيل بن عمرو الذي كان ملكاً لبعض نواحي اليمن، أسلم بمكة وانتشر بدعوته وببركته الإسلام في وطنه وقبيلته.(٤)

وآمن جم غفير بمكة، والحبشة، والمدينة، ونجران، وكيف يقال: إنهم آمنوا بجبر

(١) المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) الحجر، الآية: ٩٤.

(٣) النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) رحمة للعالمين للقاضي سليمان منصور فوري ١/١١٥.

وإكراه، مع أن الإكراه كان من العِصابة الأخرى عِصابة الكفرة، فإن الكفار آذَوهم بالإسلام أشد إيذاء، وإليك نصاً ذكرُ بعض من أوذي في سبيل الله:

كان بلال مولى أبي بكر، أعتقه أبو بكر، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَحٍ يخرجه ـ وكان غلاماً له ـ إذا حَمِيت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا والله لاتزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.(١)

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مخزوم يخرجون عمار بن ياسر رضي الله عنه بأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول فيما بلغني: «صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة»، فأما أمه فقتلوها.

ولا يفرقون بين الفقراء والأمراء، بل يؤذون جميعاً، فروى ابن هشام في ابي بكر. قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل أم كلثوم عن بنت أبي بكر أنها قالت: لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فَرْقَ رأسه مما جبذوه بلحيته، وكان رجلاً كثير الشَّعر.(٢)

وبالجملة أنهم كانوا يؤذون جميع المسلمين إذا قدروا. وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومَنَعَة أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسَفِّهَنَّ حلمك، ولنُفيِّلَنَّ رأيك، ولَنَضَعَنَّ شَرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولنُهلِكَنَّ مالك، وإن كان ضعيفا ضَرَبه وأغرى به.(٣)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٠/١.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٠/١.

فإيمان الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بالإكراه، بل بيقينهم الكامل، وتأثرهم من أخلاقه وأعماله، وتمرينهم صدقَه، ورؤيتهم معجزاته، واستماعهم القرآن الذي لا يؤتى له مثل. فروي أن أنيسا الغفاري أخا أبي ذر الغفاري قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(١)

فعلم أنهم آمنوا لاتضاح الدلائل والبراهين عندهم، لا بالجبر والإكراه. وكيف يكون إيمانهم بالإكراه؛ والإيمان المعتبر هو الذي يكون راسخاً في القلب، حتى لوآمن أحد بلسانه وكفر بقلبه يكون كافراً منافقاً، وكفره أشد من كفر الكافر الجاهر، ويسمى منافقا، وقد قال عزَّ وجل في حقه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.(٢)

فهل يكره أحد على ما لا يقبله سبحانه وتعالى، هذا بعيد عن العقل بمراحل ومنازل، وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.(٣) قال العلامة الآلوسي في شأن نزوله: أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، وكان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما؛ فإنهما أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله تعالى فيه ذلك.(٤) فانظر إلى هذه الواقعة يلوح منها أن الإسلام ليس دين الإكراه والإجبار، بل دين الرضى والطواعية.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/٣١٤. والحديث رواه مسلم في الفضائل، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم: ٤٥٢٠.

(٢) النساء، الآية: ١٤٥.

(٣) البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) روح المعاني ٣/١٣.

اشتداد الأذى على النبي صلى الله عليه وسلم، وهجرته إلى المدينة، والإذن بالقتال

ثم النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد عليه وعلى أصحابه الأذى، وبلغ السيلُ الزُّبى، وطُحِنوا في طاحونة الإيذاء، أمِر بالهجرة. وإليك بعضَ الوقائع التي أَلَمَّتْ ونزلت عليهم، والإحاطة بالكل يقتضى دفتراً عظيماً. فأخرج مسلم عن عبد الله قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله الناس من قريش، إذ جاءه عقبة بن أبي معيط بِسَلاَ جَزور، فقذفه على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة، فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك، فقال: «اللهم عليك بِملأ من قريش: أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، أو أُبيٍّ بن خلف». شعبة الشاك، قال: فلقد رأيتهم قُتِلوا يوم بدر فألقُوا في بئر، غير أن أمية أو أبياً تقطعت أوصالُه فلم يُلقَ في البئر.[1]

وقد أصابته من أهل الطائف وقومه قريشٍ المصائبُ العظيمة والبلايا الكبيرة، ولم يزالوا على أذاه قائمين ونقعوا له الشر، حتى هاجر أصحابه إلى الحبشة. قال ابن جرير: ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيماً مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله سِرّاً وجهراً، صابراً على أذاهم، وتكذيبهم إياه، واستهزائهم به، حتى إن كان بعضهم فيما ذُكِرَ: يطرح عليه رَحِمَ الشاة وهو يصلى، ويطرحها في برمته إذا نُصِبت له، حتى إذا اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فيما بلغني حِجْراً يستتر به منهم إذا صلى.[2]

---

(١) رواه مسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين ٢/١٠٨.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٢٩.

ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل، حتى آواه الله إلى المدينة الطيبة، فهاجر من مكة إلى المدينة، وقَويَ الإسلام وانتشر في سكك المدينة وشوارعها، وكفرت قريش نعمة الله، فرزقه الله تعالى الأنصارَ الأوس والخزرج أهلَ المدينة، بعد ما بَلّغ فيهم ثلاث عشرة سنة، فلم يجد فيهم نفعا معتدًّا به، و لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع السيف في هذه المدة، بل أمر بالصلح والعفو والإعراض، لكن لما كانوا بعد الهجرة أيضاً مستعدين لإبادة المسلمين وإهلاكهم، وكانو منهمكين في التعاهد مع اليهود، وبلغت الفتنة إلى منتهاها، و لم يبق سوى السيف علاج ودواء لهذا الداء والمرض المثبت، أذن الله للمسلمين في الجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾.(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: هذه أول آية نزلت في القتال.

فالغرض من السيف دفع ظلم الكفرة والانتصار لانتشار الإسلام، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل من لم يقاتل حينما ذكر آداب الجهاد والقتال، فعن عبد الله: أن امرأة وُجِدت في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان.(٢)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أوسرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلو ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين

(١) الحج، الآية: ٣٩-٤٠.

(٢) رواه مسلم، باب تحريم قتل النساء والصبيان ٢/٨٤.

وأخبرهم أنهم إن قبلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبو أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسَلْهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتِلْهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنَزِّلَهم على حكم الله فلا تنــزلهم على حكم الله، ولكن أنزلْهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا».[1]

فَذَلَكَةُ الكلام أن الإسلام لو أراد أن يُبِيْدَ الكافرين ما خيّر المسلمين فيهم وقد جاء الخيار، فإنهم إما أن يقبلوا الإسلام، فإن لم يسلموا يعطوا الجزية. فمن فعل ذلك كان في هذه الحياة الدنيا كالمسلمين، لهم مالنا وعليهم ما علينا، فإن لم يرتضوا ذلك يقاتلوا ويغزوا باسم الله بتوفية شرائطه وآدابه، وينوي إعلاء كلمة الله تعالى. قال في «تفسير آيات أحكام القرآن» في ذيل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾. إلى قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.[2] المراد بــ ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أهل الكتاب. والغرض تميزهم عن المشركين في الحكم؛ لأن الواجب في المشركين القتال إلى أن يسلموا. وأما الواجب في أهل الكتاب، فهو القتال، أو الإسلام، أو الجزية.

وأما تعين القتال في المشركين مشركي العرب إن لم يسلموا، فلأنهم آذَوا النبي صلى الله عليه وسلم أنواع الأذيات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.[3] أي اقصُدوا بقتالهم أن تزول الفتنة والكفر وأنواع الإيذاء والضرر التي تلحق المسلمين

(١) رواه مسلم، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب ٨٢/٢.

(٢) التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) البقرة، الآية: ١٩٣.

بوجودهم في مكة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان».[١]

ولو سلمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم نشر الإسلام بالسيف، فلا عيب فيه إذا كان من عند الله، فإن ما كان من عند الله لا يطعن فيه ولايسئل عنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.[٢] قال العلامة قاسم النانوتوي رحمه الله تعالى: اسمعوا إذا كان العبد مملوكاً ومحكوماً لله ومحباً مخلصاً لله تعالى، لابد أن يكون في العبد أمران بمقتضاه: الأول: أن يحب أولياء الله ويعينهم بماله ونفسه. والثاني: أن يبغض أعداء الله تعالى ويقاتلهم، يسمى الأول الحب في الله، ويتعلق به الجود، وحسن الأخلاق، وصلة الرحم، وستر العيوب، والنصيحة. ويسمى الثاني البغض في الله ويتعلق به الجهاد، والجزية، والغنيمة، والمناظرة، وغير ذلك.[٣]

ونقول إلزاماً عليهم: إن قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على قريش، فقد جاء في حق موسى عليه السلام وقومه أنه استعار الْحُليَّ من آل فرعون ثم خرجوا وسلبوهم، كما في الأصحاح الثاني عشر من سفر الخروج «وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المِصريين أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهبٍ وثياباً وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين، حتى أعاروهم فسلبوا لمصريين».[٤] فإذا جاز لموسى عليه السلام أن يستعير ويسلبهم، وهو خديعة في الظاهر، وإن كان في الحقيقة مال المشرك، وهو غنيمة. فلِمَ لَمْ يجز للنبي صلى الله عليه وسلم الجهاد وكسر الأصنام وأخذ الأموال مع وجود العدل في غزواته؟ وكان حبه وبغضه في الله ولإعلاء كلمته كما قال الشوقي: شعر:

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٦/١١٥.

(٢) الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٣) حجة الإسلام للعلامة القاسم النانوتوي رحمه الله.

(٤) خروج، ص١٢، آيات٣٥-٣٦.

و إذا غضِبتَ فإنما هي غضبة في الحق لا ضَغْن ولا بغضاءُ
الحرب في حقٍ لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
هل كان حولَ محمدٍ من قومه إلا صبي واحد و نســاء

وذكر هذا الطعنَ وجوابَه العلامةُ الآلوسي ابن المفسر الشهير؛ ولجزالة ألفاظه، وحسن ترتيبه، وعذوبة لفظه أحكيها بلفظه بحذف بعض الأجزاء. قال رحمه الله نقلاً عن العلامة الماوردي في كتابه دلائل النبوة: فإن قيل: مجيء الأنبياء موضوع لمصالح العالَم، وهم مأمورون بالرأفة والرحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالسيف وسَفْك الدماء وقتل النفوس، فصار منافياً لما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن الله بعث كل نبي بحسَب زمانه، فمنهم من بعثه بالسيف؛ لأن السيف أنجع، ومنهم من بعثه باللُّطف؛ لأن اللطف أنفع. كما خالف بين معجزاتهم بحسَب زمانهم، فبعث موسى بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطِّب، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن في زمان الفصاحة.

والجواب الثاني: إن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيراً، واللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شراً؛ لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية والحقوق الدينية، ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود ليستقر به الخير وينتفى به الشر؛ لأن النفوس الأشرة لا يكفها إلا الرهبة، فكان القهر لها أبلغ، وكانت العرب أكثر الناس شرًّا لكثرة عددهم وقوة شجاعتهم، فلذلك كان السيف فيهم أنفع من اللطف.

والجواب الثالث: أنه لم يكن في جهاده بدعاً من الرسل ولا أولَ من أثخن في أعداء الله. وقبل هذا إبراهيم عليه السلام جاهد الملوك الأربعة الذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها، وحارَبَهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه. وهذا يوشع بن نون قتل نيفا وثلاثين ملكاً من ملوك الشام وأباد من مُدُنها لم يبق له أثر ولا من أهلها سافر من غير أن يدعوهم إلى دين أو يطلب منهم إتاوةً وساق الغنائم. وغزا

داود من بلاد الشام ما لم يدع فيها رجلا ولا امرأة إلا قتلهم. وهو موجود في كتبهم (أي المسيحين التوراة والإنجيل)، ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء وحارب بعد الإباء.(١)

على أن المسيحيين الذي يدَّعون أن القتال ممنوع في دينهم، مع ذلك ترُاهم منهمكين في القتال، لا أقول قتالاً عادلاً، بل قتالاً يتضمن الظلم والعدوان على المخلوق، وإن شئت أن ترى أنموذج ذلك فاقرأ ما ذكر أحمد محمد الحوفي في كتابه «الجهاد» ويقول السير توماس أرنولادو: ربما حلّ الاضطهاد والتنفير الإجباري محلّ الدعوة الهادية إلى كلمة الله، حتى كان الملك أولاف ترايجنون ينشر الدين المسيحي في فيكن والقسم الجنوبي من الفرويج بذبح الذين أبَوا الدخول في المسيحية، أو بقطع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريديهم.(٢)

والجهاد في الإسلام جهاد عادل مثقف، فلا يجوز أن تتعدى الحرب إلى غير المقاتلين من النساء، والرهبان، والصبيان، والعسيف (أي الأجير)، ولا يخون ولا يغدر ويخالف العهد، وأن يكون لإعلاء كلمة الله، ورَدْعاً للمعتدي وكفًّا لعدوانه، وأن لا يظلمَهم ولا يَمْنعهم الماء والطعام، ولا يقتل سفيراً مستأمناً، وغير ذلك من الآداب المستحسنة.

فالحاصل أن دخول الناس في دين الله فوجاً فوجاً لصداقة الإسلام بالمعجزات والأخلاق الحسنة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بعثت لأُتَمِّم مكارم الأخلاق». الحديث.(٣) وقال الله تعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ

---

(١) الجواب الفسيح لرد عبد المسيح للعلامة نعمان الآلوسي البغدادي رحمة الله عليه. وأعلام النبوة للماوردي ١/١٧١.

(٢) الجهاد لأحمد محمد.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، رقم:٤٢٢١، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذي».(٢)

والقرآن أبلغ تاثيراً وأشد إبلاغاً، كما قال الوليد بن المغيرة: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِرٌ. وإن أسفله لَمُغدِقٌ، وما يقول هذا بشر.(٣) وللتبليغ حظ وافر في الإصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.(٤) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.(٥) أمر أولاً صلى الله عليه وسلم بتبليغ قبيلته وعشيرته وقومه. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(٦) ثم بإنذار من بمكة ومن حولها من القرى. قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.(٧) ثم بالتبليغ العامِّ لجميع الناس، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.(٨) وقال عزَّ وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.(٩) وانتهج النبي صلى الله عليه

(١) الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٢) أخرجه الترمذي ٢/٢١.
(٣) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٨٥.
(٤) آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٥) المدثر، الآية: ١-٣.
(٦) الشعراء، الآية: ٢١٤-٢١٥.
(٧) الأنعام، الآية: ٩٢.
(٨) سبأ، الآية: ٢٨.
(٩) الفرقان، الآية: ١.

وسلم وأصحابه على هذا المنهاج، فإن جعفر الطيار رضي الله عنه لما هاجر إلى الحبشة وعرض على ملك الحبشة أصحمة الإسلامَ بلّغ الإسلام تبليغاً تَحارُ منه العقول وتَبْهَتُ منه الفحول، فقال ما مغزاه: كنا مُتَهَوِّكِين في عبادة الأصنام والزنا وقطع الطريق والقاذورات والنجاسات والرسوم الذميمة والأفعال القبيحة، فبعث الله إلينا نبياً ينهانا عن ذلك كلّه ويأمرنا بحسن السلوك والهدي الحسن والتجنب من أكل الحرام، فَخَضَعْنا لهذه التعاليم المطهرة. ثم تلا آيات من سورة مريم، فبكي أصحمة وأسلم على يديه. (والله أعلم وعلمه أحكم)

ولله دَرّ من قال في الأردية، فقد أجاد وأفاد. شعر:

غلط بالکل غلط اسلام کیا تلوار سے پھیلا — یہ اپنے حسن سے اوصاف سے انوار سے پھیلا
یہ اپنے صدق سے اخلاق سے ایثار سے پھیلا — یہ اپنے جذب سے اخلاق سے اطوار سے پھیلا

شعر:

نہیں ہوسکتا تھا شمشیر زن سے حسن ظن پیدا — نہیں ہوسکتے تھے شمشیر سے شمشیر زن پیدا

الأخلاق وحقوق الإنسان في المسيحية والإسلام

ادَّعى المسيحيون أن الإنجيل يعلِّم حقوق الإنسان بِرُمَّتِها ويسدد طرق الكرامة والنجابة بطريق أعلى وأرقى وأوفى وأنصف وأطهر من القرآن و الإسلام. وإن تعاليم المسيحية توافق أمزِجة الأناس وطبائعهم وغزائرهم بخلاف القرآن، فالمسيحية تعلِّم أصول المساواة والأخوة والإنسانية، وتستبين مخايل المساواة من غصونها، وتلوح آثار العدل من جبينها، ولا يُحْرَمُ منها فرد ولا جماعة، يستوي فيه الغلام والحر، والفقير والموسر، والأعلى والأدنى، والعالم والجاهل، والناقص والكامل، والرجل والمرأة. ويلتجئون في إثباته إلى بعض عبارات الإنجيل ودونه خرط القتاد. منها: قول متى: «وأما أنتم فلا تدعوا سيِّدي سيدي؛ لأن معلِّمَكم واحد المسيح، وأنتم جميعاً إخوة».[1] " وأيضاً «تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء».[2] وقال يوحنا: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتُكم أنا، تحبون أنتم أيضاً بعضُكم بعضاً».[3] وقال: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا: أن يضع أحد نفسَه لأجل أحبائه».[4]

هذه نبذة من الإشارات التي أشار إليها البادري بركت الله في كتابه «مسيحت كى عالم گيرى»، «عالمية المسيحية» واعترض بذلك على القرآن، وهو متعالٍ عن أفق الاعتراض، بأنه لا يلقي ولا يعلِّم أصول المساواة إلا للطبقة المخصوصة، وهم المسلمون، وأشار في ذلك إلى بعض آيات القرآن الكريم مثلاً ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

---

(١) متى، ص٢٣، الآية: ٨-٩.

(٢) متى، ص٢٢، الآية: ٤٠.

(٣) يوحنا، ص١٣، الآية: ٣٤.

(٤) يوحنا، ص١٥، الآية: ١٢.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.[١] وذكر في ذلك بعض آيات الجهاد واتحاد المؤمنين واعتصامهم على حبل المودة، كقوله عزَّ وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.[٢] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.[٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.[٤] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.[٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾.[٦] وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[٧] هذا تقرير قَدْحهم في أصول القرآن، وطعنهم في بنية الإسلام.

كشف القناع عن هذه المساواة

لا يخفى على العالم الأريب والْمُحَنَّك اللبيب أنه لا يستفاد منه (الإنجيل) المساواة الإنسانية التي يدّعيها المصنف،ويُدَنْدِنُ حولَها، فإن الأقوال التي ذكرها لا تدل على المساواة كما هو الظاهر الزاهر، بل فيه تلقين الرَّحِم والوداد والمحبة والرقة بين المخاطبين، وهم المسيحيون فقط. بل المسيح عليه السلام ـ كما زعموا ـ قد شدَّد على الأجانب الأغيار، وإليك أنموذجاً مما هو غرر النقول عندهم، فقال متى:

---

(١) الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) التحريم، الآية: ٩.

(٣) الأنفال، الآية: ٣٩.

(٤) الأنفال، الآية: ٦٠.

(٥) الأنفال، الآية: ٦٥.

(٦) الصف، الآية: ٤.

(٧) البقرة، الآية: ٢١٦. توضيح البيان في أصول القرآن، ص١٩، بادري بركت.

«ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التُّخوم، صَرَخت إليه قائلة: ارحمني يا سيدَ يا ابن داود! ابنتي مجنونة جدا، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسَل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد! أعني. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب». [١]

هذه هي المساواة التي تدَّعونها، ألم تركيف فَرَّق بين بني إسرائيل وغيره، وقال: لم أرسل إليك، وردَّ حاجتها. ألا يصدق عليهم قول المسيح عليه السلام: «إنكم ترون القذاة في أعين الناس، ولا ترون الخشب في أعينكم». شعر:

واعظاں كيں جلوه بر محراب وممبر مى كنند   چوں بخلوت مى روند ايں كار ديگر مى كنند

ولا ينظرون أن المسيح عليه السلام (بقولكم) شبَّه المستجيرة بالكلب، هل تجد له مثالاً في مخاطبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاوراته؟ كلاَّ وحاشا! ثم كلاَّ وحاشا!

الرحم والوداد والأخلاق الحسنة في الإسلام

لا ريب أن القرآن والإسلام رغَّب في الرَّحم والوداد بين الشعب المختلفة، فأوجبها بين المسلمين. والأخبار والآيات فيها بكثرة لا يمكن إحصاؤها، وإليكم بعضَها، فاسمعوها وعوها، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. [٢] وقال عزَّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ

(١) متى، ص١٥، الآية: ٢١-٢٧.

(٢) الفتح، الآية: ٢٩.

بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.(٢) انظر إلى هذه الآيات، وقول المسيح عليه السلام: «تحب قريبك كنفسك». ترى فيهما فرقاً جلياً أبين من صديع الفجر. وقال محمد صلى الله عليه وسلم في محبة المؤمنين فيما بينهم: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أُظِلُّهم في ظلي يوم لا ظلّ إلا ظلي».(٣) وكان بعض المسلمين يصوم الدهر فنهاه.(٤) ولقد صدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.(٥) ورأى النبي صلى الله عليه وسلم شيخاً يُهادَى بين ابنيه فقال: «ما بال هذا ؟» قالوا: نذر أن يمشي إلى الكعبة . قال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسَه لغني». وأمره أن يركب.(٦) وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد».(٧)

ولما هاجر المسلمون من مكة ـ كرمها الله وحرسها ـ إلى المدينة ـ حفظها الله ـ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكان الأنصاريُّ يُشرك المهاجرَ في ماله، ويصدق قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.(٨) أي متحابين. وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.(٩) وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الترغيب في

---

(١) الأنفال، الآية: ٦٢-٦٣.

(٢) الحشر، الآية: ٩.

(٣) رواه مسلم في البرّ، باب في فضل الحب في الله، رقم:٤٦٥٥.

(٤) إحياء العلوم ٣/١٠٤. والحديث رواه البخاري في الصوم، باب صوم الدهر، رقم:١٨٤٠.

(٥) التبوبة، الآية: ١٢٨ .

(٦) رواه أبو داود في الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية، رقم:٢٨٧١.

(٧) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، رقم٣٤١٢، ٣٤١٣.

(٨) آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٩) آل عمران، الآية: ١٠٣.

الإخوة في الله: «من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة، لا ينالها بشيء من عمله».[١] وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي».[٢]

الرحم والرقة على الكفار

لا يختص الرحم في الإسلام بالمسلمين، بل يعم الكفار، وقد قال الله تعالى في حق حبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[٣] فالرسول رحمة للكفار كما هو رحمة للمسلمين. وقال عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.[٤] وقال في موضع آخر: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.[٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين. قال:«إني لم أبعث لعّانا وإنما بعثت رحمة».[٦]

والمزية التي اختُصَّتْ بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يرحم على كل مخلوق، حتى على الكافر المخالف. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».[٧] وقال عليه الصلاة والسلام في يهود بني عوف: «إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وإن بينهم النصر على من حارب، وإن بينهم النصح

(١) إحياء العلوم ١٧٢/٢.

(٢) إحياء العلوم ١٧٣/٢.

(٣) الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٥) حم السجدة، الآية: ٣٤.

(٦) رواه مسلم في البرّ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم:٦٧٧٨.

(٧) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، رقم:٦٩٤١.

والنصيحة والبر دون الاثم، وإن بطانة يهود كأنفسهم وإن النصر للمظلوم».(١) ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.(٢)

ورحم على النصارى ورقَّ عليهم بهذه الكلمات الطيبات: «لِنَجران جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعِهم، وأن لا يغيروا لما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا يغير كل ما تحت أيديهم من حقوق».(٣)

وسَمَّت بنت الحارث اليهودية شاةً مَشْوِيَّة وأكثرت في الذراع لحب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأخبره الذراع فلَفَظَه، ثم جمع اليهود وسألهم عن أمور. منها: «أجعلتم في هذه الشاة سَمًّا؟» قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك». قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. وجيء بالمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليّ». قالوا: ألا نقتلها ؟ قال: «لا». و لم يتعرض لها و لم يعاقبها.(٤)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «لا تجهزن على جريح ولا يُتَبَّعَنَّ مدبر ولا يقتلن أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن».(٥)

ولَمّا كان يوم فتح مكة قال النبي صلى الله عليه وسلم لقريش: «ما تظنون؟»

---

(١) رحمة للعالمين ٤٣٦/٢. وسيرة ابن هشام ٥٠٣/١.

(٢) المائدة، الآية: ٨ .

(٣) رحمة للعالمين ٤٣٦/٢. وسبل الهدى والرشاد ٤٢٠/٦.

(٤) زاد المعاد على هامش الزرقاني ٢٩٧/٣-٢٩٨. والحديث رواه مسلم في الطب، باب السم، رقم: ٤٠٦٠.

(٥) فتوح البلدان، ص٤٧ لأحمد بن يحيي البغدادي الشهير بالبلاذري.

قالوا: نظن خيراً، ونقول خيراً: أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدَرتَ. قال: «فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. ألا كل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلة فهي تحت قدمي إلا سِدانة البيت وسقاية الحاج».(١)

وانظر إلى الرأفة على أبي سفيان رضي الله عنه، وكان عدوًّا للنبي عليه الصلاة والسلام، قال ابن اسحاق: وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدُ الله بن أمية بن مغيرة قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنِيْقِ العُقَاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلّمته أمُّ سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله! ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهَتَكَ عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال». قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له فقال: والله ليأذنن لي أولأخذن بيدي بُنَيَّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتي نموت عَطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه رَقَّ لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.(٢)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عند توزيع الأسارى في غزوة بدر: «استوصوا بالأسارى خيراً». ومر النبي صلى الله عليه وسلم يومَ حنين بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد والناس متقصّمون عليها فقال: «ما هذا ؟» فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه: «أدرِكْ خالداً فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا».(٣)

(١) فتوح البلدان، ص٤٩. وسيرة ابن هشام ٢/٤١١.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٤٠١.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٥٨.

وانظر إلى رحمة نبيِّ الرحمة على الذين كانوا يؤذونه ليلاً ونهاراً، يلقون عليه سلا جزور وهو يصلي، ويحثون على رأسه التراب، ويطؤون عنقه وهو في الصلاة، ويقصدون أن يَّشدَخوا بالحجر رأسه، فروى أنس رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم مُتسلِّحين يريدون غِرَّة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم سِلْماً فاستحياهم. وفي رواية: أعتقهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾.[١] وأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمامة بن أثال بعد ثلاثة أيام فتأثر من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأسلم. والحديث بتفصيله مذكور في «المشكاة».[٢]

ولما منعت أسماء بنت أبي بكر أمَّها وكانت كافرة وأبت أن تُدخلها إلى البيت وأن تقبل هديتها، منعها النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الصنيع، كما روي عن أبي الزبير رضي الله عنه: نزلت هذه الآية الآتية في أسماء، وكانت أمها يقال لها قتيله جاءتها بهدايا فلم تقبلها حتى سألت النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾.[٣] وفي الصحيح قالت: يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم! صِلِي أمك».[٤]

هذه نبذة من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار ورأفته وشفقته ورقته، هل يمكن بعد ذلك لأحد أن يتفوَّه أن القرآن والإسلام والنبيَّ صلى الله عليه وسلم خصَّ حلمه وعفوه ورحمته على المسلمين؟ ومن قال ذلك فقد جاء ظلماً وزوراً. والحق أن النبي رحمة للعالمين، ورحمته عامة للكفار والمسلمين، والفجار والمتقين، ولمن خالف ولمن وافق.

---

(١) الفتح، الآية: ٢٤. ورواه مسلم في الجهاد، باب قول الله تعالى: وهو الذي كف أيديهم، رقم: ٣٣٧٣.

(٢) مشكاة المصابيح، ص ٣٤٤.

(٣) الممتحنة، الآية: ٨. تفسير الطبري ٣٢٢/٢٣.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري ٣٥٧/١ . والجامع الصحيح لمسلم ٣٢٤/١ .

طعنهم في آيات الجهاد

طعن المسيحيون وعلى رأسهم البادري بركت الله في آيات الجهاد وقال: إنها مانعة من التساوي بين الشعب المختلفة. وإنه لا يعلم أن القرآن يعلّم المساواة والبر والقسط في حالة الجهاد أيضاً. قال الله عز وجل: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.[١] وقال عزت كلمته: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.[٢] ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[٣]

ألم تر إلى هذه الآيات البينات الدالة على أن الإسلام لا يظلم أحداً، بل يعطي كلَّ واحد حقه، ويرحَم كل أحد مسلماً كان أو كافراً. ولعل البادري لم يلتفت لَفْتَة العجلان إلى قوله: ﴿اعْدِلُوا﴾. ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾. فإن تعليم البر والقسط والعدل والإنصاف في الإسلام بالكافر والمخالف للدين كما هو مع المسلم، من الأمور التي يعلمها صبيانُ المكاتب فضلاً عن فحول المذاهب. وإذا هجموا على المسلمين أو صاروا سَدًّا لبلاغ الدين القويم، فالجهاد والقتال ضدَّهم معقول حسن. والتوراة مشحونة منه على أن الإسلام أمر بالعدل والإحسان في أوان الحرب نفسها حين ينشب القتالُ، فأمر أن لا يقتَل الْمُعاهدُ والصغير والنساء والشيخ الكبير، كما مرّ مراراً.

---

(١) الممتحنة، الآية: ٨ .

(٢) المائدة، الآية: ٢.

(٣) المائدة، الآية: ٨.

عفو النبي صلى الله عليه وسلم وصبره وصلحه

وما قالوا: إن الإسلام عاطل عن حُليِّ العفو، فينبغي أن لا يلتفت إليه، فإن القرآن مشحون بترغيب العفو والصبر. قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.(٢)

فهذا أمر بالصبر على الشدائد والْمِحن والبلايا في أمر الدين المتين، وإرشاد للإقامة في الثُّغور رابطين للعدوِّ متربصين للجهاد. وقال عز وجل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.(٣) انظر إلى أمر القرآن في العفو. وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة رضي الله عنه وقد مُثِّلَ به فقال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأُمَثِّلَنَّ بسبعين مكانك». فنزلت ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.(٤)

ووصف الله المتقين بأنهم يخشون ربهم والذين هم يصبرون. قال عز وجل: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.(٥) وقال عزَّ وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.(٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٢) آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٣) الشورى، الآية: ٤٠.

(٤) النحل، الآية: ١٢٦-١٢٧ . بيضاوي ٤٧٣/١.

(٥) آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٦) حم السجدة، الآية: ٣٤.

يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.[١] وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر ويسمح ويصلح، حتى كان يحب الأسماء التي تدل على الصلح والمواطاة، فقد أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسميَ ابنه من السيدة فاطمة: حرباً، فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن الاسم الذي اختاره قال: حرب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بل هو حسن». ثم ولد له ابنه الثاني فسماه عليٌّ حربا، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه حسينا.[٢]

هذا ما علمت من صبر النبي صلى الله عليه وسلم وعفوه ورحمه على الكفار، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط إلا أن ينتهك حرمة الله فينتقم لله بها.[٣] وروي عن جابر رضي الله عنه أنه سئل عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة».[٤] بل جعل الصبر آية الإيمان ورايته، كما في حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال: «مؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله! قال: «وما علامة إيمانكم؟» قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء. فقال صلى الله عليه وسلم: «مؤمنون وربِّ الكعبة».[٥]

رحمته صلى الله عليه وسلم بالصغار والحيوانات

قد ذكرنا أن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم لا تختص بفرقة وشعبة وعصابة دون عصابة، بل غيث رحمته الْمِدْرار يعمُّ كل أرض جدباء، وفَوْحات أخلاقه ينتشر

(١) حم السجدة، الآية: ٣٥.

(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: ٧٦٩.

(٣) رواه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم:٣٢٩٦.

(٤) رواه أحمد، رقم:١٩٤٣٥.

(٥) إحياء العلوم ٤/٦٤-٦٥. والحديث رواه الطبراني في الكبير، رقم:٩٤٢٧. وفي الأوسط رقم:١١٣٣٦.

في كل بقعة نتناء. ومن ذلك رحمته وشفقته على الصغار، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه الأقرع بن حابس يقبِّلُ الحسنَ فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلْتُ واحداً منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم».(١) وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف عبدالله وعبيد الله وكثير بن العباس ثم يقول: «من سبق إليّ فله كذا وكذا»، قال: فيسبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم.(٢) ويجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المريض في أقصى المدينة.(٣)

ونختم الكلام على ما رواه أبو البختري رضي الله عنه قال: ما شتم رسول الله أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة، وما لعن امرأةً قط ولا خادماً بلعنة. وقيل له وهو في القتال: لو لعنتَهم يا رسول الله! فقال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثتُ رحمة».(٤) وكان إذا سُئل أن يدعوَ على أحد مسلمٍ أو كافر عامٍّ أو خاصٍّ عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له.(٥)

وكل هذه الأمور أسوة حسنة للأمة حيث قال عزَّ وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.(٦) وقال عزَّ وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.(٧)

---

(١) رواه مسلم، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال ٢/٢٥٤ .

(٢) مجمع الزوائد ٩/٢٠.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/١٢١.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم:٤٧٠٤.

(٥) إحياء العلوم ٢/٢٩٤-٢٩٥.

(٦) النساء، الآية: ٥٩.

(٧) الأحزاب، الآية: ٢١.

الحقوق الإنسانية في الإسلام

قد جعل أهل المسيحية نظام الرق في الإسلام هَدَفاً ومرمًى لسهامهم، فيقولون: هذا سلب الحرية الإنسانية ونفي المساواة التي يدَّعيها الإسلام، فإن العبد لا يقدر على ما يقدر عليه الحر، ولا يجوز نكاحه بدون إذن السيد، ولا ينفذ تصرفه إلا أن يُنفِذه المولى، ويُعرض للبيع كبيع الحيوانات في الأسواق والشوارع، وإذا كانت أمةً، يجوز تسرِّيها أي للسيد أن يخصها للجماع بدون نكاح، كما يدل عليه القرآن قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.(١)

قال البادري بركت الله: فالإسلام يفرق بين الحر والعبد، ولم يمح هذا الرسم القبيح والشر الشنيع عن وجه الدنيا وإن رغب الإسلام بأن لا يكلّفهم فوق طاقتهم، وجعل تحريرهم سبباً للثواب، لكن ليس مقصوده ومطلوبه إعفاء هذا الرسم من بسيط الغبراء، فالعبيد تشترى وتهدى وتورث، فلا تَنْزِلْ درجتهم عن درجة العجْماوات والأموال المنقولة، ولا يملك العبد شيئاً من الأشياء، وتنحط رتبته عن الأحرار بأن لا تقبل شهادته، ولو قتله أحد فلا قصاص عليه، بل تؤدّى قيمته، ولا يمكن له أن يتزوج بدون إذن مالكه. وقانون الرق موجود في السعودية العربية حتى الآن.(٢) انتهى قوله معرَّباً ملخَّصاً.

نظام الرق يوجد في مذهبهم

هذا طعنهم في هذا النظام المشروع في الإسلام، وهذا حُمق منهم وجهل، فإن هذا النظام الذي يتعقبونه مسطورٌ في كتابهم الذي أمِروا باتباعه، وهي التوراة التي

---

(١) المؤمنون، الآية: ٥-٦.

(٢) توضيح البيان، ص ٣٤-٣٥.

قال فيها متى: «فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكونَ الكلُّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناسَ هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلَّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات».(١)

هذا تصريح منه بأنهم مأمورون باتباع التوراة كما يقولون به، ومن أعرض عنه يستخف في ملكوت السماوات، وهذا الحكم أي الرق مذكور فيها، فاسمعه، قال: «إذا خرجت لِمحاربة أعدائك ودفعهم الرب إلهك إلى يدك، وسَبَيْتَ منهم سبيا، ورأيت في السبي امرأةً جميلة الصورة والتْصقتَ بها واتخذتَها لك زوجة، فحين تُدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها...».(٢)

وفي التثنية: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلُّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وسيتعبد لك، وإن لم تُسالِمْكَ بل عَمِلْتَ معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها منها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كلّ غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعداءك التي أعطاك الرب إلهك».(٣)

وقال بولس الرسول في رسالته إلى تيمورتاوس: «جميع الذين معهم عبيد تحت نير، فليحبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفتري على اسم الله وتعليمه، والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم؛ لأنهم إخوة، بل ليخدموهم أكثر، لأن الذين يتشاركون في الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون. علم وعِظْ بهذا ».(٤)

---

(١) متى، ص٥، الآية: ١٨-١٩.

(٢) التثنية، ص ٢١، الآية: ١٠-١٣.

(٣) التثنية، ص ٢٠، الآية: ١٠-١٥.

(٤) الرسالة الأولى لبولس إلى تيموتاوس، ص٦، الآية: ١-٢.

يشهد ما حكينا على أن السبي والرِّقَّ جائزان في شريعة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، كما في الإسلام، بل علم من رسالة بولس أن الأَرقّاء مكلّفون بإطاعة مواليهم وسادهم، سواء كان المولى مسلماً أو كافراً، ثم خَصَّص السادة المسلمين بعدم استهانتهم. وكان هذا النظام في اليهود واليونان والروما، وبعد ما جاء عيسى عليه الصلاة والسلام لم يبين الأحكام الواضحة والتسهيلات في العبيد ولا رغَّب في العتق، فبقي هذا النظام كما كان، حتى جاء ضوء الإسلام فكشف الظلام عن وجه هذا النظام. وستقرأ لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله تعالى.

وبالجملة أن الرق جائز في شريعتهم، فما هو جوابهم فهو جوابنا. شعر:

الجھا ہے پاؤں یار کا زلفِ دراز میں لو آپ اپنے دام میں صیاد آگیا

نظام الرِّقّ قبل الإسلام

لم يكن هذا النظام أول قارورة كُسِرتْ في الإسلام، بل الإسلام جاء والناس محفوفون بهذا النظام، وكان الرق في الجاهلية على أقسامٍ بيَّنه عبد الواحد الوافي: كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كثيرة متنوعة، أهمها سبعة روافد. أحدها: الحرب. وثانيها: الخطف والسبي. وثالثها: ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا. ورابعها: عَجز الْمَدِين عن دفع دينه. وخامسها: سلطة الوالد على أولاده، فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء. وسادسها: سلطة الشخص، فكان يباح للمعوِّز أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسَه لقاء ثمن معين. وسابعها: تناسل الأرقاء، فكان ولد الأمة يولد رقيقاً ولو كان أبوه حرا.[١] انتهى بحذف.

جاء الإسلام والرِّقّ في مثل هذا الترقي والتعلّي، بيد أن الإسلام سدَّ أكثر منافذه، بل لم يذكر القرآن الكريم الرِّق في الأسارى، إذ قال عز وجل: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ

(١) الإسلام نظام إنساني، ص١٢٦-١٢٧.

الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.(١) فسدَّ الإسلام أكثر الطرق و لم يجوز الرق إلا في الحرب أو الوراثة أو البيع، وقيّده بقيود تكاد تقضي على هذا النظام، وتقطع أوداجه، فلو جامع المولى بها تكون أم ولد وتعتق عليه بعد موته، ويكون ولده حراً، كما في الهداية. أو اشتراه وكان ذا رحم محرم منه يُعتَق عليه. أو كاتَبَه يصير عتيقا بعد أداء الكتابة. قال في البداية: وإذا كاتب عبده أو أمته على مال شرط عليه وقبل العبد ذلك صار مكاتباً ويعتق بأدائه، وإن لم يقل المولى: إذا أديتَها فأنت حر. وإذا ولدت الأمة من مولاها فقد صارت أمَّ ولد لا يجوز بيعها ولا تمليكها؛ لقوله عليه السلام: «أَعْتَقَها ولدُها».(٢) وإذا قال المولى لمملوكه: إذا مت فأنت حر، أو أنت حر عن دبر مني، أو أنت مدبر، أو قد دبرتك، فقد صار مدبَّراً، ثم لا يجوز بيعه ولا هبته ولا إخراجه عن ملكه، إلا إلى الحرية.(٣)

فقد تحقق بهذا أن الإسلام قيَّد الرق بقيود كثيرة وضيَّق حلقته، فإذا قال لعبده أو أمته: أنت حر أو عتيق، يعتق وإن لم ينو، أو أُكرِه، فالهزل والصواب والإكراه والرضاء والسُّكْر والصحو سواء، وهكذا جعل لهم طريق التحرير في الكفارات، فيحرر في كفارة اليمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.(٤) وفي كفارة القتل، فقال عزَّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.(٥) وفي كفارة الظهار، قال عزَّت

---

(١) محمد، الآية: ٤.

(٢) رواه ابن ماجه في الأحكام، باب أمهات الأولاد، رقم:٢٥٠٧.

(٣) الهداية، أولين ١/٤٧٢.

(٤) المائدة، الآية: ٨٩ .

(٥) النساء، الآية: ٩٢.

كلمته: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾.(١) وفي كفارة الإفطار في شهر رمضان، كما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال: هلكتُ. قال: «مالَكَ ؟»، قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟» قال: لا. قال: «هل تجد إطعام ستين مسكينا ؟» إلى آخر الحديث.(٢)

وقد جعل الإسلام تحرير الأرقّاء سبباً للأجرالعظيم والثواب الفخيم، قال الله تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه».(٤) وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه بنى له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمةً كانت فدية من جهنم، ومن شاب شَيْبَةً في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة».(٥) وأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد أوجب يعني النار بالقتل، فقال: «اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار».(٦)

فاستخلص أن الإسلام قَيَّد الرق بقيود كثيرة تكاد تقطع جَذْر هذا النظام، وهي الطرق المختلفة للإعتاق: ١-الكتابة، وقد رغَّب الله تعالى في ذلك فقال:

---

(١) الْمُجادلة، الآية: ٣.

(٢) رواه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان و لم يكن له شيء، رقم: ١٨٠٠.

(٣) البلد، الآية: ١١-١٣.

(٤) رواه البخاري في الأيمان، باب قول الله تعالى: أوتحرير رقبة، رقم: ٦٢٢١.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب المغازي، رقم: ٤٣٧١، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب العتق، رقم: ٢٨٤٤، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.(١) ورغَّب في إعطاء المال إياهم ، قال عزّ وجل: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.(٢) بل جاز أن يُصرف جزءٌ من الزكاة إليهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾.(٣) والمراد بالرقاب أن يعان المكاتبون فكًّا لِرقاهم. ٢-التدبير، يعني من دبَّر غلامه يعتق بعد موته بأن قال له: إن متُّ فأنت حر، أو أنت حر عن دبر مني، أو قد دبرتك. ٣-جرت على لسانه ألفاظ العتق. ٤-يعتق في كفارة اليمين. ٥-في كفارة إفطار الصوم. ٦-في كفارة الظهار. ٧- في سبيل الله من غير سبب. فبهذه الأسباب يعتق حظ كبير وقدر وافر من الأرقّاء.

الرفق بالرقيق والمساواة بالأحرار

أمر الإسلام بتحسين المعاملة بالأرقاء، فأمر بإحسان المملوك في ذيل الأمر بإحسان الوالدين وذوي القربى، فقال عزَّ وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾.(٤) فذكر «ما ملكت أيمانكم» وهم العبيد، في جنب الوالدين وذوي القربى، فالإحسان إليهم أمر عظيم أهم كالإحسان إلى الوالدين. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليُطعِمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا يكلِّفه من العمل ما يَغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فليعنه عليه».(٥)

---

(١) النور، الآية: ٣٣.
(٢) النور، الآية: ٣٣.
(٣) التوبة، الآية: ٦٠.
(٤) النساء، الآية: ٣٦.
(٥) رواه البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم: ٥٥٩٠.

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلاما لي فسمعت من خلفي صوتاً: «اعلم أبا مسعود! لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه». فالتفتُّ فإذا هو رسول الله، فقلت: يا رسول الله! هو حُرٌّ لوجه الله. فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار».(١)

وقد ضاعف الله أجر الغلام إذا أطاع الله وأطاع المولى وفاز في الاختبار، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعِمّا للمملوك إن يتوفاه الله بحسن عبادة ربه وطاعة سيده نعما له». وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين».(٢)

وقد ساوى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين ابن فاتح مصر وقائد جيشها وحاكمها العام (عمرو بن العاص) وبين غلامٍ قبطي، إذ تسابقا فسبق القبطيُّ ابنَ الحاكم فصفعه هذا وقال: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين، فلما رفع الأمر إلى عمر رضي الله عنه لم يرض إلا أن يصفح القبطيُّ ابن الفاتح الحاكم كما صفحه، وقال لعمرو بن العاص كلمته الذهبية المشهورة: «يا عمرو! منذ كم تعبدتم الناسَ وقد ولدتْهم أمهاتُهم أحراراً».(٣) وقصة عمر رضي الله عنه مع الغلام في السفر، والمناوبة على البعير مشهورة مِنْ قِفَا نَبْكِ، فتذكرها.

التساوي في التعليم

اعلم أن الإسلام لم يخص الأحرار بالتعليم والدراسة، بل حرَّض على تعليم العبيد والمماليك أيضاً ليكونوا كالأحرار في المعاملات والعبادات، فقال رسول الله

---

(١) رواه مسلم في الأيمان، باب صحبة المماليك، رقم:٣١٣٦.

(٢) رواه مسلم في الأيمان، باب ثواب العبد وأجره، رقم:٣١٤٦.

(٣) تفسير المنار ٦/٣٥٥.

صلى الله عليه وسلم: «رجل كانت عنده أمة يطؤها فأدَّبها، فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران».[١] وفي رواية أخرى: «أيما رجل كانت له جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران، وأيما عبد أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران».[٢] بل الرق كان رحمة على الأرقاء في الإسلام؛ لأنهم كانوا جاهلين كالأعراب، لا يعرفون شيئاً من السياسة الدينية والدنيوية، فصاروا بعد ما كانوا جهلاء: عالمين، رؤساء حاكمين، رواة الأخبار، فقهاء عاملين، كل ذلك يشهد عليه التاريخ.

الرق رحمة للمرقوقين في الإسلام

إنما يطعن المسيحيون في نظام الرق في الإسلام؛ لأنهم يقيسون نظام رقّ الإسلام على نظام رقهم، والرق فيهم أقبح وأشنع مَضَرَّةً وأشد نفرة، قال الشيخ حسن أفندي: كما كان (الرق) جاريا من زمن ليس ببعيد في أوربا إلى الآن في بعض ممالك أميركا، فيُضرب الرقيق فيها ويُهان، ويذوق الجوع والعرى، ويقيَّد كالبهائم، ويحمل من مشاق الخدمة ما لا يطاق، ويعد كأنه ليس من النوع الإنساني، لاسيما إذا كان أسود اللون، ولا يعد تحريره من مثوبات الدين، ولا يحرَّر إلا في نادر الأحوال.[٣]

وقال الشيخ عبد العزيز الشاويش ما حاصله: ثم إن أوربا جعلت لكنائسهم عبيداً، وأجازت للغير ذلك، وفيهم جمع كبير يعتقد الرق أمراً مرضيّاً، ويقولون: هو أفضل من السؤال وقطع الطريق.[٤]

---

(١) رواه البخاري، باب تعليم الرجل أمته وأهله ١/٢٠.

(٢) رواه البخاري، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ١/٣٤٦.

(٣) الرسالة الحميدية للحسن أفندي، ص ١٧٥.

(٤) الإسلام دين الفطرة بالأردوية لافتخار أحمد، ص١٦٦.

وقال ـ ما خلاصته ـ: يجب أن يلاحظ ههنا أمر، وهو أن أقبح أقسام الرق كان في أمريكا الشمالية، مع أنها ذات علم كبير، ويسبقون في التمدن على أقوام وشعوب أُخر، لكن العدد الكبير منهم يعتقدون العقيدة العتيقة في الرق، فإن الجنس الأبيض منهم يجعلون الجنس الأسود عبيداً، بل لأولاد البيض فيهم حق بيع أمهاتهم.(١) لكن الإسلام ليس كما يزعمون، بل هو دين العدل والرفق والرقة، إنما الرق يوجد فيه اسمه ورسمه لا حقيقته، ولذا نادى الإسلام بالمساواة بين جميع الشعب والأُسرات، وإنما التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، كماقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(٢) بل جعل الإسلام الرقيق مساوياً لمولاه في الأكل والشرب واللباس، فترى الغلام والسيد في الإسلام قائمَين في صف واحد في الصلاة، مساوئين في الفرائض.

والآن نحقق أن الإسلام قد أحسن إلى المماليك حيث جعلهم عبيداً. لكن نقدِّم لك أولاً أن الإسلام لم يفرض على المسلمين أن يرقِّقوا أُسرائهم، بل لهم الخيار في أخذ الفدية والمال، أو الإطلاق مجاناً، أو جَعْلهم عبيداً. واستمع بعد هذا أن الأُسراء في الجهاد إذا قبض عليهم المسلمون يُجَوِّزُ العقل فيهم أربعة طرق: إما أن يطلقوهم، أو يأخذوا الفداء، أو يأسروهم في السجن، أو يجعلوهم عبيداً، والإطلاق مَجّاناً ربما يكون مُضِرّاً بالمصالح الدنيوية، وفيه تشجيع للعدو على أنفس المسلمين كما هو الظاهر، وإن كان جائزاً شرعاً. وأخذ فدية النفس قد لا يمكن العمل به بأن يكون أسرائهم كثيرين وأسراؤنا فيهم قليلين، فتفوت المساواة المطلوبة. والثالث: أي جعلهم في السجن يكون ثقيلا على كاهل الحكومة، فالأنفع الأفيد أن يقسموا بين الغانمين، لا تقسيم الحيوانات، بل يكون كل منهم ركنا في البيت ويُطْعَم مما يُطْعَمُونه

(١) ترجمة الإسلام دين الفطرة.

(٢) الحجرات، الآية: ١٣.

ويُلبَس مما يَلْبَسُونه ويُحفظ من شدائد السجن، ويطوف كالأحرار في الأسواق والطرق والشوارع ويتعلم، ويصير سيِّداً بعد جهله ورقِّه، وهذا كثير تشهد عليه الأوراق الذهبية التاريخية. فانظر إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه كان رقيقاً، ثم أُعتِقَ وجعله النبي صلى الله عليه وسلم قائد الجيش في مؤتة. وصار كثير منهم أمراء. ويجوز له أن يتزوج بابنة المولى، وهذا كثير إذا رضي أخلاقه وأعماله وآدابه وسيرته وهديه، فيصير سيدا بعد ما كان مغلَقاً في سلاسل الرق.

ولو أُسِرت النساء الكثيرة، فالأصلح لهن أن يقسمن بين الغانمين ويصرن زوجات لهم أو سريات وأمهات أولاد، خصوصاً إذا قُتِل أزواجهن وبقين وحيدات متفردات باكيات متضرعات.

فالحاصل أن الشرع جعل لهم حقوقا تساوي حقوق الأحرار، فهو ينكح الحرة والأمة كما ينكحها الحرُّ، ويجب القصاص بقتله سواء قتله الحر أو العبد، ويُقتص في أعضائه كما يقتص في أعضاء الحر. وأما بيع العبد فليس إلا الانتقال من يد إلى يد أخرى ليس فيه إهانة ولا استخفاف، بل إذا كان العبد مثلاً غيرَ مطيع باغياً لا يطيع من هو تحت ظلِّه، ينتقل من يده إلى يد أخرى، وهذا ليس كبيع الحيوانات؛ فإن العبد إنسان كأناس أخر، حقوقه كحقوق إخوته من الأحرار، فليس هذا إلا كنقله أو انتقاله من بلد إلى بلد آخر لعله يوافق مزاجه، وليس كالحيوانات لها مكان على حِدةٍ ومأكل ومشرب مُفرَز ويُضرب ويقاد في الشوارع والسِّكك، على أن الكفار لما أنكروا وأعرضوا عن إطاعة الله تعالى وقبول أحكامه جعلهم الله عبيد العبيد، وهذا الأمر أخف في حقهم؛ لأنهم لو قُتِلوا أو عُدِموا لم يكن أوفق بهم وأصلح لهم، وقد شهد التاريخ على أن العبيد صاروا علماء وصلحاء وقضاة وشهداء وفازوا بالمناصب الجليلة والمراتب العظيمة.

حقوق النساء في الإسلام والمسيحية

من مطاعن المسحيين في الملة الحنيفية السَّمحة البيضاء مسئلة حقوق النساء وحُرِّيَّتهن، فإنهم يطعنون أن المرأة في الإسلام ضعيفة مظلومة ليس لها عِماد. يظلم من ناحية الحجاب، فالرجال يمشون في الأسواق يسيحون في كل ميادين الحياة، والمرأة تلازم بيتها، بل بيت زوجها كالحلس لا يمكن لها أن تخرج من بيتها إلا أن يأذن لها زوجها، فكأنها مقيَّدٌ زمامها في يد الرجل. ومن جهة الإرث فإرثها نصف إرث الرجل. ومن جهة الطلاق فلا تستطيع أن تطلق الرجل وتخلص نفسها من يده كما أن العكس جار وسار، شائع وذائع. ومن ناحية قيام الشهادة، فجَعَلَها ناقصة العقل تساوي شهادةُ ثنتين منهن بشهادة واحد من الرجال. ومن جهة القيام وتدبير الأسرة، فالرجل يُدبِّر الأسرة والبيت، والمرأة محكومة خادمة البيت.

وقام البادري بركت الله بهذا الرد والطعن غير مرة في كتبه. وأقدِّم إليك خلاصة ما قال في توضيح البيان، قال: الأحكام القرانية تخالف مساواة الرجل المرأة، يعني الإسلام فَضَّل الرجال على النساء، حدَّد القرآن للنساء حداً خاصاً لا يتجاوزن عنه، ونتيجتها التنزُّل والانحطاط. وقد أكد القرآن للنساء أن يحجبن، حيث قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى﴾.[١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.[٢] وقد بغى مُسلِمُو هذ الزمان على هذا الحكم و لم يُلقو له بالاً.

(١) الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) الأحزاب، الآية: ٥٣.

ثم حقق بزعمه وقال: إن المرأة في الجاهلية وإن كانت أحطّ درجة وأنزل رتبة، والإسلام عزّزها ورفع قدرها قليلاً، لكن الكلام ليس في المقارنة بعهد الجاهلية، بل المطلوب أن يرى أن الإسلام كيف وكم رَفَع قدرَها في مقابلة المسيحية ليكون مذهباً عالمياً. كانت النساء تباع في الجاهلية بأداء المهر، والإسلام قرَّر هذا القانون فيتزوجن بأداء روبيات معدودة، وتصير محكومةً. ولذا قال في القرآن: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.[١] إلى أن جاء في الحديث «لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن يسجد لزوجها». فالقرآن يصرح بانحطاط رتبة النساء ويقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.[٢] وتنشرح فضيلة الرجل على المرأة من قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.[٣] يظهر من هذه الآية أن رتبتهم أعلى وأعز من رتبتهن. وكذلك في الإرث حيث قال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾.[٤] وفي الشهادة تساوي اثنتان منهن بواحد منهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.[٥] ولا توجد في القرآن شرائط للطلاق، بل الرجل مختار ومطلق العنان في أمر الطلاق، وليس للمرأة حظ منه. ويرخص القرآن الرجل أن يضرب امرأته، بل قال القرآن: إن المرأة محل شهوة الرجل وحرثه، كما قال عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.[٦] والقرآن نَقَّص درجة النساء حتى جعلهن في الجنة أداة لتسكين الشهوة و إخمادها، كما قال

---

(١) النساء، الآية: ٣٤.

(٢) البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣) النجم، الآية: ٢١-٢٢.

(٤) النساء، الآية: ١١.

(٥) البقرة، الآية:٢٨٢.

(٦) البقرة، الآية: ٢٢٣.

في القرآن: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.(١) وفيه أيضاً: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.(٢) وفيه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.(٣)

ولم يقتنع بهذا، بل طعن في سائر نعيم الجنة، فأنهار اللبن والشراب والعسل والماء في نظرهم أمور خيالية يتمسخرون بها، كما قال البادري بركت الله: الجنة عند المسلمين مقام يعطى فيه للشهوات النفسانية حظُّها الأوفر. ونقل بعض الآيات القرآنية في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.(٥) ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾.(٦) وكتب في الآخر هذا الشعر:

چهار چیز که غم می برد کدام چهار ... شراب وسبزه وآب رواں وروئے نگار

هذه خلاصة ما تفوَّه به النصرانيُّ بالأردية وأتى بالهذيان، وقال ما لا ينبغي له أن يقول.(٧) والآن اسمع رد كل هفوة من هفواته لتكون على بصيرة ويقين بأن الإسلام باقةُ الْمَحاسن والفضائل.

---

(١) البقرة، الآية: ٢٥.

(٢) الدخان، الآية: ٥٤.

(٣) الرحمن، الآيات: ٧٠-٧٥.

(٤) الحجر، الآية: ٤٧-٤٨.

(٥) الحج، الآية: ٢٣.

(٦) الطور، الآية: ٢٢.

(٧) توضيح البيان في أصول القرآن، ص٣٦-٤٢.

حقوق النساء في دين الإسلام - نضّره الله إلى يوم القيامة

قبل أن نبين حقوق النساء في الإسلام يحرى أن نذكر شأن المسيحية في النساء، فالحق أن المسحية جعلت المرأة مبدأ كل شر ومركز كل طعن، فتنطق التوراة بأن آدم أخطأ وأخرج من أجل زوجته، وهكذا بثت الإثمَ الأصليَّ في العالم، و لم يمكن لشيء أن يُكفره إلى أن جاء المسيح فكفّر. وهذا تنطق به التوراة قال: «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بَهْجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلَها أيضاً منها، فأكل».[1] بخلاف القرآن، فإنه نسب العصيان إليهما، والإزلال إلى الشيطان. إذ قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.[2] ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾.[3]

وقد أثبتت التوراة سُؤدَدَ الرجل على المرأة فقال: «وقال للمرأة تكثيرا: أكثر أتعاب حملك بالوجع، تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك».[4] بل وجع بنات آدم من السيادة حين الحمل أي المخاض بسبب الإثم الصادر منها، ونساء بني آدم عندهمّ يتألمن بإثم أمهن، فانظر إلى هذه القضية التي ليست معقولة؛ إذ كلهن يتحملنّ جزاء إثم لم يفعلن و لم يرتكبن. ثم يطعنون في الإسلام بأن الإسلام لا يعطي النساء حقوقهن. والمسيحيون عديموا الحياء إذ يدَّعون المساواة الإنسانية ولا ينظرون إلى ما قال إلههم المسيح اليسوع للمرأة التي جاءت مستجيرة عنده تقول: ارحمني يا سيد! يا ابن داود! ابنتي مجنونة جداً، فلم يجبها

---

(١) تكوين.

(٢) البقرة، الآية: ٣٦.

(٣) الأعراف، الآية: ٢٠.

(٤) تكوين، ص٣، الآية: ١٦.

بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها؛ لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خِراف بيت بني إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلةً: يا سيد أعني، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب.الخ.(١)

في هذه الآيات أمور فالتفت إليها: ١- الصمت والسكوت في معرض الجواب، وبه يتضجر قلب الإنسان السائل وينكسر. ٢- ردها بأنه لم يرسَل إلا إلى بني إسرائيل مع أنه قضى حاجتها بعد ذلك. ٣- تشبيه المرأة بالكلب.

ثم انظر إلى عمل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث خصَّص للنساء يوماً يُعلِّمهن، كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غَلَبَنا عليكَ الرجالُ فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوَعَدَهُنَّ يوماً، لقيهن فيه فوعظهنَّ وأمرهن فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدِّم ثلاثةً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار». فقالت امرأة: واثنين. فقال: «واثنين».(٢) وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كانت في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.(٣)

أعلن الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة في كثير من الأشياء، يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(٤) وقال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.(٥) فذكرهن بجنب الرجال و لم يخصهم بالذكر. وروي عن أم سلمة رضي

---

(١) متى، ص١٥، الآية: ٢١-٢٥.

(٢) رواه البخاري في العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في التعليم، رقم:٩٩.

(٣) رواه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس...، رقم:٤٢٩٣.

(٤) الحجرات، الآية: ١٣.

(٥) النساء، الآية: ١.

الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء، فنزلت: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.(١) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.(٢) وقد أحسن الله إلى النساء حيث جعل في القرآن سورتين تسميان باسمهن لكثرة ذكر أحكامهن فيهما. إحداها: سورة النساء الكبرى. والأخرى: سورة النساء الصغرى، وهي سورة الطلاق. مع أنه بُيِّنت أحكامهن في سور أخرى أيضاً. ومع هذا يزعم الزاعمون أن الإسلام أسقط منْزلتها، والحال أن الرجال كما يستحقون الحقوق عليهنَّ كذلك هن يستحقن الحقوق عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾.(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النساء شقائق الرجال».(٤)

مساواة المرأة الرجل في مُعظم الأحكام

قد سوَّتْ شريعتُنا الشريعة الإسلامية في معظم الأحكام بين الصنفين: صنف الرجال وصنف النساء، فالعبادات كما هي واجبة على الرجال، واجبة على النساء، كالصلاة والصوم والزكاة والحج والسنن والآداب والحياء والرفق والعدل والكرامة وحسن الخلق وأداء الحقوق وغيرها. وسوّهما في الإكرام والتعظيم والإحسان إليهما قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.(٥) بل الإحسان إلى الأم آكد من الإحسان إلى الأب، كما تشهد به الأحاديث النبوية، فعن

(١) آل عمران، الآية:١٩٥.

(٢) النساء، الآية: ١٢٤. بيضاوي ١٧١/١، طبع مصر.

(٣) البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٤) سنن الترمذي، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللا ولا يذكر احتلاما ٣١/١.

(٥) النساء، الآية: ٣٦.

أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال ثم من؟ قال: «أبوك». وفي رواية قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك، ثم أدناك، ثم أدناك».[(١)] بل لو كانت كافرة ينبغي أن يُحسن إليها، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدِمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أن أصلها، قال: «نعم صِليها».[(٢)]

فعلم أن الإسلام آكَد الإحسان إلى الأم لما تحملت مشاقّ الحمل والإرضاع والحضانة والخدمة وغيرها، وهكذا تساوي الرجل في المعاملات، فالمعاملات التي تجوز للرجال جائزة للنساء كالبيع والشراء والوكالة والكفالة والإقالة وغيرها.

وبالجملة جميع معاملاتها صحيحة ولا يأبى عليها أحد في ذلك. وهكذا تساويه في أمور الآخرة، فإن كانت مسلمة مخلصة تجب لها الجنة، وإن كانت كافرة مشركة تجب لها النار، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.[(٣)]

وبالجملة المعاصي في حقها كالمعاصي في حقه، والأعمال الصالحة في حقها كالأعمال الصالحة في حقه. فهما سواسية فيما أُمِرا وما نُهيا إلا ما ندر ونذر، هذا والعلم عند الخالق القوي القدير.

حق التعليم للمرأة

أعطى الإسلام للمرأة حق التعليم بحيث لا تتجاوز عن حدود نسوانية، إذا لم تخرج من الحجب النسوانية الواجبة إلى ملاهي الأسواق والشوارع، ولا تختلط

---

(١) رواه الترمذي في البر، باب ما جاء في برّ الوالدين، رقم:١٨١٩.

(٢) رواه البخاري في الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم:٢٩٤٦.

(٣) النحل، الآية: ٩٧.

بالرجال ولا تتخلّى بهم، وتَغْمُر في أفعال تكون لائقة بها مُمِدَّةً في شؤون حياتها. وكانت الصحابيات عالمات يرجع إليهن المسلمون في كثير من المسائل، وقد رغّب النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الجواري كما مضى. وقال البلاذري رحمه الله: كانت حفصة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي صلى الله عليه وسلم تكتب، وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقرأ المصحف ولا تكتب. وقال بسنده: إن النبي صلى الله عيه وسلم قال للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب: «ألا تُعَلِّمِين حفصة رُقْية النملة كما علمتيها الكتابة».[١] وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية.[٢]

وكانت فاطمة بنت محمد علاء الدين السمرقندي زوجة العلامة الكاساني صاحب «بدائع الصنائع» تفقّهت على أبيها، وحفظت «التحفة» تصنيف أبيها. قال ابن العديم: حكى والدي أنها كانت تنقل المذاهب نقلاً جيداً، وكان زوجها الكاساني ربما يهم في الفتيا، فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطا، فيرجع إلى قولها. قال: وكانت تفتي، وكان زوجها يحترمها ويُكرمها، وكانت الفتوى أولاً يخرج عليها خطها وخط أبيها السمرقندي، فلما تزوجت بالكاساني صاحب «بدائع الصنائع» كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة.[٣]

وبالجملة يجوز لها أن تتعلم الإكساب التي تناسبها مثل الخياطة والتطريز والتطبيب والتعليم وآداب الجهاد. قال ابن عابدين نقلاً عن الخير الرملي: لو استغنت الأنثى: بنحو خياطة وغزل يجب أن تكون نفقتها في كسبها كما هو ظاهر، ولا نقول: تجب على الأب مع ذلك، إلا إذا كان لا يكفيها فتجب على الأب كفايتها بدفع القدر المعجوز عنه، و لم أره لأصحابنا. ولاينافيه قولهم: بخلاف الأنثى؛ لأن

(١) رواه أبو داود في الطب، باب ما جاء في الرقى، رقم:٣٣٨٩.

(٢) فتوح البلدان، ص٣٧٧-٣٧٨.

(٣) الجوهر المضية، في باب النساء ٢ /٢٧٨ لعبد القادر القرشي.

الممنوع إيجارها، ولا يلزم منه عدم الزامها بحرفة تعلمها. وقال بعد ذلك: وعليه فله دفعها لامرأة تُعلِّمها حِرفة كتطريز وخياطة.(١)

التساوي في الجهاد

سوَّى الإسلام بينهما في الجهاد، فرخَّص أن تخرج للجهاد كما يخرج، بل يلزم عليها إذا كان النفير عامّاً. وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأم حرام بنت ملحان أن يجعلها من الغزاة. فخرجت للجهاد واستُشهدت في سبيل الله تعالى. والحديث بتفصيله مذكور في البخاري في مواضع مختلفة.(٢) وقد عقد البخاري رحمه الله تعالى باباً لغزو النساء وقتالهن مع الرجال. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُقرِع بين نسائه عند خروجه إلى الجهاد.(٣) وعن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد رأيت عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر رضي الله عنه وأمَّ سليم رضي الله عنها وأنهما لَمُشَمِّرتان، أرى خَدَمَ سوقهما تُنقِزان القربَ. وقال غيره: تَنقُلان القرب على متونهما، ثم تُفرِغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملئانها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم . وعن الربيع بنت معوذ قالت: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نسقي الماء ونداوي الجرحى ونرد القتلى إلى المدينة.(٤)

وفي عهدنا هذا أيضا ينبغي أن تُعِدَّ للحرب وتَعلم طريق الْمُحاربة حتى لو كان في إقليمٍ قلةُ الرجال يكن مُمِدّات لهم وعونا، لكن كل ذلك يجب أن لا يكون متجاوزاً عن الحدود المقدَّرة لها في الإسلام.

---

(١) رد الْمحتار المشهور بالشامي ٦١٢/٣.

(٢) منها في باب الدعاء بالجهاد، رقم: ٢٥٨٠.

(٣) راجع: الجامع الصحيح للإمام البخاري، باب حديث الإفك، رقم:٣٨٢٦.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، رقم:٢٦٦٧. وباب مداواة النساء الجرحى في الغزو، رقم:٢٦٦٩.

المرأة في الأمم المسيحية

يناسب أن نذكر حال المرأة في الأمم المسيحية لينكشف أن المسيحيين كاذبون في دعوى حماية النساء وتساويهن بالرجال في المذاهب المسيحية، وليظهر أن المسيحية ليست محافِظة لحقوقهن. قال القديس ترقوليان: إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ناقضة لنواميس الله، مشوِّهة لصورة الرجل.

ولما دخلت أمم الغرب في المسيحية كانت آراء رجال الدين قد أثَّرتْ في نظرهم إلى المرأة، فعقد الفرنسيون في عام ٥٨٦ الميلادي (أي في أيام شباب النبي صلى الله عليه وسلم) موتمراً للبحث: هل تعد المرأة إنساناً أم غير إنسان؟ وأخيرا قرروا أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب. ومن الطريف أن نذكر أن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥ كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وقد حدَّد ثمن الزوجة بستة بنسات «نصف شلن ربع ليرة سورية».(١)

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص ٢٠-٢١. للدكتور مصطفى السباعي.

بعض الفوارق بين الرجل والمرأة

الإسلام وإن سوّى بين كلا الصنفين، لكن وجد بعض الفوارق بينهما لمصالح وحكم وفوائد، ستحيط بها إن شاء الله تعالى.

الفرق في الشهادة

فشهادة اثنتين منهن تساوي واحداً منهم، وهذا ليس إسقاطاً لكرامتها وتنقيصاً لها، بل مبنيٌّ على مصالح اجتماعية.

الأولى: إن المرأة تكون مشغولة بأشغال بيتها وتربية أولادها وشؤون أسرها، ولهذا لا تشتغل بالمعاملات الدنيوية من البيع والشراء. وما لا تشتغل به لا تحرص على ذكره ولا تبالي به، فاحتمال النسيان والخطأ والذهول أقوى. والشهادة لا بد فيها من التثبت والاحتياط، فلذا جبرنا رأيها برأي الصاحبة ليكون الرأيان كالحبل المتين، وتقوى الشهادة، ويحمو أثر الذهول والنسيان.[1] وقد اعتُبِرت شهادتها وحدها في مسائل لا يطلع عليها الرجال كالولادة والبكارة كما قال المرغيناني في الهداية: «ويقبل في الولادة والبكارة والعيوب بالنساء في موضع لا يطلع عليه الرجال شهادة امرأة واحدة».[2] فلو كان هذا تنقيصاً لها وإسقاطاً لكرامتها وإنسانيتها لم تقبل ههنا.

الثانية: إن القوى الإدراكية للرجل تكون قَوِية حساسة بالنسبة إلى المرأة، بل أعضاء المرأة التي تشابه أعضاء الرجل ظاهراً تختلف عنها في القوة.

وبالجملة: المرء قوي بالنسبة إلى المرأة في الإحساس والإدراك والعضلات والحواس الخمسة، وقد بين هذا العلامةُ الفريد وجدي رحمه الله تعالى في كتابه «المرأة

(١) ملتقط من المرأة بين القانون والفقه، ٣٢.

(٢) الهداية ٣/١٥٥.

المسلمة» بشهادات علماء التشريح .من شاء فليراجعه، وترجمه بالأردية الشيخ الزعيم السياسيُّ الكبير مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله، وسماه بـــ «مسلمان عورت». ولما كانت قواها ضعيفة طبْعاً ضُمَّ إلى رأيها رأي أختها؛ ليتقوى الشهادة ويحصل المطلوب بلا ريب.

الثالثة: إن جهة الْحَنان والعاطفة والانفعال قوية فيها، وكثيرا ما تنسى لغلبة جهة الانعطاف والرعب عليها ونقصان التفكير والإدراك، فلذا أجبِر رأيها برأي مثلها، وصارت شهادتها كشهادة واحد منهم، ولهذا لم تقبل شهادتها في أمور خطيرة مُهلِكة كالحدود والقصاص، وأيضاً التزكية أمر مقصود في الشهادة وتسهل حين تكون امرأة بجنبها.

الفرق في الميراث

وهكذا فرَّق الإسلام بينهما في الإرث، فإن حظه يكون مثل حظ المرأتين، وهذا هدف ثانٍ للطاعنين الجاهلين، ولكن فيه أيضاً مصحلة عظيمة، فإن المرأة بطبعها مجبولة على تكثير النسل وحفاظته، ويتعرض لها مشاكل ومصائب ترتَعِد منها الفرائص وتهاب منها القلوب، وهي الحمل ووضعه والرضاعة والحضانة وترتيب أمور البيت وتنسيقها، وكل منها مشقة كبيرة لا تتفرغ بسببها لاشتغالٍ آخر، ولهذا جعل الشرعُ نفقتها قبل النكاح على أكتاف الأب أو غيره من الأقارب لضعفها واشتغالها بأمور البيت، وبعد النكاح على أكتاف الزوج، لتكون فارغة للأشغال الْمَجبولة عليها، وعلى هذا ليست لها حاجة إلى المال، فإن كفالتها ونفقتها ومسكنها وكسوتها على الرجل، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾.[1] ومع ذلك أعطاها الإسلام نصفَ ما يعطَى للرجال، وفرض لها المهر، وقد يكون مالا كثيراً. وإذ نظرنا إلى حظّها وحصتها نرى أن المرأة أسعد حظاً من الرجل، فالرجل يأخذ الحظ الكامل، لكن يُنفق منه على نفسه وزوجته وأولاده ويؤدي المهر فينقص

(١) الطلاق، الآية: ٧.

ماله، بل قد يفنى. والمرأة كل مالها محفوظ، على أن هذا الحكم ـ أي زيادة حظ الرجل ـ ليس عامًّا شاملا، بل في بعض الصور يكون حظها مساوياً لِحَظِّه، كما في الأخوات لأم إذا اختلطن بالإخوة، ففي هذه الصورة يستوي الفريقان، ويكون لها مثل ما يكون له سواءً بسواء. وكما إذا ترك ابناً وأبوين يأخذ كل واحد منهما السدس. قال الشيخ سراج الدين: وأما لأولاد الأم فأحوال ثلاث: السدس للواحد، والثلث للاثنين فصاعداً، ذكورهم وإناثهم في القسمة والاستحقاق سواء.(١) بل قد يكون حظها أزيد من حظه، كما إذا ترك بنتا وأبوين، يكون لها النصف ولهما السدس، فيكون حظ البنت زائداً على حظ الأب. وصورته هكذا:

زيد ميت

٦

بنت	أب	أم
٣	٢	١

فمسألة الميراث ليست نقصاً في الإنسانية، وإلا تكون إنسانيتها في الصورة الأخيرة أوفى وأحظى من إنسانيته، بل نقول: المفهوم من سِفر أيوب عليه السلام أن الأخوات لا تستحق الإرث مع الإخوان، حيث قال: «ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض، وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين إخوتهن».(٢)

يقترح الفَطِن الذكي من هذه العبارة أن أيوب عليه الصلاة والسلام أحسن إلى البنات إذ أعطاهن مع البنين وإن كن غير مستحقات. والله أعلم.

والعجب أن النصارى مع ادِّعائهم عالَمِيَّة المسيحية لا توجد فيها أحكام الميراث. قال العلامة الآلوسي: ومن أعظم الأدلة على أن الإسلام هو الحكم الإلهي مسئلة الفرائض وتقسيم المواريث، فإن اليهود يقسمون تركة الميت حسبَ شريعتهم،

---

(١) سراجي، ص٦.

(٢) سفر أيوب، ص٤٢، الآية: ١٥.

والنصارى ليس لهم أحكام شريعة في ذلك، بل يرجعون في تقسيم تركات موتاهم على ورثتهم إلى المسلمين، ويستفتون على مقتضى الشريعة الْمُحمّدية، فَيُفْتَون. وليت شعري قبل مجيء الشريعة الإسلامية كيف كانوا يفعلون في ذلك؟ فإن كانوا يقسمونها على ما تقتضيه شريعة موسى عليه السلام، فَلِمَ عدلوا عن ذلك، وإن لم يقسموها على حكم التوراة، فكيف كانوا يفعلون؟ إذ الإنجيل ليس فيه من الأحكام إلا الشيء اليسير كرفع حكم السبت، وأكل كل شيء، وعدم جواز التطليق، ونحو ذلك من الأمور القليلة بزعمهم!!![1]

الفرق في رئاسة الأسرة

وهكذا فرَّق الإسلام بينهما في رئاسة الأسرة، فالرجل رئيس الأسرة وقَيِّمها، وهذا الطعن للمسيحيين والمستشرقين. والعجب أنهم يستنكفون عن رئاسة الرجل مع أن التوارة صرَّحت بسيادة الرجل على المرأة كما في الأصحاح الثالث من التكوين: «وجعل الرجلَ صاحبَ محنة ومشقة يُمْحَنُ ويؤكل المرأة». ومع ذلك يطعنون في الإسلام، وهل هذا إلا التعامي والتجاهل. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وفيه مصالح وحكم وفوائد: **أحدها**: أن الله أعطى الرجل قوة زائدة على المرأة في العضلات والجسامة والقامة والثقل والعقل، كما مرت لَمْعة منه. فالمعقول أن يكون حاكماً عليها لقوة في جسمه وتفكيره وتدبيره.

قال الدكتور دوناريني في انسائيكلوبيديا (دائرة المعارف): فعضلات الرجل يختلف من عضلاتها، فإن عضلاتها خفيفة بحد لو قُسمت عضلات الرجل ثلاثة أجزاء كان الجزءان حظّه والواحد حظها، وهكذا حركة عضلاته سريعة بالنسبة إلى حركة عضلاتها.[2]

---

(١) الجواب الفسيح، ص٢٣٧.

(٢) المرأة المسلمة (*سلمان عورت*).

وأشارت القرآن الكريم إلى مصلحتين أُخْرَيَيْن لِقِوَامه على الأسرة في هذه الآية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.(١) فقوله عزَّ وجل ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ يشير إلى أن القِوام لفضيلته وميزاته، وذلك لأن ميلان الرجل ورجحانه إلى التفكير الكامل وترتيب الأمور، ورغبتها إلى الرحمة واللين والانفعال. والظاهر أن الرئاسة تناسب التفكير وهو في الرجال، ولا تأتلف بالعطوفة واللِّيْن اللَّذَين هما في النساء. فإنك ترى النساء لا يمكن لهن أن يقتلن أحداً أو أن يضربن، ولا يستطعن أن يخضن في مواقع الخطرات، بل يجتنبن من المخاوف والمهالك. وكل ذلك دليل اللِّيْن والحَنان والعطوفة والانفعال. بخلاف الرجل، فإنك تراه يخوض في المهالك والمعارك، ويجترئ بطبعه، بَسولٌ بفطرته، لا أشك أن يشك فيه أحد. وقوله عزَّ وجل: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ تلميح إلى المصلحة الثانية، وهو أنه يقوم بالإنفاق عليهن وبالبيع والشراء والمعاملات ودفع الْمَضرات والخروج لأسباب الرزق، وهذا يقتضي أن يكون رئيساً زعيماً قيِّماً لأمرها، حاكماً عليها، سيداً.

وقد تلقى المسيحيون ما نقول بالقبول عملاً، فإن أهم المناصب وأعلاها عندهم مفوَّضة إلى الرجال، كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بأحوالهم، فإنكارهم كإنكار الخَفاش ضوء الشمس. والله أعلم.

التفريق بالحجاب

ههنا مسئلتان. الأولى: الستر. والثانية: الحجاب.

أما الستر فالرجل والمرأة كلاهما فيه مساويان، يعني كما لا يسوغ لها أن تُبديَ عورتَها من السرة إلى الركبة لأحد كذالك لا تجوز له هذه الشنيعة. ويجوز أن تبدي رأسها وصدرها وساقيها وعضديها للمَحْرَم. ويجوز للمَحْرَم أن ينظر إلى

(١) النساء، الآية: ٣٤.

الأعضاء المذكورة. ويجوز للرجل أن ينظر من الأجنبية وجهها وكفيها بشرطِ أمنِ الشهوة، وعند الضرورة. ولا يحل من غير ضرورة. قال البيضاوي ـبيَّض الله وجهَه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ـ في قوله تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.[١]: والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والْمحرَم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة، كالْمُعالجة وتحمُّل الشهادة.[٢] ويجوز للزوج أن ينظر إلى كل بدن زوجتها.

والثانية: الحجاب. أي عدم اختلاطهن بالرجال، والقرار في البيوت، وعدم التبرج إلا في ثلاثة مواطن: مواضع العبادة، وأماكن العلم، وميادين الجهاد. وهذا واجب عليهن. وهذا هو الهدف للطاعنين المسيحيين ويَقْفو قَفْوَهم من هو ضعيف العقيدة من المسلمين الذين تأثروا من عقائدهم ورُعِبوا من اختراعاهم، فانتهجوا منهجهم. وهذا (أي الحجاب) واجب عليهن. كما قال الله تعالى خطاباً لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾.[٣] وقال عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.[٤] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾.[٥] الآية. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

(١) النور، الآية: ٣١ .

(٢) التفسير البيضاوي ٢/٩٨.

(٣) الأحزاب، الآية: ٣٣ .

(٤) الأحزاب، الآية: ٥٣ .

(٥) الأحزاب، الآية: ٥٩.

أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرأة عورة، فإذا خرجتْ استشرفها الشيطان».(٢)

فاستخلص من هذه الآيات أمور. **الأولى**: أن العزيمة في المرأة أن تكون زينة بيتها كحِلس البيت، ولا تخرج لما فيه من المفاسد، إلا أنه قد تقع الضرورة إلى الخروج، ففي مثل هذه الحال أمِرن بأن يُدنين عليهن جلابيبهن، يعني لا يخرجن متبرجات، بل ليلبسن جلابيبهن لتكون أشخاصهن محجوبة عن الأعين الضارة التي هي كالسُّم الناقع. ثم قد تقع الضرورة إلى إخراج الأيدي والوجه في المعاملات والشهادات وغيرها، فيجوز حينئذ إخراجها. وإليه الإشارة في قوله عز وجل: ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. يعني ما ظهر للضرورة، ولهذا لم يقل (ما أظهرن) إذ الإظهار ليس بجائز.

وههنا اعتراض ساقه بعض المستشرقين وأذنابهم، وهو: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، فاستثنى الله تعالى ما ظهر من الزينة. والظاهر أن المراد منه مواضع الزينة، كما ذهب إليه أرباب التفسير، فيجوز إبدائها للأجانب.

والجواب عنه **أولاً** : أن المراد مما ظهر: الظهور بالاضطرار للحاجة، لا بالقصد؛ لأنه ليس من المعقول أن يمنع الله من ضرب الرِّجل على الأرض ويسمح في إظهار الوجه، وأن يردَع من إظهار الرأس ويجيز في إظهار الوجه.

وثانياً: إن الله بين في هذه الآية قسمين من مواضع الزينة: أحدهما: المواضع التي تستحق التستُّر والتحجب، ولا تتحرج في تسترها كالساقين. وثانيهما: المواضع

---

(١) النور، الآية: ٣١.

(٢) سنن الترمذي، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم:١٠٩٣.

التي تطلب التستر وتلحقها الحرج في تسترها كالوجه واليدين، فأشار الله إلى قسمين بقوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، ثم بيَّن وأرشد أن مواضع الزينة سواء كانت ما ظهر كالوجه أو لم تكن ظاهرة بطبعها كالساقين يجوز أن تُظهر للمحارم. وأشار إلى الأول بقوله: ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾. فالحاصل أن المراد الظهور بين يدي المحارم، لا الأجانب.

وثالثاً: ما قاله المفسرون أن المراد مما ظَهَرَ في الصلاة، يعني كل بدنها عورة لاَ تُبديها إلاّ ما ظهر منها في الصلاة، فإن الوجه والكفين والقدمين تظهر في الصلاة.

والأحناف قائلون بإباحة كشف الوجه واليدين بشرائط: الأول: عدم الفتنة، والثاني: عدم الاختلاط بالرجال، والثالث: عدم الخلوة، كما يفهم من كتب الفقه والحديث، فلا يباح في هذا الزمان زمان الفتنة.

فوائد الحجاب

أما أولاً فقد بيَّنّا أن المرأة مجبولة على الميل والرجحان لترتيب أمور البيت وتربية الأولاد وتحمُّل المشقة في ذلك. ومع ذلك لو كلَّفناها بالعمل خارج البيت وأخرجناها من البيت تكون كُلْفة ومشقة لا تكاد أن تحملها. فالأوفق بالفطرة أن تشتغل في البيت ولا تخرج منه.

وثانياً أن في خروجها من البيت فتنة عظيمة، فإن المرأة فتنة إذا بدت في لباس بَرّاق شفاف، وظهرت في ديباج واستبرق، وكحلت عينيها، وزيَّنت وجهها، تدع الناظرين من الفساق في حيرة، وترى الرجال في مثل هذا الْمجتَمع لا تقع سهام نظرهم إلا على جسم نظيف، وحسن لطيف، يهز الأرواح والأشباح. وتراهن في الأسواق متحلّيات بالجمال، يتلألأن تلألؤ القمر، أو كالنور الزاهر. تجدهن مقبلاتٍ بأجياد بارعة، وخُصور دقيقة، وبياض مشوب بالحمرة، يتسَرْبَلْنَ بملاحة، ويتسَرْوَلْنَ بِتَبَخْتُرٍ وتمايل. فهل يقول أحد في الرُّبْع الْمَسكون أن نسوةً هذا شأنهنّ يستحقن

الخروج من البيوتات إلى الْمَجامع والأسواق؟ كلا وحاشا! هل تظن أيها العاقل أن فيهن شائبة من الحياء، أو رائحة من الغيرة والفتوة؟ وهل أكرههنّ الإسلام على الرقص في الاحتفالات، والتبرج في الْمُنتديات، وهل أرشدهن الدينُ إلى أن يصرن لُعبة للرجال، وذريعة للبياعات؟ فمن افترى على الله الكذب فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظالمون.

هذا كله من مَضَرّات التبرُّج، والخروج إلى الأسواق والطُّرقات، والبروز في السِّكك والشوارع العامة. فالأمر بالقرار في الدار يوافق روح الْمُجتمع. وفيه سدّ لِباب الزنا، فإن مشي الفتيات من دواعي الزنا، فإذا اجتمع الفِتيان والفتيات في المكاتب والكليات بلا حجابٍ ولا مانعٍ مع وفور دواعي الشهوة، وتزيُّنها بأنواع الزينة يقضي العقل السليم بإيقاد نار الشهوة. وكثيراً ما تراهن تعتكفُ العيون على محراب جبينهن، وتتوجه الأنظار إلى قِبلة حسنهن. وبالآخر ينتج ما يَمُجُّه العقل، ويستنكره الشرع، وهو التلاقي بغير العقد الشرعي، والسِّفاح بدون النكاح.

وقد جاء في الإنجيل في العهد الجديد: «وأما أنا فأقول لكم: أن كل من ينظر إلى امرأة لِيشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تُعْثِرُك فاقلعها وألقها عنك»[(١)].

أيها المسيحيون! إذا خرجت نساؤكم إلى الأسواق والْمُجتمعات هل يمكن العمل على هذا الحكم؟ وظني أنهم لو عمِلوا بكلمة الإنجيل لتقلع أعين ألوف من المسيحيين كل يوم. فما ذا فتواكم في الناظرين الْمُتَمَتِّعِين كل حين بجمال النساء؟

---

(١) إنجيل متى، الباب الخامس.

شهادة المسيحيين على ضرورة الحجاب

يتمنى أهل الْمَغرب ويتأسفون على حالهم في أمر الحجاب، ويتشوقون أن لو كانوا مغمورين في نعمة الحجاب. والشهادات في ذلك كثيرة. تقول الكاتبة الشهيدة «اني رورد» في مقالة نشرتها في جريدة «الاسترن ميل» في عدد ١٠ مايو ١٩٠١م: لأن تشتغل بناتُنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في الْمَعامل حيث تصبح البنت مُلَوَّثة بادرانٍ تذهب بِرونق حياتِها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحِشْمَة والعَفاف والطهارة، رداء الخادمة والرقيق يتنعَّمان بأرغد عيش ويعامَلان تعامل البيت، ولا تمس الأعراض بسوء. نعم! إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مُثُلاً للرزائل بكثرة مخالطة الرجال. فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فِطرتَها الطبعية من القيام في البيت، وترك أعمال الرجال للرّجال سلامةً لشرافتها.(١)

ويقول «جرل سيمون» في مجلة من الْمَجلاّت الفرنسية: المرأة التي تشتغل خارجَ بيتها تؤدي عمل عامل بسيط، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة. وإن شئت تفصيل هذه الشهادة فراجع «المرأة بين الفقه والقانون».

وثالثاً من فوائد الحجاب: إن الله قسم الأعمال بين الصنفين، فالرجل مجبول على العمل والإنفاق على الأسرة، والمرأة بالحضانة وتنسيق أمور البيت، فلو اشتغلت في الأعمال لتعطل أمر البيت، وهذا قلب الموضوع، وتصير طالبة للمُوَظَّفات في المتاجر والدواوين، ويتعطل بذلك كثير من الرجال ويقعدون في البيت، وقد شهِد بذلك الأوربيون حامِلو عَلَم حرية النساء.

قال الدكتور مصطفى: ومثل ذلك يقع الآن في أمريكا، فقد أدّتْ مزاحمةُ المرأة

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٧٨.

للرجل إلى بطالة معيشةٍ في الرجال تزداد يوماً بعد يوم.[١]

فاستخلص من هذا:

١- أن المرأة زينةُ البيت وجمال الأسرة، لا ينبغي لها أن تخرُج.

٢- ولو خرجت تخرج مُتَقَنِّعةً بالقِناع والحجاب.

٣- لا يمنعهن الإسلام من التعليم والدراسة، بل تدرُس كما ينبغي لها.

٤- ورخَّصتِ الشريعةُ خُروجَها للجهاد، فيجب أن تستعدَّ للجهاد وتُهَيِّئَ في حدود إسلامية.

٥- لا تُمنَع من العمل بل يفوَّض إليها ما يناسب شأنها من تطبيب النساء والأطفال، وتعليمهن، وتأديبهن، والْمِغْزَل، والتغزيل، وإجراء مَاكِينَة الخِياطة، وتطريز الثياب، وغسلها، وغيرها من الأعمال اللَّيِّنة السهلة. والله أعلم.

الجواب عن طعن المسيحي العنيد

وما قال البادري بركة الله: «إن المرأة محل شهوة الرجل والحرث له، وهذه إهانة لها واستخفاف بها». فهذا عجيب منه، فإن الرجل والمرأة مطبوعان على الميلان والشَّبَقِ والشهوة، فكل منهما محل شهوة الآخر، وعيش كل واحد لا يَهنَأُ إلا بالآخر، وكل منهما يسكن إلى الآخر، فقد جعل الله بينهما رحمة ومحبة وميلاً، حتى كأنهما صارا جسداً واحداً، وإنهما للحياة كالعَجَلَتَين لا يمكن أن تتحركَ الحياةُ بأحدهما بدون الآخر. ونقول لهذا السَّخيف: إن هذا طعن في قانون الفطرة؛ فإن الله عز وجل جعلها حرثاً للرجل، ولو لم يجعلها حرثاً لانْمحى عَبَدَةُ المسيح عن صفحة الأرض وانقطع نسلهم ولم يبق من بذرهم شيء. نعم! لو كان عندهم مصنع جديد لتوليد الأولاد لكان الأمر سهلاً. فوا أسفا على قوم جعلوا نساءهم آلات اللعب،

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص١٩٣.

يدفعوهن إلى مذالق الشهوة، ويجروهن إلى مجالس الرقص والغناء والخمر، ثم يطعنون في الإسلام وتعاليمه، ولنعم ما قيل: (شعر)

ہم آہ بھی کرتے ہیں تو ہو جاتے ہیں بدنام تم قتل بھی کرتے ہو تو چرچا نہیں ہوتا

وقد طعن هذا المسحيُّ عدوُّ الله في نعيم الجنة، وافتراش النساء فيها، وغيرِه من النّعم. وهذا طعن قديم لأسلافه، فهذه نَغمة قديمة تخرج من طنبورهم حينا فحينا، فإن مذهبهم أن في الجنة نِعماً روحانية، لا جسمانية، والذين يدخلونها يصيرون كالملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون. ودليلهم في ذلك ما ورد في إنجيل مرقس: «وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون: ليس قيامة، وسألوه قائلين: يا مُعَلِّمَ كُتُبِ موسى لنا! إن مات لأحد أخ وترك امرأة ومات ولم يترك نسلا، فأخذها الثاني ومات ولم يترك هو أيضاً نسلاً، وهكذا الثالث، فأخذها السبعة ولم يتركوا نسلاً، وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً، ففي القيامة متى قاموا لمن منهم تكون زوجةً؟ لأنها كانت زوجة للسبعة ؟ فأجاب يسوع وقال لهم: أليس لهذا تَضِلون إذ لا تعرفون الكتب، ولا قوة الله؛ لأنهم متى قاموا من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون، بل يكونون كملائكة في السماوات».(١)

والقرآن ناطق بوجود الأزواج المطهرة، والحور العين، وظِلٍّ، وفواكه مما يشتهون، والنِّعم التي لا تزول في الجنة. ترى الكتاب الْمَجيد مملوءاً منها. فهذا الحكم الموجود في الإنجيل قد امتَدَّتْ إليه يد التحريف، إذ هو خبر لا يمكن نسخه. ووجود هذه النعم في الجنة مطابق للعقل، فإن هذه الأشياء نِعم في الدنيا، والله يعطي الأجر الذي يسرُّ به العبد في الآخرة ويرضى به، فإعطاؤها في الدنيا التي هي دار غرور وتكُّدرٍ ومنعُها في الدار الآخرة التي هي دار السرور والنعمة مما يَمُجُّه العقل السليم والطبع المستقيم. ونقول: العذاب عندكم في الجسم يدل عليه الإنجيل في مسئلة

(١) إنجيل مرقس، ص١٢، الآية: ١٨-٢٦.

حرمة النظر إلى المرأة. قال: «فإن كانت عينك اليمى تُعْثِرك، فاقلعها وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلِك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك في جهنم».[١]

فلما كان العذاب في الجسم والروح، فالثواب والنعيم أيضاً يكون في الجسم، إذ هما أخوان. ولقد أشار كتاب الزبور إلى الجنة بقوله: «الصديقيون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد».[٢] والسكون والبقاء إلى الأبد يكون في الجنة. وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.[٣] إذ المراد بالأرض أرض الجنة على قول، فتطابقت الآيتان.

وقد أبطل الشيخ الجزري في «أدلة اليقين» قولَهم، وأقدم لكم خلاصة ما أفاد، قال: على أنا لو قلنا: إن الناس يكونوا كالملائكة، فالملائكة مُستوُون في الخلقة، فعلى هذا يكون الكافر مُساوياً بالمسلم، وإن علماء الأرواح أجمعوا على أن الروح الْمُجرّدة عن المادة لا تعمل إلا إذا تعلق بالبدن. وأيضاً من المقرَّر أن الله يخاطب بحسَب عقول الناس، وهم يعرفون اللذة والألم بالجسد، فيخاطَبون بذلك، وأما إذا خُوطبوا بالأجر الْمَجهول، فلا معنى له إلا تعطيل العمل. وأيضاً نسأل هل يُبعث النوع الإنساني يوم القيامة، ولكن يُنْزَع منه الحِسُّ وما يتعلق به من دواعي اللذات، أو ينقرض النوع الإنساني في هذه الحياة الدنيا ويَبيد، وتبقى الأرواح كالملائكة؟ كلاهما باطل بالبداهة. أما الأول: فإنه مما لا ريب فيه أن فُقدان حواسِّ الإنسان نقص واضح في تكوينه، فإذا وُجد إنسان ليس فيه الحِسُّ، فهو إنسان ناقص. وإن كان الثاني فهذا إلغاء النوع الإنساني، لأنه ثبت أن الله ميَّز الإنسان من الحيوانات بالعقل، ومن الملائكة بالشَّهوة، فالإنسان جامع بين العقل والشهوة، فإلغاؤها إلغاء

---

(١) متى، ص٥٠، الآية: ٢٩.

(٢) زبور، مزامير ٣٧، الآية: ٢٩.

(٣) الأنبياء، الآية: ١٠٥.

النوع الإنساني، ولما كان أفضل أنواع المخلوقات، فلا يصح أن يُعدِمه الله كغيره من الحيوانات.[(١)]

ويترشح من مواضع عديدة من الكتاب المقدس وجود النِّعم الجسمانية في الجنة عند الله. فإن شرب العصير عند الله مذكور في الأصحاح السادس والعشرين من متى. وإذا ثبت عندهم أكلُ الله عزَّ وجل بعد ما تجسَّد في بطن مريم، فأي حرج في أكل عامة أفراد الإنسان؟ والإنسان في الجنة وإن كان كالملائكة كما أجاب به المسيحُ، فهذا لا ينافي الأكل والشرب، فإن الملائكة يأكلون كما ينبئ عنه الآية الثامنة في الأصحاح الثاني عشر من التكوين «إن الملائكة جاءت إلى إبراهيم عليه السلام، فهيَّأ لهم الطعامَ من العِجْل والحليب والزبد فأكلوا». كذا في الجواب الفسيح.

فنحن نعتقد أن الجنة محفوفة بالنِّعم الجسمانية والْمِنح البدنية. وإن الناس يسكنون فيها فَرِحين بما يَستَلِذُّونه ويستحلونه. وإن أجسامهم تكون إن شاء الله مغمورة في حلاوة ولذة ونعمة وعزة وشراب وطعام وعصير وبساتينَ وحورٍ وغلمان تَقَرُّ بها أعينهم، وتسر قلوبهم، لا تبلى أجسامهم، وتلمع قصورهم، وتَشِفُّ خيامهم.

والعبد الضعيف محتار في أن المسيحيين الذي جعلوا الدنيا أكبرَ همهم، ومتاعها أنسان عيوهم، ومرمى عقولهم، وفدَوْا عليها دينهم وشريعتهم ونواميسهم، كيف ينكرون وجود النساء والنعم الجسمانية في الآخرة، ويشمئزُّون عما يكون ذريعة للقَرار والطُّمَأنينة والفرح والسكينة، إن هذا إلا عناد وخصومة، أو عمًى بأبصارهم وبصائرهم، فيتنفرون عما هو مقصود حياقم، ولا أرى أن الجنة التي لا تكون فيها النساء اللاتي جعلهن الكتاب المقدس جزءَ جسمٍ يرتضيها المسيحيون من جذر قلوبهم، فإن أرواحهم ونفوسهم مشوبة بالنساء حبّاً واختلاطاً ومُغازلةً ومشياً في

(١) أدلة اليقين، من باب الجنة ونعيمها في نظر المبرزين.

الأسواق، فترى نساءَهم شريكات في جميع شؤونِهم، فانظر ـ يا رعاك الله ـ إذا كان الله عزَّ وجل يمنح ويُكمِل ويتم جميع أماني الإنسان في الجنة، كيف لا يمنحه هذه النعمة العظمى والأُمْنِيَّةَ الكبرى.

ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

دسائس المسيحيين بالمسلمين وعُطوفة المسلمين بهم

قد مر منا في أوائل المقالة أن الجنود الإنجليزية لما تَسَيْطَرَتْ على أرض الهند أخذوا في تبديل دين المسلمين. ونحن نذكّر لِمُدَّعى الصلح والرقة والأمن ما فعلوا بالمسلمين حينما تسلّطوا وتسَيْطروا على أرض الهند. وإليك أنموذجاً منه: لما اجتمع المسلمون ضِدَّ الإنكليز وجعلوا قائدَهم سراج الدين بهادر شاه، وغلب عليهم جنود الإنجليز لأسباب لا حاجة إلى ذكرها، ظلموا على أهل الهند، خصوصاً على المسلمين؛ لما أنهم علموا أن الحظ الكبير في هذا لهم؛ لأنهم يعتقدون الجهاد فرضاً دينياً، فقتلوا بعد إعطاء الأمان ثلاثةً من أبناء الملوك، وثلاثة وعشرين من أسرته، وطردوا الْمَلِكَ إلى بلدة رنكون، وصارت البلدة خاوية لا ترى فيها إلا قتلى وصرعى أمواتا وشهداء، كما ساقه الشيخ أبو الحسن علي الندوي بتفصيله، وسَرَده السيدُ طفيل أحمد في كتابه «روشن مستقبل» «المستقبل الزاهر» بلفظ ـ تعريبه ـ: أنهم اعلنوا بعد ما تسلّطوا: لقد استخففنا بقاطني الهند، ونسخنا قانون إرثهم، وبدَّلنا أصول نكاحهم، ومحونا عاداتهم، وغصبنا أراضيَهم، وكفَّرناهم في القانون الرسمي إلى آخر ما قال.(١)

وانظر إلى ما قال ضابط منهم: قتلنا ألوفاً من أهل القرى غيرَ آثمين، وصلبناهم، وعلّقناهم بالأشجار من أنباله إلى دهلي، وثُقِبَتْ أجسامُهم ونُحِتتْ بالصنجات، وألقموا الهنودَ من أهل الهند لحومَ البقرات. وقال طاس: عُرِيَّ بعض

(١) روشن مستقبل، ص٦٨.

مسلمي الهند، ثم طُرحوا على الأرض مربوطين مشدودين، ثم كُويت أجسادهم وأبدانهم بالرصاص الْمُذاب، وضيَّقوا عليهم أرضاً وسعها الله لهم، وخِيْطوا في جلود الخِنْزير. فانظر إلى هذا الظلم الذي يصمُّ الآذانَ ويستوحش من استماعه الأسماع ويرتعد من تصوُّره الفرائصُ ويرتعش منه الأعضاء. ثم قابلْ ضَيْمَهم واعتدائهم برحم المسلمين وعَطفهم وإشفاقهم شفقةً كبيرةً. أقدِّم منه واقعةً ذكرها محمد علي:

«لما استرجع السلطان صلاح الدين البيت المقدس ٥٨٣هـ أُسِرَ من الصليبين مئة ألف، منهم ستون ألف راجل وفارس سوى من تَبِعهم من النساء والأطفال فأبقى صلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيراً، واكتفى بأن ضرب على كل واحد منهم عشرةَ دنانير، وعلى كل امرأة خمسةً، وعلى كل طفلٍ دينارين. وعجز بعضهم عن دفع الفدية فأدَّى أخو صلاح الدين عن ألفين منهم، واقتدى به صلاح الدين فعفى عن كثير منهم، وعامل نساء الإفرنج مُعامَلة لُطف، وسهَّل سبيل الخروج لملكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم، ورخَّص للبطريك الأكبر وعالمهم الكبير أن يسيرَ آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع. ولما قال المسلمون لصلاح الدين: إن هذا لبطريك يقوَى بما أخذ على حرب المسلمين. قال: لا أغدر به. و لم يأخذ منه إلا عشرة دنانير. ولما أخذ مَلِك الإنجليز ألفين وسبع مئة من أسرى المسلمين قتلهم بمرآى من عساكر صلاح الدين، وبَقَرَ عسكرُه بطونَ المقتولين ليروا إن كان فيهاشيء من الجواهر والذهب».[1]

(١) الإسلام والحضارة العربية بحذف وتغير /٢٩٨ لمحمد كرد علي.

كلمة الختام

وأخيراً، فهذا سعيٌ حثيث وجُهد ضئيل، وإن شئتَ فقل: هو خوض البحر ممن لا يعرف السِّباحة. قدَّمته إلى الناظرين العافين عن زلاتي وعثراتي، السادلين على معايب كلامي ستور الصفح الجميل. وها أنا معترف من صميم القلب وأعماق الصدر بأمرين، أريد أن أُبديهما لحضراتكم:

أحدهما: أني لست من فُرسان هذا الميدان، وليس لي في هذا الْمِضمار يدان، وأنا رثيث علماً، متأخر عملاً وحفظاً، كسيرُ البال، كثير البلبال. لست ممن يَجُوب هذه الْمَهامِهَ، والجبال الشامخات، ليس عندي قلم الفصحاء الكتَّاب، ولا علم العلماء الذين يَدقّون كل باب. فإن عدّني الناظرون في عِدَاد الطلبة، وستروا عيوبي بطيلسان العفو، وقدروا جهدي وانكماشي، فوا فرحاه! وهذا غاية المأمول، ونهاية المطلوب، ولنعم ما قيل (شعر):

وعينُ الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عينَ السُّخط تبدي الْمَساوِيا[١]

على أن حَظًّا كبيراً مما نمقتُ محكيٌّ عن كلمات أكابر الملة، وجهابذة الأمة، ونفثات صدورهم، فأنا أقِرُّ على رؤوس الأشهاد، وأعلن في كل محفل وناد: إن من أمارات الساعة أن يرقُص القلم في كف أمثالي، ويدور اليَراعُ على مدار أناملنا، ويحق لي أن أتمثل بقول الشاعر الهندي الدكتور محمد إقبال المغفور له بأدنى تغير لحكمة يعرفها اللبيب:

خدا کی شان ہے وہ لوگ رکن محفل ہیں کہ جن کو دور کی نسبت نہیں ہے محفل سے

ثم أترنَّم بشعر أفضل شعراء المتأخرين الْمُتنبي حيث قال:

إن السِّلاح جميع الناس تحمِله وليس كل ذوات الْمِخْلبِ السَّبُع

---

(١) البيت للإمام الشافعي رحمه الله تعالى. انظر: ديوانه، ص١٢٢.

ثم أُنشد بأعلى صوت، (شعر):

وما كل مخضوب البَنان بُثَيْنَةٌ وماكل مَصْقولُ الحديد يَمَان

والثاني: إني لم أقض حق مقالتي التي أُلقِيت على كاهلي، فكنت أردت، بل عزمتُ عزماً وكيداً أن أوشحها بلآلئ المقارنة في البياعات، وأحليها بمقارنة المعاملات الرائجة في الفريقين: الملة المسلمة والمسيحية، وأُحَبِّرها بالتباين بين المعاشرتين كتباين الأرض والسماء. وإن شئت فقل: بين الثَّرى والثُّريّا. بيد أني لم يتيسر لي هذا العمل لتراكم الأسقام، وقلة الفرص، وفقد الكتب التي تُنجِد في هذا الموضوع، بل أقول كما قلت في أوائل المقالة من غير خوف لومة لائم: إن ما يوجَد في هذا الموضوع من الكتب في اللغة الإنكليزية البليغة التي هي بعيدة عن متناوَلنا، ولا حظ لنا منها إلا حظ قطرة من البحر الْمَوّاج تعلقت بمِنقار عصفور في قصة سفينة خضر. والأمر بيد الله وهو العزيز الحكيم. ولا عليَّ أن أُضمِّنَ مصراع شاعر وهو نار على عَلَم، وأشهر من قِفَا نَبْكِ. شعر:

فلم أَستطع حتى تراخت عزيمتي وكم حسرات في بطون المقابر

ثم إني أرجو رَجاء قوياً من فضل الله سبحانه وتعالى وإنعامه أن يجعل طَلّي وابِلاً غزيراً وأن يوفقني لإتمام مُنيتي، وإكمال بُغيتي، وتقويض خيامه على أكمل وجه وأحسنه، فيراها الناظرون متحلية بِحُلي البِياعات متقلدةً بقِلادة أزهار ما طويتُ في نيتي، وما يخطر بالبال ويدورُ. فَبِيدَ الله أزمة جميع الأمور، فنَكِلُ أمرنا إليه، ونرجوه الإكمال، وإن كان على مر الدهور، نسأله أن يرحمنا في الدين والدنيا والآخرة، ولا يعذِّبنا بعد ما يُخفينا الترابُ في زوايا القبور. ومما قلت في مقالتي التي بين يديك متعجلا من غير إعماق فكرٍ ورَوِيَّة، شعر:

إذا استحسنتَ شيئا من كلامي فمأخوذ من آراء الفحول

وإن وافيتَ نقصاً أيَّ نقص فمنسوب إلى العبد الجهول

فجُهدي فيه أني قد نظمت وسقت إليك من غرر النقول

و إن ينفعُكَ فادع الله ربي يكن ذُخراً و أجراً للذّلول
ترى فيها عيوباً في عيوب فسامِحْ عنه بالصفح الجميل
فأهلُ الله دَيْدَنُهم جميعاً تسابقهم إلى العفو الجزيل

وأسأل الله إله العالَمين أن يجعلَها خالصةً لوجهه الكريم، وذريعة لخدمة الدين القويم، وهِداية للمتحيِّرين الضالين. ومنَهلاً عَذْباً للواردين الصادين، وروضاً آنفاً للمتنـــزهين، ومِسكاً فائحاً وروحاً وريحاناً تَعْبَقُ منها الفوائح إلى أذهان الطالبين، ومعاطس المسترشدين.

اللهم إنك عزيز مقتدر، ما تشاء من أمرٍ يكون، تقبَّلْ مني هذه الكلمات، بل الكليمات الرخيصة الضئيلة. وحق لي أن أقول كما قال إخوة يوسف على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.[1]

وصلّى الله على أشرف خلقه، وسيِّد أنبياءه، وخاتَم رُسله محمَّد، وآله، وأصحابه أجمعين. آمين.

الفقير إليه تعالى:

رضاء الحق عفا الله عنه وعن والديه

وغفر ذنوبه وستر عيوبه، وكان له في الدنيا والآخرة

(١) يوسف، الآية: ٨٨.

يقول الفقير إلى الله تعالى رضاء الحق عفا الله عنه:

فرغتُ بحمد الله تعالى وعونه من كتابة هذا البحث سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م في جامعة العلوم الإسلامية، علامة بنوري تاؤن، كراتشي. ثم شُغِلتُ عن إعادة النظر فيه وتقديمه إلى المطبعة باشتغالي بالتدريس والإفتاء في جامعة العلوم الإسلامية، وبعدها في دار العلوم زكريا. ثم أسعدني الله بإعادة النظر فيه في ربيع الثاني ١٤٢٩/ إبريل ٢٠٠٨م. ثم نظرت فيه مرة ثالثةً في شهر ربيع الأول سنة ١٤٣٢/ فبراير ٢٠١١م، فقوبلت النصوص بالأصل المنقول منه حينما ظُفِر به، وقد فرغت من خدمته نِهائيا وتَهيئتِه للطبع في ٢٥ربيع الأول سنة ١٤٣٢/ ١مارس ٢٠١١م .

وفي الختام أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يُجزِل النفع به ويتقبَّله مني. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم أجمعين.

وأن يجزي الخير من كتب هذه المقالة بالكمبيوتر وقابل النصوص بالأصول: الشيخ الأخ محمد عثمان البستوي ـ ناظم المكتبة ـ، والأخ محمد أويس بن يعقوب حفظهما الله تعالى ورعاهما.

المصادر والمراجع

اقتصرت فيها على ذكر الكتب المهمة التي أحلتُ عليها في الكتاب. وأغفلتُ ما رجعتُ إليه ولم أنقل عنه.

١. القرآن الكريم: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المحفوظ من التحريف والغلط.
٢. تفسير ابن كثير لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ط: دار المعرفة، بيروت.
٣. تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٤. تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، ط: دار الفكر.
٥. تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ط: دار المعرفة، بيروت.
٦. التفسير الكبير للإمام محمد الرازي فخر الدين، ط: دار الفكر.
٧. تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي المصري المتوفى سنة ١٣٧١هـ.
٨. الدر المنثور للإمام جلال الدين السيوطي، ط: القاهرة.
٩. روح المعاني للسيد محمود الآلوسي البغدادي، ط: ديوبند، الهند.
١٠. التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني، ط: عالم الكتاب، بيروت.
١١. شهادة القرآن لمحمد إبراهيم السيالكوتي.
١٢. التفسير الماجدي لمولانا عبد الماجد الدريا آبادي، ط: مجلس نشريات قرآن، كراتشي.
١٣. مقدمة التفسير الحقاني للعلامة أبي محمد عبد الحق الحقاني، ط: قديمي كتب خانه كراتشي.
١٤. صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
١٥. صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
١٦. سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
١٧. سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
١٨. سنن النسائي لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
١٩. سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني.
٢٠. الموطأ للإمام مالك.
٢١. الموطأ للإمام محمد.

٢٢. المسند للإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة.
٢٣. مسند أبي داود الطيالسي لسليمان بن داود الفارسي، ط: مكتبة حسينية، باكستان.
٢٤. مجمع الزوائد لِنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط: مؤسسة المعارف، بيروت.
٢٥. شرح النووي مع الصحيح لمسلم للإمام النووي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦. فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧. ترجمان السنة للشيخ مولانا محمد بدر عالم الميرتهي، ط: لاهور، باكستان.
٢٨. ظفر الأماني للشيخ محمد بن عبد الحي اللكنوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩. رد الْمحتار لابن عابدين الشامي، ط: دار الفكر.
٣٠. الفتاوى الهندية للشيخ نظام وجماعة من علماء الهند، ط: كوئته، باكستان.
٣١. فتح القدير للعلامة ابن همام، ط: ديوبند، الهند.
٣٢. الجواهر المضيئة لعبد القادر الحنفي، ط: مير محمد كتب خانه، كراتشي.
٣٣. التعليق الصبيح للشيخ مولانا محمد إدريس الكاندهلوي، ط: لاهور، باكستان.
٣٤. الأركان الأربعة للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ط: لكنئو، الهند.
٣٥. المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي، ط: دارالسلام.
٣٦. السيرة النبوية لابن هشام، ط: دار المعرفة، بيروت.
٣٧. زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ط: مؤسسة الرسالة.
٣٨. سبل الهدى والرشاد للإمام محمد يو سف الصالحي الشامي، ط: دار الكتب العلمية.
٣٩. مختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ط: مكتبة المؤيد، الرياض.
٤٠. الفضائل المحمدية ليوسف إسماعيل النبهاني.
٤١. رحمة للعالمين، للقاضي محمد سليمان سلمان منصور فوري، ط: ديوبند، الهند.
٤٢. إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: دار الفكر، بيروت.
٤٣. مراتب الإجماع للعلامة محمد بن حزم الظاهري، ط: دار ابن حزم.
٤٤. فيض الإله المالك للسيد عمر بركات الشامي البقاعي، ط: أصح المطابع ممبئي، الهند.
٤٥. الجواب الفسيح عما لفَّقه عبد المسيح للسيد النحرير الإمام مفتي الحنفية العلامة أبو البركات نعمان خير الدين الآفندي الآلوسي البغدادي.
٤٦. إظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندي الكيرانوي، ط: المؤسسة العالمية، قطر.
٤٧. إزالة الشكوك للشيخ رحمة الله الهندي الكيرانوي.

٤٨. أدلة اليقين لعبد الرحمن الجزري.
٤٩. الكتاب المقدس (BIBLE).
٥٠. الفارق بين المخلوق والخالق لعبد الرحمن بك باجه جي زاده.
٥١. ذيل الفارق.
٥٢. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة لشهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي القرافي.
٥٣. هداية الحيارى من اليهود والنصارى لابن قيم الجوزية.
٥٤. حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد.
٥٥. محاسن الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري من مشايخ صاحب الهداية.
٥٦. منحة القريب المجيب في الرد على عُبّاد الصليب للشيخ عبد العزيز بن أحمد بن ناصر.
٥٧. إغاثة اللهفان عن حكاية الشيطان لابن قيم الجوزية.
٥٨. الملل والنحل للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط: دار الكتب العلمية.
٥٩. مفاتيح العلوم للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي.
٦٠. بشائر النبيين لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي.
٦١. أحسن الحديث، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي ثم اللاهوري.
٦٢. بشارات النبيين، لمولانا محمد إدريس الكاندهلوي ثم اللاهوري.
٦٣. تاريخ الطبري، للعلامة المؤرخ محمد بن جرير الطبري.
٦٤. نزهة الخواطر لمؤرخ الهند الكبير عبد الحي بن فخر الدين الحسني، ط: ملتان، باكستان.
٦٥. تاريخ ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون.
٦٦. تاريخ الكامل لابن الأثير.
٦٧. توضيح البيان في أصول القرآن لبادري بركت الله.
٦٨. دعاء عام، الدعاء العام بالأردية رتب للأمة المسيحية.
٦٩. حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافي.
٧٠. إنجيل برنا باس لبرناباس.
٧١. ترجمة «الإسلام دين الفطرة». اسلام دین فطرت ہے۔
٧٢. حجة الإسلام لمولانا محمد قاسم النانوتوي مؤسس دارالعلوم ديوبند.
٧٣. تاريخ كليسا، لبادري بركت الله.
٧٤. المسيح والمسيحية للشيخ عبد الحليم شرر.

٧٥. اسلام اور فطرت، الأصل لعبد العزيزي الشاويش، والترجمة لافتخار أحمد.
٧٦. اسلام کا اخلاقی نظام للشيخ القاري محمد طيب رحمه الله، ط: ديوبند، الهند.
٧٧. عیسائیت کیا ہے؟ (ماهي المسحية) لمولانا محمد تقي عثمانی.
٧٨. عیسائیت کا پس منظر لمولانا سرفراز خان صفدر.
٧٩. بائبل سے قرآن تک (ترجمة إظهار الحق) الترجمة لمومانا أكبر علي، والشرح والتحقيق لمولانا محمد تقي العثماني، ط: مكتبة دار العلوم كراتشي.
٨٠. النكاح والطلاق في جميع الأديان.
٨١. منتهى الإرب للشيخ عبد الرحيم بن عبد الكريم.
٨٢. كشاف اصطلاحات الفنون للقاضي محمد أعلى التهانوي، ط: لاهور، باكستان.
٨٣. المنجد لِلُونيس معلوف، ط: دار الشرق، بيروت.
٨٤. غياث اللغات لمحمد غياث الدين بن جلال الدين، ط: ايج ايم سعيد كمبني، كراتشي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

ملاحظات